الـوهــم

هيثم نافل والي

obeikan.com

الكتاب : الــوهـــم (رواية)

المؤلف : هيثم نافل والي

الطبعة الأولى : القاهرة ٢٠١٧

رقم الإيداع: ٩٠٥٣ / ٢٠١٧

الترقيم الدولي: 9 - 277 - 493 - 977 - 978 :I. S. B. N

الناشر

شمس للنشر و الإعلام

٢٧ ش الثلاثين. برج الشانزليزيه . زهراء المعادي. القاهرة

ت فاكس : ٢٧٢٢٣٨٠٠٤ (٠٢) ، ٠١٢٨٨٨٩٠٠٦٥ (٠٢)

www.shams-group.net

حقوق الطبع والنشر محفوظة

لا يسمح بطبع أو نسخ أو تصوير أو تسجيل

أي جزء من هذا الكتاب بأي وسيلة كانت

إلا بعد الحصول على موافقة كتابية من الناشر

obeikan.com

شمس
للنشر والإعلام

الـوهـم

رواية

هيثم نافل والي

obeikan.com

obeikan.com

إلى دمعة فرح عيني

زوجتي

"نهاية"

أرفع روايتي التي أكتبها بحبر من روحها

هيثم نافل والي

obeikan.com

obeikan.com

مـدخـل

الضغط لا يولّد في رحم الإبداع إلا أجِّنة ميتة

دعونا يا جماعة الخير نتحدث بصوتٍ خفيض كصلاةٍ لطرد اليأس بأريحية بعيدًا عن التشنج على وزن نسترحم عطفكم ونلتمس عفوكم أجلَّكم ربّ السموات والأرض:

يمينًا، الحق ما أكتبه... الضغط الكثير وصلب الحريات خاصة الفكرية والتعبيرية منها يا أصدقائي تأثيره يكون كوتر الكمان المشدود أكثر مما ينبغي، نجده ينقطع ما أن يلامسه قوسه مطلقًا صوتًا أدنى إلى الأنين ثم يرتجف بعدها يموت. فما بالكم لو كان الضغط يُمَارس على الفنان المبدع؟... يا إلهي لا أستطيع أن أصف حاله. الخلاصة، سيكون كوترنا المشدود أكثر مما ينبغي؛ ما أن يدغدغه القوس وتقرصه الأنامل حتى يطق وينطفئ. وبخجلِ يقظِ عجيب ينزل أو يخرج علينا لا أعرف من أين كأننا نخشى خجلنا أو انفعالنا نواسي أنفسنا بقلوب منقبضة متحسرين، متوسلين بضراعة خرساء لا يمكن لي أن أتكهن لمن، مطأطئين الرؤوس مرتعدين الفرائص كالقتلة نعزي ظلالنا بنظرات ترد الظن إلى أعقابه ثم نكتفي بهذا القدر والحمد لله!.

يقال والعلم عند سبحانه: إذا أردت أن تكون ساحرًا عليك أولاً أن تُصاب بلوثة عصبية!... الحياة يا من أجلِّكم قتلت في نفسي أشياءَ كثيرة، لكنها أحيت أيضًا أشياء أخرى منها وأهمها الكتابة. الحقيقة التي لا مراء فيها هي

أني أكتب ويدي على قلبي، لأنني ببساطة شديدة لي عائلة وأخاف على نفسي وعليهم حتى من مواء القطة.

من حق كل شخص أن يحلم ما دام قلبه ينبض بالحياة. أنا أحد هؤلاء الحالمين؛ كنت أطمح ولا أطمع أن أكون كاتبًا يشار له بالبنان والعرفان، لا أعرف بالتحديد نوع الشيطان الذي كان يوخزني مثل إبرة النحل ليشير لي بتلك الصنعة التي أجهل نسب جنّيها في وقتٍ غير بعيد، لكنني كما قلتُ: لم أخنق نفسي بيدي، ولم أعدم حلمي، حاولتُ، اجتهدتُ، وسهرتُ الليالي الطوال من أجل ذلك الهدف المنشود الذي أعشق.

في وقتٍ بدا لي لا أول له في غربتي المبكرة التي مازلت أعانيها؛ أقصد أعيشها معتبرًا نفسي من زمرة الشباب؛ تعرّفتُ على رجلٍ ودودٍ يكاد خداه ينفر منهما الدماء القانية لتفصدهما بالعافية والصحة، يعمل رئيسًا لمنظمة ترعى وتعنى بحقوق الإنسان، والإنسان في أوروبا ليس كما نعرفه في شرقنا الغافي، هنا يعتبرونه الغاية، ونحن نُسّمية: المطية، التي عليها يحملون ويمررون جُلَّ شياطينهم ومؤامراتهم وخوازيقهم، ولا أريد أن أسترسل أكثر حفاظًا على الذوق العام كي لا يُجرح!... حيث رأى ذلك الرجل الطيب طموحي، وربما سمع بحلمي، مدَّ لي يد المساعدة بسخاء لا يعرفه غير البحر دون شروط؛ وهذا هو المهم؛ أقسم على أن المساعدة كانت غير مشروطة، لأنني أعرف أن كل شيء له مقابل وثمن حتى الصمت!، لا شيء مجانًا، لكن مساعدة ذلك الرجل كانت بصدق غير مشروطة، لم يطالبني مثلاً أن أغيّر ديني، أو أن أكون كاهنًا في قرية نائية، مطلقًا، لم يحدث من هذا الذي نراه يوميًا في الضفة الأخرى ومن حيث تشرق الشمس أبدًا...

عملنا معًا في إصدار كتيب كنت قد أعددّته وكتبته بخط يدي لعدم توفر آلة كاتبة باللغة العربية عام ١٩٩٠ في ميونخ، نرتِّب أوراق الكتيب ونثبتها بدبابيس مطوية رقيقة ناعمة كأجنحة الجراد، ثم نستنسخها ونعيد طباعتها ونوزعها على اللاجئين العرب الجُدد مجانًا بلا شروط، أي والله، بلا شروط... كانوا ما شاء الله يتوافدون يوميًا بالعشرات، حتى بات الأمر اليوم أكثر مسليًا، معذرةً، أعني مؤلمًا ومألوفا... بآلاف نتيجة طاعون الشرق الذي هربنا منه ونفدنا بجلدنا قبل أكثر من ربع قرن.

كانت تلك أولى كتاباتي التي نشرتها عبر الكتيبات الثلاثة التي حملت وقتها عنوان "أشعة من ظلمات" ضمّنتها لوحات تشكيلية خربشتها بالقلم الرصاص - أعدم نظري إن لم أقل غير الحقيقة - حتى ظهر في حياتنا وقتها معتوهٌ له عينا وغد مخنوق بالحنق يقول عن نفسه دكتور من إحدى قارات العالم العربي الكثيرة المتناثرة التي كل قارة تختلف عن أختها حتى باللغة والدين، طاش لُبّه عندما قرأ تلك الكتيبات المظلومة فقرّر أن يترجم أحدها إلى الإنجليزية؛ لم أتأكد من صحة ترجمته لحد هذه اللحظة. الكتيب مازال يتمتع بدفئ عجيب، محشور بين مئات الكتب المرصوصة المرصوفة في مكتبتي المنزلية المنحوسة التي كلَّفتني أجر عمل سنوات طوال يصعب الساحر العتيد من عدِّ قيمتها أو يتوقع مقدار دم قلبي الذي دفعته لقاءها...

وقتها أشار لي ذلك الرجل الرحيم رئيس المنظمة التي تعنى بالإنسان والحيوان على حدٍّ سواء أعزَّه الله بمجلة تصدر في عاصمة النمسا تمولها قارة تختلف عن قارة صاحبنا المعتوه الذي يدَّعي بأنه دكتور ترك مهنته لأمور

تتعلق بعقله يتمختر بمشيته كصبية شبّت عن الطوق ناطقة بالعربية... لم أكذّب خبرًا، بعثت لهم بعض من القصاصات الورقية التي لطّخها قلمي وسوّدها حبره، تم نشر محتوياتها والتعليق عليها، مازلت أملك النسخة الأصلية غير المغشوشة وحق ما نعبد.

هكذا بدأت غربتي ورحلتي مع الكتابة في غربتي، حتى أصدرت كتابًا بعنوان "نتاج السنين " تضمّن مجموعة من الآفات القصيرة، عُذرًا، أقصد القصص القصيرة المدمن على كتابتها... وزّعتُ الكتاب مجانًا على كل عابر سبيل يرميه القدر أمامي!.

قلتُ أحدّث نفسي: لأجرّب حظي وأكتب مسرحية... وكانت اللعنة، أصدرتُ واحدة يتيمة لن أكرّرها بعنوان "الشك وأشياء أخرى " بعتها على قدر حق طباعتها، ما دفعته عليها، ورقها وحبرها... الحقيقة، حمدتُ الله على النتيجة من كل قلبي، فأنا لم أخسر ولم أربح فيها.

عكفتُ على دراسة تاريخ الأديان، أربع سنوات من البحث كانت كافية، كتبتُ ملاحظاتي، خرج كتابي الشنيع الذي يحمل عنوان "الدين والنبي في التاريخ" ذلك الذي جعلني أصطدم وقتها مع بعض المؤمنين الذين يخافون الله... أنا كنت ومازلتُ أحب الله، هناك فرق بين أن تؤمن بالله خوفًا وبين أن تؤمن به حُبًا... قرّرتُ وقف توزيعه سعيًا للسلامة، والروح كما يُقال؛ عزيزة.

كما قلتُ، عندي حلم أريد تحقيقه، من حقي أن أحلم، كل إنسان لا بد له أن يحلم، الأحلام مازالت مشروعة، يمكن اغتصاب أشياء كثيرة من الإنسان حتى الأفواه كما لا يخفى، لكنهم لا يستطيعوا أن يسرقوا الأحلام من خيالات سواد

الناس؛ قتلها أو اغتيالها، كالمواهب التي يهبها الله سبحانه لمن يشاء دون حساب، من يريد أن يسطو على موهبة جاره لا يكون أمامه إلا قتله، إذ لا يمكن أن يكون موهوبًا إلا بإرادة واهب النعم، الموهبة لا تأتي بالتعلم أو الدراسة أو التعود، فهي إمَّا أن تكون أو لا تكون، ولو حصل وقُتِل الموهوب كما حصل مع البارع "موزارت" يضيع، كما يقول المثل العراقي الجميل الخيط والعصفور، المبدع وإبداعه.

داخلي كان يصرخ صراخ من يُسلخ جلده.. كدتُ أيأس، لولا ظهور الطبيب الصديق (س. ج. ف.) في حياتي، الذي مازلت لم ألتقِ به، نصحني بمؤسسة شمس للنشر والإعلام، وكانت البداية بعد عُمرٍ ناهز الخمسين!.

من الاستحالة أن تكون روايتي هذه الأخيرة حتى لو رحلتُ عنكم جسديًا، مؤلفاتي ستغوص في أعماق نفوسكم إلى ما شاء لها الله تُقرأ، لأنني في أعماق وجودكم أكون موجودًا.

هيثم نافل والي

٢٣ آذار ٢٠١٧

ميونخ، ألمانيا

openkan.com

obeikan.com

اعطني العافية ونهارًا واحرًا

وأنا الكفيل بأن أجعل من أبهة الملوك والأباطرة مهزلة

رالف امرسون

- **تنويه** :

استناوًا لقول خالد الذكر الكاتب الروسي مكسيم غوركي "كلنا بشر، كيفما مثلت نفسك، مهما تلونت، إنسانا ولدت، وإنسانا تموت"... أقول :
يولد النور من فحمة سوداء. أرجو أن لا يُعيَرني صديقي القارئ الكريم بالعمى وهو بصيرُ... الرواية كتبتها بحروف من سيرتكم دون ذكر حياتكم، هي خيال واقعكم، مسرح كونكم، وعلى خشبته أعمالكم تمثلون.

المؤلف

obeikan.com

(١)

أحيانًا يصعب على المرء فهم ما يدور حوله، فينكبّ بلا إنصاف مجازفًا في كل شيء من أجل المعرفة. مع الإيمان يزداد قصر النظر. ألسنة النار غير سحب الدخان، من يتمكن من حجب الأولى لن يستطيع إخفاء الثانية بسهولة. علينا ألا نيأس، معنوياتنا أجسادنا؛ إن هلكتْ هلكنا. عندما يتراكم الصمت يبدو للمساكين المعذبين على الأرض مثل طريق موحش طويل حدوده الأفق البعيد. الحياة تدبّ في الإنسان عندما يتحرّر من عقدة خوفه، وعلى الرغم من قصرها نقضي نصفها في النوم!.

في الطائرة التي استقلتها أنهر وزوجها آدم لأول مرة في حياتهما سنة تسعين من عام الحرب القرن العشرين نهاية حزيران، كانت الأجواء لهما غريبة، موحشة والرهبة تبتلعهما. هناك، على الأرض تركوا الأهل ودموعهم خطوط تجري كأخاديد من الرصاص على خدودهم، هجروا الأصحاب والأحباب والشعب الطيب المسكين. هنا أزيز الطائرة المربك، خوف من مجهول يشبه الهاوية، ورُكَاب من كل الأصناف يشاركونهما التحليق في رحاب لا يعلم من سرها غير الله. شعور غريب ينتابهما كوجودهما اللحظة بين الأرض والسماء، يسعيان إلى الحياة، الحياة التي رأيا الموت فيها، طاعون الشرق الذي عاث بالأرض والعباد الخراب، يذهبان نحو طيف، نحو حلم، أمل تعلق في أذهانهما يريدان تحقيقه، الوصول إليه بأي ثمن... هناك في الضفة الأخرى من العالم أرض جديدة تنتظرهما، أناس يجهلون لغتهم، أعرافهم، أخلاقهم، وعلى غير لونهم، يسرعان الوقت بغية الركون إلى الهدوء والسلام، وكمال أخ أنهر معهما، يجلس متقدمًا باتجاه بوز الطائرة بكرسيين عنهما.

سأل آدم زوجته بصوت محبوس منخفض مرتعش من الانفعال:

- من يصدِّق يا أنهر بأننا الآن في الطائرة التي تقلنا بعيدًا عن الطاعون؟. آه. أخيرًا سنحقق كل أحلامنا وما نصبو إليه. سنعيش أحرارًا كالفراشات والعصافير، لا شيء يقيِّدنا غير القانون وميزانه العادل. سنترجم كل ما تعلمناه، ما قرأناه وطالعناه في الكتب ونجعله حقيقة وواقعًا نعيشه. لكن هذا لا يمنع من أن أشعر بالخوف، هناك شيء ما يهزني من كياني، لا أستطيع ترجمته بالكلمات، هواجس غامضة تزعجني، تلح عليَّ، لا أعرف بماذا، لكنني أسمع أصواتًا تناديني، تركض ورائي ككلاب مسعورة، ربما يكون الطاعون الذي تركناها أو أزلامه الذين يحمونه، يسعون الإمساك بي ومن ثم تعليقي ككبش ينون سلخه.

ثم بتكدر مفاجئ أضاف:

- تمكننا من الهروب أمر يكاد يكون أقرب إلى المعجزة.

قال ذلك وهو يتحسس حذاءه المحشو بالدولارات التي وضعها بمساعدة أنهر بعد أن فتحا جلده بحرفية رائعة وأدخلا الأوراق النقدية فيه حشرًا بعد طيها وتطبيقها، جعلاها صغيرة جدًا كسليفون العلكة، كما فعلا مع حزامه الذي يتحزم به، ولم ينسيا ورقة " الشيك " التي جاء بها عديلهم هشام زوج فضاء أخت مقبولة زوجة نصير أخيه الكبير عندما أعطاه آدم قبل سفره بأيام ما في حوزته من ذهب خالص لتهريبه إلى الكويت وبيعه هناك ومن ثم تحويله إلى إيصال "شيك" يمكن سحب نقودهما من كل دول العالم دون معوقات وهذا في الحقيقة رأس مالهما كله.

بعذوبة تخجل محدثها همست أنهر:

- هذا صحيح يا حبيبي. إرادتنا كانت أقوى من إرادة القدر هذه المرة، تغلبنا عليه بذكائنا وإصرارنا، وكما يقال: من آمن بأهدافه حقق المعجزات كما نوهت يا نور عيني، هروبنا يعتبر استثناءً أقرب إلى المعجزة. وما دمنا معًا سنحقق كل طموحاتنا، ما حلمنا به وما سنحلم. كما أن شعورك هذا سيلاحقك فترة ثم يختفي، أنا متأكدة تمامًا مما أقول، بل هو أمر طبيعي جدًا يصادف كل شخص يهرب من طاعون خطير كالذي أصاب شرقنا، التاريخ ذكر لنا أمثلة كثيرة حول أناس هربوا من أوطانهم سعيًا للنجاة مثلنا وظلت هذه الهواجس تلاحقهم فترة ثم اختفت بقدرة القادر، كما يقال في المثل الروسي القديم ستصبح قريبة منك مثل الغلية السابعة للشاي. وهي تصرّ وتضغط على يده لتنعم بالدفء بعد أن استحلتها، ثم أرادت

بفطرتها أن تجرجر زوجها نحو حديث هو يحبه لتخفف عنه هواجسه المخيفة التي يجترها:

- لم تقل!.

- أقول ماذا؟

- لكل كاتب هدف كما لكل نبي رسالة، أليس كذلك؟، وهي مازالت تستعمر يده.

- وضحي أكثر لو سمحتِ.

- ما أقصده هو، ما هي رسالتك المتوخاة من أدبك القصصي الذي تكتبه؟ ... وتابعت بعذوبة فاتنة: لابد وأن يكون في بالك شيء جوهري تريد توصليه إلى الناس ومستعد أن تضحي بكل شيء إن جاز التعبير في سبيله، هدف سامي يقلل من حزن البشر الحقيقي الذي يشبه العذاب وأحيانًا لا يكون لحزنهم من اسم لبشاعته، محاولاً إسعادهم والأخذ بيدهم، أن تقول لهم، أقسى شيء في الحياة هو عندما يحاول الإنسان أن يتحرَّر من فكرة ثابتة مغروسة في ذهنه بحكم الوراثة أو الجهل... اسمع يا نبض قلبي، أنت شخص موهوب، الله أحبك فوهبك موهبة الكتابة، لابد من تطويرها وتنميتها كي ترفع ما قلته لك للتو الظلم والحيف من على كاهل أخيك الإنسان قدر ما تستطيع من خلال أعمالك الأدبية، هذا دورك الذي خصَّك الله به في الحياة، القدر اختارك أن تكون، فقد يستطيع الواحد منا أن يكون عالمًا، طبيبًا، مهندسًا، لكنه لا يقدر أن يكون فنانًا، فالموهبة إمَّا أن تكون أو لا تكون، لا يمكن انتزاع الموهبة من صاحبها انتزاعًا إلا بقتله - بعيد الشر عنك يا حبيبي - هذا ما حدث مع الموسيقار العالمي موزارت وباغتته في سؤاله:

- هل تعرف قصته؟

- حدثيني عنها، ماذا جرى له؟

- عندما شعر المايسترو النمساوي الإيطالي الأصل "سيرياللي" الذي كان يعمل في البلاط الملكي النمساوي بموهبة موزارت جعله يكون عازفًا في فرقته كي لا ينافسه في مكان آخر!، وفي إحدى الحفلات الموسيقية التي ينظمها البلاط الملكي وعندما كان العازفون منهمكون في عملهم سمع الملك النمساوي بعض الرنات التي كان يأتي بها موزارت تختلف عما يعزفه الآخرون، فطلب إيقاف العزف على أن يعزف موزارت لوحده!، ودار حوارًا بين الملك وصاحب الموهبة الرفيعة:

- أريدك أن تعزف لوحدك!

- بكل سرور سعادة الملك وهو ينحني تبجيلاً.

رنَّ صوت الملك في المكان آمرًا:

- أعطوه النوته ليعزفها على البيانو بمفرده.

تدخل موزارت بحماس صادقًا:

- لا حاجة لي إلى النوتة، سأعزفها هكذا، فقد حفظتها أثناء البروفات كلها!.

وانهمك صاحب الموهبة بعزف السيمفونية بطريقة مختلفة تمامًا عما كانت تعزف بقيادة المايسترو سيرياللي، حتى وقف الحاضرون وأولهم الملك صائحًا مندهشًا مبهورًا بصوت رزين:

- إن ما نسمعه لم يعزفه إنسان، بل جاءنا من السماء كأن الله هو من يرسله لنا بعذوبه وسحر كالمطر.

عندها أحسَّ المايسترو بخطورة موقفه، خطَّط بخُبث شيطاني كيف يقضي على صاحب الموهبة دون أن يكون مطاردًا أو أن توجه له أصابع الاتهام، فطلب من موزارت في أشد ساعات حزنه على موت أبيه أن يكتب لحنًا جنائزيًا لم يُكتب مثله من قبل!.

انهمك صاحب الموهبة بكتابة اللحن الحزين أيامًا، غاص فيه وشعر بكل ما يملك من وجدان بالموت، بل وازى الموت في عذابه، فصدق الموت على إنه الحق ولابد منه وإنه الطريق الوحيد للخلاص. فمات بعد أن أنهى كتابة لحنه وهو في عمر لم يتجاوز الثانية والثلاثين!

نظر لها جانبيًا، تأملها بسعادة كاسحة شعر بسطوتها، أحمرَّ وجهه، التصقت أذناه برأسه، كان في تلك اللحظة مثل شخص فاقد لتاريخه، آدم لا يريد أن يعرف عن ماضيه ولا عن مستقبله أي شيء، يريد أن يتوقف الزمن، أن يبقى كما هو بجانبها لا يتحرك ولا يغادرها، أشار كمن تستدرجه الذكريات لسردها بعد أن رأى للآلئ تترقرق مرتجفة، متعلقة بين ثنايا أهدابها:

- قصة مخيفة!.

- كي تعرف ماذا تعني الموهبة الحقيقة للآخرين.

- إنك تحيطينني برعايتك وعنايتك كما يحاط مريض من المرضى.

ببحة جميلة شجية كأنها تناجي فيها ربها:

- لا تقل ذلك.

- هذي هي الحقيقة.

- ليس لي في الدنيا غيرك، فلا تحرمني من راحتي!.

- ماذا أقول؟

- لا تقل شيئًا، اقبل بالأمر الواقع على علاته!.

- سأقبل رغم عدم قناعتي بما تفعلين، لأنني ببساطة لست مريضًا.

- ألا تحب أن تراني أغرق في بحر من السعادة؟

- بلا.

- إذن، دعني أعيش سعادتي كما يحلو لي!.

- حسنًا.

رفع يده المستحلة الوقت كله الغارقة في كفها وقبّلها، لثَمها برِقّة، خجلت من فعله، تراجعت بظهرها إلى مسند مقعدها، غمرها فجأة سحرٍ طاغٍ، نفذ عبر مسامات جلدها، طفحت بشعور لا يوصف لا اسم له، قالت بصوت فاتر حنين كلمتها المشهورة التي طالما ترددها:

- خوش (•)، وتابعت: كفى، ليست عندي مقاومة كافية لأتحمل، سأذوب، سوف لن تراني.

لحظتها رمشت بسرعة، خفضت بصرها، ارتاح رأسها على كتفه بعد أن مالت إليه، سكنت، تجلّد كل شيء فيها إلا قلبها، كان يصرخ نابضًا بقوة. فهمس آدم في إذنها متألقًا:

- في كل ثانية تكبرين في نظري يا دميتي، يا ملاكي وحارسي، تجعلينني أغوص في عالمك لا أحب الخروج منه، أن أبقى في أعماقه لا أبارحه.

(•) خوش : جيد

obeikan.com

أطرق قليلاً، ثم نادى مسترسلاً كمن يبشِّر بدينٍ جديد: اسمعي، المرأة مظلومة، الذكر هو من جعلها مظلومة، يتبختر أحيانًا بقوله، أنا أريد وأحب وأعشق المرأة المتعلمة العاملة المفكرة، لكن في قرارة نفسه هو لا يريد ولا يرغب إلا بأن يكون الوحيد الذي يحمل تلك الصفات والمرأة تبقى طالبة تستجدي منه الدرهم والأمان، هنا يأتي دوري ككاتب إن صحَّ الوصف، أعرِّي الرجل وأجعله بلا طلاء أمام الناس، أقول له قف، حدّك هذا لا تتجاوزه، المرأة يمكن لها أن تكون أفضل منك لو أعطيتها حريتها، استقلاليتها، أن تفسح المجال لها بأن تقرأ وتكتب وتفكّر وتعمل، ستجدها وقتها أفضل منك بصبرها وبصيرتها، بقوة تحملها وذكاءها وحسن تدبيرها، الرجل غالبًا ما يكون مغترًا، معتدًا بنفسه ويفتخر حتى بعيوبه، المرأة إنسان مختلف، جرَّبها ومن ثم أحكم عليها، هذه هي رسالتي الأدبية ما حييت.

أعدلت رأسها، أبعدته عن مرمى كتفه، حرَّرت يده، صفَّقت بعد أن نست نفسها، هي تعرف بأن ميول زوجها هذه هي التي جعلتها تحبه وتقترب منه وتنتحر من أجله وبسببه، أنهر لم يغب عنها هذا، تعرف ذلك جيدًا، لكنها أرادت أن تخرج حبيبها من دوامة أفكاره وتأملاته التي عبر عنها منزعجًا يطلب من الأنثى أن تخفِّف عنه وتحميه.

أنهر، تلك الفتاة الجميلة الوادعة، ذات الشخصية القوية، نواة أسرتها وسبب تماسكها، قليلة الحظ، غالبًا ما تكون محطَّ أنظار وحسد الآخرين. أقدمت على الانتحار ولم تفلح، إرادة الله كانت أقوى من طموحها، لأسباب سندركها كلما تقدَّم بنا الزمن، وعند القعر سنرى الحزن راكدًا متورمًا في الانتظار، ليأخذ الجميع بالأحضان كونه والعراقيون من أسرة واحدة منحدرين من جدٍّ واحدٍ، كما ينحدر الطين من التراب!. كانت وسط أسرتها قبل زواجها بمن أحبت تمضي أيامها وهي مشحونة بالتوتر، غائمة، ماطرة، لا تتحمل الكلمة أو النكتة أو حتى الابتسامة، في هذه الظروف الصعبة وُلِدت كأخر العنقود. اختلف الأمر بتعامل أبيها معها، إذ كان يفتقدها باستمرار على غير عادته، يسأل عنها لو لم يرها أمامه عند المساء حين يرجع قافلاً إلى بيته، وما أن يحضنها، يشمها، يقبِّلها ويضع في جيب فستانها القصير المطرز بالورود نصف دينار، وفي أحيانٍ يكون قد أخذ الطرب منه مأخذًا،

أو أن يكون قد قضى حاجته خارج البيت على أفضل شكل، فينقدها دينارًا كاملاً قبل أن يبدأ جولته مع السُكر لوحده في غرفة الجلوس. هذه العاطفة الأبوية التي تعتبر نادرة في أسرتها أثارت غيرة وحسد وحفيظة أخيها كمال الذي يكبرها بثلاثة أعوام بالتحديد لأنه الذكر الوحيد في عائلة شرقية ويشاركهما رحلتهما اليوم نحو عالم الغربة الذي يجهلون أبجديته!. وأختيها كذلك على هذا التمييز في التعامل. الغريب أن أمهم لم تختلف عنهم!. إذ سايرتهم في غيهم وظلت تكيل لها الشتائم في كل داخلة وخارجة، تعيرها بما لا يعيب، جعلت لها من أخيها كمال خير رقيب، ناهيك عن ضربها وحبسها في البيت لأيام طويلة دون أن تأتي بخطيئة أو تجني ذنبًا. السبب كله يعود إلى شخصية أنهر القوية الجذابة التي ينفر منها الأنانيون المتناقضون.

تعشق الأطفال حدَّ الجنون، يصعب شرح ذلك بالكلمات، وبسبب الطاعون الجاثم على صدورهم ينخر داخلهم اتفقت مع آدم على عدم الإنجاب ما داما يعيشان في العراق، هروبهما يقرِّب أملها وحلم حياتها في الأمومة التي تتوق لممارستها؛ تتجمل بطباع كانت توحي للمرء بعد التقرب منها بأنها مازالت طفلة في الرابعة من العمر، وحين تتكلم؛ يصدِّق من يسمعها مباشرةً للدفء والحميمية الموجودين في صوتها لتبدو كأنها تعتذر... هذي هي أنهر بالمختصر:

جميلة الطلعة يخجل الجمال من فتنتها مثل أميرة بابلية، رقيقة كالنسمة، وجهها الدائري الأبيض الطافح بالحيوية الناطق بالحياة، في حنكها شامة لم ترتح لها، تخلصت منها بأشعة الليزر فيما بعد، صوتها الدافئ الحنون، شعرها الحني الطبيعي غير المعامل بالأصباغ المفروق من الوسط يتموج على كتفيها كما يترجرج صدرها بوقاحة لا يحسن تجسيد وصفه خلف قميصها الأبيض الحريري ذات الأزرار الناعمة السوداء الذي قابلت به فتى أحلامها آدم ليلة وصولها منتجع الحبانية السياحي في الثالث والعشرين من آذار. ممتلئة الجسد باتزان، عيناها الخضراوان كفصين من زمرد اللتين تشعان بريقًا نادرًا، سبحان الله، يخجل ويبهر، يعطيانك شعورًا بالأمان ويجعلك تركع صاغرًا على أن تصدِّقها في كل ما تقوله، لا يطرف لها رمش وهي تحدِّق بمحدثها فتكبر عيناها وتتوسع بشكل مخيف وجميل في ذات الوقت خاصة في لحظات انفعالها، وهذا الأمر يسبب رعب غير قليل من يواجهها في تلك اللحظات الحاسمة.

تعودت أن تسير بغندج كالزرافة، بل كانت تعطي انطباعًا عندما تمشي بأنها ستقع، فتمشي معها ويدك على قلبك خوفًا عليها من السقوط!. ضحكتها ساحرة تسمع فيها رنة الذهب، في نبرة صوتها حنّية دافئة تغرق سامعيها بالشوق والوجد كأنك أمام قديسة تبتهل في حضرة نبيها. في وجنتيها غمازتان رقيقتان أكسباها طابعًا متميزًا خاصة عندما تبتسم فتغرق الواقف أمامها بسحر طاغٍ لا مجال إلا الغوص فيه دون مقاومة تذكر. مولعة بالقراءة وتعشق رقص الباليه، كانت تتمنى من أعماقها أن تكون يومًا راقصة في أحد المسارح أو المدارس للباليه. كل هذا يجعلك تلقاها لتسلم سلاحك لها من أول وهلة فتشلك بجمالها وتصرفاتها الطفولية البريئة المدهشة التي لا تنم على فتاة في سنتها الأخيرة في الإعدادية، قاربت التاسعة عشر، تصرعك مأخوذًا كأن شيئًا قد نهب منك دون أن تشعر، يا له من إحساس لذيذ يزيد الدهشة روعة. فيخال لك ساعتها بأن قلبها يدق في عينيها، واضحة تعرف سبيلها كما تعرف ربها. ولدت في أسرة عراقية تعتبر نفسها محافظة وهي ليست كذلك، لأنها مع التعصب للدين وضد التعصب في الدين، والحقيقة هي مع الدين والحياة. تعودت أن تسير وأرجلها خالية من القيود، في محلة تضج بالمسيحيين في جانب الكرخ تسمى الآثوريين. قضت وطرًا من حياتها كل مساء ترتجف ابتهالاً وخشوعًا وهي تستمع لآذان العصر. فلا تجد تفسيرًا لما كان يحصل لها، يكفيها الهدوء والسكون والراحة النفسية التي تنعم بها أثناء سماعها كلمات الله عبر مكبِّر الصوت للجامع القريب منهم. عندما تقدم العمر بها لم تنسَ ذلك مطلقًا، تتذكره بقوة كأنه حاضرٌ معها أينما حلّت، لم تستطع تعليل ما كان يحصل لها، من نسل القوس الذي لا يعرف خيبة الريح التي لا تهز غصنًا، دائمة القول " من الفحم يخرج النور، أن تعطي ولا تفكر بأن تأخذ، السعادة بسمة على شفاه الآخرين، متى ما رأيت ذلك، أعلم بأنك إنسان تسكن في قلب الله. تعشق الطبيعة كعشق النورس للبحر، تعيش لحظاتها بعفوية خارقة كالطفل عندما ينسى نفسه في اللعب على شاطئ، تضحك من صدرها، تبكي من قلبها، تئن وتتنهد من عظامها، تساعد بكل ما تملك ومن أعماق كيانها وحد نخاع عظامها.

في حين بقي أبوها بمنأى عن كل ما يحصل، لا يؤرقه شاغل عن ممارسة وإدمان الفساد. داوود رب الأسرة الذي اتصف ببرودة الطبع كالثلج، يحب الحياة كما الموت

ولا يهتم لأمرهم ولا يزلزل كيانه إلا إذا أبعدته قسرًا عما يشتهيه ويحبه، وقتها ينقلب شخصًا آخر لا تعرفه، ساعتها يمكن له أن يقترف جريمة دون أن يطرف له رمش. دلّل أنهر على غير عادته، سلوكه هذا في الحب والدلال سبَّب لها مصاعبَ جمّة في حياتها من قِبل المقربين منها. يدير متجرًا للصياغة في أحد أفضل شوارع بغداد على حافة نهر دجلة والمسمى بشارع النهر. أبيض البشرة، حليق الوجه، قليل شعر الرأس، بدين قصير، وله خاصية فريدة تمتع بها منذ صباه، حيث يقدر أن يتفوه بمائة كلمة في الدقيقة، يضحك بملء قلبه، لا يهمه من الحياة غير مسراتها، ينفق على نفسه بإسراف غير محدود كما لغيره، خاصة النساء اللواتي يتعرف عليهن من خلال تجارته في الحلي، في حين لا يعطي لأسرته إلا النزر القليل على مضض، خاصة عندما يكون ممتعضًا، فيصيح بزوجته الطويلة، الجميلة المقتدرة على مواجهته كلما استدعت الحالة: من أين آتي لكم بالمال؟ هل تريدون مني أن أسرق؟!.

• • • •

بجانب آدم جلس رجل أبيض من يوغسلافيا، محبوب يوحي بالاطمئنان كلما نظرت إليه، صافي البشرة، ببذلة رسمية وأناقة محكمة، حاول أن يستدرج آدم في الحديث فسأله عن وجهته باللغة الإنجليزية:

- هل سافرت من قبل؟

- كلا. وأضاف: هل بان عليّ ذلك؟

ضحك برقة كضحكة عذراء خجولة، وأجاب:

- الحقيقة نعم، فقد لاحظت ارتباكك عندما بدأت الطائرة بالتحليق، فقد كانت أعصابك مشدودة، ثم واصل مازحًا: خفت أن تفعلها!

- ماذا؟ لا. ليس لهذه الدرجة!. سرح آدم في خياله للحظات "هذا أول درس في الغربة التي لم أبدأها بعد، مجاملة الآخرين دون خجل أو تردد، هو لا يعرفني، ومع ذلك قال لي، بأنه خاف عليَّ أن أفعلها، إذن، سنتدرب على سلوكيات جديدة لم نعرفها أو نعتدها في وطن الطاعون من قبل".

همست أنهر في أذنه بأن يسأله عن محل إقامته لعلهما يحتاجان مساعدته، باغته آدم:

- هل أنت من العاصمة بلغراد؟

- نعم، أعمل في بغداد منذ بداية حربكم مع إيران في شركة استثمار خاصة، للحروب فوائد أليس كذلك؟، وتابع بذكاء غير متوقع كأنه فهم ما أسرّته أنهر برنة مرحة وجدها آدم بأنه سعيد بها: الآن في إجازة، إذا احتجت إلى أي شيء اتصل بي، أخرج من جيبه الجانبي الذي يشبه حفرة صغيرة مغروز ناحية اليسار القريب من الكتف في جاكيت بذلته السوداء المخططة بخطوط بيضاء رفيعة جدًا بالكاد ترى بالعين المجردة لنحافتها كارت أصفر أملس الوجه وأعطاه إياه.

- شكرًا، هذا لطف منك، وأردف: ربما نحتاج إلى مساعدتك عندما نخرج من المطار، حيث لا نعرف كيف أو من أين نحصل على طريقة مواصلات للوصول إلى محطة المدينة الرئيسية للقطارات.

كشخص لا يثق إلا ما تراه عينيه قاطبًا حاجبيه:

- الموضوع ليس بهذه السهولة، المطار كبير والإجراءات طويلة ومملة، ربما لا نستطيع أن نلتقي خاصة وأن المسافرين الأجانب يقفون في طابور غير الذي نقف فيه نحن أصحاب البلد!، ثم تابع وآدم وأنهر يستمعان له مندهشان من غرابة الإجراءات المتبعة والفصل بين الأجنبي وصاحب الأرض، أنهر انبهرت ولم تعبِّر عن شعورها لحظتها، همست تسرُّ ذاتها " ليس من أولها" وأضافت تخالج نفسها: كنا وفي الأمس القريب نشير إلى الأجنبي على أرض الرافدين بكلمة "مستر " هذا ما لاحظته عندما كان الرجل اليوغسلافي يخاطب زوجها بكلمة أنت، وآدم يجيبه بسيد، فعرفت الفارق الكبير بين تربية المجتمعين، تابع الغريب: ومع ذلك أقول، لو سنحت لنا فرصة اللقاء سأشير لكما عن مكان وجود محطة الحافلات التي تقلكما إلى محطة قطارات المدينة الرئيسية، ثم سأله بعد أن أراد أن يستفهم منه المزيد:

- لكنك لم تقل لي بأي اتجاه تريد الذهاب؟ أقصد، داخل يوغسلافيا أم خارجها؟

شعر آدم بالحرج، أنهر كانت تستمع لحديثهما الذي تطور حول خصوصيات ربما لا يحبذ تناولها هكذا بسرعة مع شخص يتعرفان عليه للتو، لكزته من خاصرته، آدم فهم بأنها لا تريد أن يتواصل مع الرجل في شروحات عن رحلتهما أو طريقهما،

الحذر واجب، الطائرة تئز، تزأر وترعد والركاب من كل الأنواع، منهم من رجال الأمن ومن حماة الطاعون الذين يريدون له أن ينتشر، الخوف مازال يجلجل قلبيهما والمكان يخلو من الأمان.

لم يتجاوز آدم الذي يعتبره الآخرون منحدرًا من نسل هابيل الرابعة والعشرين، خجول ويقول عن خجله لا علاج له كمرض الربو الذي يعاني منه ولازمه دون انقطاع كظله، تمتع بعادات كثيرة لكنه لم يدمن على إحداها، له وجه يوحي بالغنى والتواضع، عينان مبتسمتان برمشين قصيرين يعلوهما حاجبان رُسما بدقة، يديه ناعمتان لا تحزر منهما مهنته، طاهر مثل صفحة بيضاء، صافٍ كماء الزلال، قليل الأكل، ممسك الكلام، طيب السريرة رحيم القلب لكنه مترع بالألم الصامت، غير موذٍ مثل ضحية ولا ينزعج عندما يصف نفسه أو يصفه الآخرون بالسكير والكافر والقاتل، إذ غالبًا ما يرى نفسه النقيض من هذا كله. صبور وصبره لا يقارع مثل صبر الآلهة، ذاكرته ضعيفة لم تنتعش يومًا كصحته، يقول عنها مثل صفحة ماء لا يمكن الكتابة عليها. يسافر إلى أقصى نقطة في العالم وهو مازال في مكانه متسمرًا، حيث يسافر بخياله وروحه هائمة لا تعرف الاستقرار مثل خياله، مؤمن بعقيدة فردية قوامها الله وليس دين الأمة التي ينتمي إليها، تمتع برشاقة يحسد عليها، رفيع، طويل، بشعر أسود سرح مفروق من الوسط، بؤبؤي عينيه يلمعان مثل عيني نمر أفريقي أختلط فيهما لون العسل مع الليل، أسمر بلون الحنطة الناضجة التي لوحتها الشمس، يحب البساطة، متواضع، يأخذون حقه ولا يتنفس بكلمة، قلبه أصفى من الحليب، متساهل إلى حدود الأفق مثل راهب. لا يعرف الحقد ويعاني في ذات الوقت بأنه لا يستطيع الحب، ذلك الحب الجارف الذي يلهب عقله وقلبه، هو لم يصل إلى تلك الحالة بعد، لم يذقها أو يجربها، يقول: لا أستطيع، هناك مانع ما يعوقني من فعل ذلك، لا يحب تزويق الأشياء أو تعظيمها، لذلك نراه يحب الله دون دين الإنسان، الأخير يعتبره صاحب البدع وليس الشيطان المدان. امتازت عاطفته الدينية بالصدق المستلهم والمستنار من قراءاته الكثيرة والمتعددة في كتب التاريخ الدينية التي أخذت من حياته وطرًا لا يستهان به وهو يحاول فهم تلك الأمور على حقيقتها الصحيحة وليست المقلوبه دون تأكيد مطلق كما يدعيها بعض جهلاء العقول كما يقول.

ها هو يهرب من الطاعون مع زوجته وأخيها كمال، مازال لم ينه دراسته الجامعية، في سنته الدراسية الثالثة كلية الطب البيطري، يخاف الحيوانات، أجبر على تخصصه هذا، لهذه قصة ربما يحكيها بنفسه، يعبد الفن بكل أنواعه، يحرك أوتار الجيتار بشكل رائع، يرسم كما أثبت ذلك لأنهر عندما رآها في أول ليلة من وصوله منتجع الحبانية، يكتب القصة القصيرة، له إصدارات متواضعة ومتنوعة والأهم كانت عبادته للقراءة، مولعًا بها حد الهوس، كل ما يحصل عليه من نقود يبذرها لاقتناء تلك الكتب اللعينة، له مكتبة منزلية كبيرة تقدر عدد كتبها بالمئات تركها أمانة بيد صديقه وشريك عمله لسنتين ونيف جبار. مع الوقت وبمساعدة الروتين والظروف الراهنة أُجبر على أن يتعلم كيف يتحدث مع الحيوانات التي يخافها أصلاً، بات يكلمها كأنه يسامر بشر مثله، رعايته للحيوانات التي لا يطيقها تلك التي يجلس معها ساعات النهار في كليته يداريها، ينظفها ويقنعها بأن تأكل أو تأخذ الدواء جاءت بنتائج عكسية على شخصيته، جعلت منه إنسان مقتدر في فن الإقناع، غالبًا ما كان يردد " عظم الأفعى لا يبلع، إذا استطعت إقناع جاهل بأمر ما، تكون وكأنك أتيت بمعجزة، فما بالك لو أقنعت حيوانًا "؟. تزوج من أنهر بعد أن رآها بالصدفة في منتجع الحبانية في أول يوم من أيام عيد الخليقة، وما هما إلا لقاءان في بغداد حتى رآهما كمال، وشى بهما لأهله، ضغطوا عليها، حبسوها في البيت، أشبعوها شتمًا، سبًا، ضربًا وإهانات لا تقال لعذراء مثل أنهر، لم تستطع مواصلة دراستها ولم تؤدِ امتحاناتها، فأقدمت على الانتحار وقتما تردد آدم بالتقدم لخطبتها بسبب رفض ومعارضة أهله لها في بداية الأمر للسمعة التي تلقفتها الألسن بالخفاء والعلن على أن بدرية أمها أودعت زوجها داوود السجن بسبب تهمة ملفقة في انتمائه لأحد الأحزاب المعارضة لحكومة الكايزر ثم إدخاله مستشفى الأمراض العقلية بحجة إصابته بلوثة عصبية ولم يستطع أحد من الأقارب أو المعارف أو الأغراب من التأكد من صحة ما قيل وما بالفعل قد حصل.

خاطبه الذي كان يجلس خلفه مباشرةً في الطائرة بعد أن مد رأسه نحوهم متدخلاً ناصحًا بصوتٍ خفيض:

- لا تقلق. سنبقى معًا عندما نصل. طريقنا واحد، ثم بصوت أكثر خفوتًا جاء كالهمس: لا تكثر معه بالكلام.

التفتت أنهر إليه، رأته رجلاً وسيمًا في مقتبل العمر، يرتدي قميصًا بلون السماء مخططًا بالأبيض، آدم شكره، قال، حسنًا، سنكون معًا إذن. كمال لم يرتح بجلسته وهو يرنو ببصره إلى أخته وزوجها، قام من مكانه، اقترب منهما، سأل كصبي أفسده الدلال:

- ما هنالك؟ هل من ثمة مشكلة؟ وهو يزر الرجل اليوغسلافي ويغرس نظراته فيه غرزًا كأنه يريد تخويفه!.

- لا تقلق يا حبيبي، أجابته أنهر وتابعت: كنا نتعارف، الرجل لطيف، والشاب الذي خلفنا وعدنا بالمساعدة، فنط برأسه ثانيةً:

- درست في يوغسلافيا من قبل، أعرفها كما أعرف بغداد، لا تقلقوا، كلنا عراقيين. ورجع إلى وضعه الذي كان عليه، في حين استغل كمال وقوفه ليذهب مكملاً مشواره نحو الحمام.

يعتبر كمال مهووسًا مسكينًا لا يعترف بوجود موهبة في الدنيا إلا موهبته التي نجهلها وإن غاب من نستغفره يأخذ مكانه هكذا كان يتخيل نفسه. في أسرتهم الابن المدلل الذي دعيت أمه باسمه على الرغم من أن الابن البكر هو كريم الذي يتوجهون ويطمحون الوصول إليه المقيم في ألمانيا وطن الغربة منذ أكثر من ربع قرن وليس كمال؟ لكن غربة كريم المبكرة وغيابه المستمر اعتبر من الأموات، فعرفت الأم مع الوقت بأم كمال والأخير كان صغير العقل فقير الخيال، جميل الطلعة، لم يمنحنه الرب غير موهبة الوسامة، المغتر بنفسه كالطاووس، وما يتقول به يعتقد بأنه سيحرم سامعيه من لذة الحياة إن فاتهم، أشقر الشعر، بشاربين رفعين مثل هلالين مقلوبين يحرسان شفتيه، غالبًا ما يضع نظارته الشمسية أمام عينيه الجميلتين الزرقاوين وهو يشعر بانتعاش عجيب كعادته المزمنة التي يصعب على الشيطان تغيرها. قبل أن يرجع إلى مقعده في الطائرة ألقى نظرة أخرى على الرجل الأبيض اليوغسلافي الجالس بجانب زوج أخته كأن له حساب معه لم يسدد أو ثأر قديم لم يأخذ؟، بادر بسؤال أنهر على غير ما تتوقعه كطفل مذنب بشعور معذب محبوس بالصرخة كشعور حالم يلحقه شرير يريد النيل منه:

- هل عندكما شيءُ يؤكل؟ وتابع: أنا جائع، يا ليتني أخذت من أمي الخيار والجبن الأبيض البلدي، وقتها خجلت، نهرتها كعادتي، كطبع بعض العراقيين الذين يتباهون

حتى بعيوبهم قلت لها عيب، لا يمكن لي أن أحمل الخيار والجبن وأصعد الطائرة، ماذا يقولون عني، صبي!، لا لن آخذ، جعلتها ترطن بكلمات لم أتبين معناها، لكنها كانت تعرف بأني سأندم!. وهنا بدأ يضحك دون إرادة وهو يردد: أمك هذه يا أنهر امرأة رائعة تستحق العطف!.

شاركته أخته، وضعت يدها البيضاء الطرية الجميلة على فمها وضحكت، كركرت كالطفلة، قالت وهي تكاد تشهق من الضحك:

- ماذا تعتقد يا مقرود؟ نحن لسنا في البيت، وأمك بدرية التي تتحدث عنها بالسوء الآن هي على الأرض لن تسعفك حتى لو تحبك أكثر من نفسها وغمزته مستطردة: أنت تعرف ما أعني، كرَّرت جملتها الأخيرة عن قصد: أكثر من نفسها، تحمل قليلاً، سيأتون بالفطور، ثم لم تستطع أن تصمد أمام ضحكتها، قهقهت بعفوية شاركها زوجها فرحها ويده مازالت هي تستحلها في حين شعر كمال بالحرج، غندب وبرطم(•)، أحس برعشة غريبة اخترقته كنصل حاد دقيق غرس في صدره، انساحت على جبينه خطوط من العرق كأنها جداول، عبّ نفسًا عميقًا من الهواء يكفي لإرجاع الحياة لجمرة بائتة فارقتها الحرارة من أمسها، تابع سيره نحو مقعده، جلس غاضبًا، صامتًا كأنه يندفع نحو حافة الدنيا والجوع ينهش معدته الفارغة.

عُرف عن الأم بدرية بأنها إنسانة مدبرة، قوية وقوتها تكمن في جبروتها وتسلطها، رائعة الجمال، لا يكترث لها أولادها كما تحاول هي إسعادهم بطريقتها المغلوطة من حيث الدلال الأعمى المدمر، وميزانها غير معتدل حيث ينقصه العدل والثبات في توزيع حبها لأفراد أسرتها بشكل متوازي ومتوازن للجميع، هذا كان أحد أسباب تعاستها في الحياة من دون أن تدري. ورثت عنها أبنتها الصغرى أنهر جمالها وحُسن طلعتها وقليل من عنّدها. نافست الأم زوجها العمل والجدل، والأخير يأتي نتيجة الفهم وعدم أخذ الأمور على علاتها دون فهمها وتحليلها ومن ثم إعطائها الحلول المناسبة، حيث تجد نفسها مخيرة لا مسيرة، وهذا ما كان يغضب زوجها منها، فهي لا تغض الطرف على تصرفاته متى ما رأته قد تجاوز حدود المعقول.

(•)غندب وبرطم : امتعض وزمّ شفتيه

عندها ترده إلى جادة الصواب بالقوة التي تملكها، الحكمة الفطرية التي تتمتع بها بعض من نسل حواء، وهذا كله لا يرغب به زوجها، يسميه تجاوزًا على رجولته الشنيعة التي لا تعترف بحق المرأة كإنسان كامل مثله. أخذت أبنتها أنهر بالإضافة إلى جمالها بعض من قوة شخصيتها لكنها أهملت الأخيرة تناقضات أمها التي تمقتها وكم كانت تكره ميزانها غير العادل في تقسيم حبها لأسرتها. كما اشتهرت الأم بميزه لا تخطئها العين السليمة وهي أنها امرأة مدبرة، تعودت أن تشتري وتبيع، عرفت كيف تأتي بالمال، لهذا السبب ربما كان داوود زوجها لا يحب أن ينفق على البيت من ماله الذي يسميه الخاص!. يشتد الصراع ويبلغ ذروته عندما يطالب زوجته بمضاجعته، حيث تناقلت الألسن بالسر والعلن " بأن زوجته أودعته السجن بتهمة لفقتها له بأنتماءه إلى أحد الأحزاب المعارضة، كما يقال والله أعلم، بأنها لم تكتفِ بذلك، بل أدخلته مستشفى الأمراض العقلية بسبب لوثة عصبية أصابته للتخلص من لعناته ونزواته وتعسفه وما يمارسه من ظلم وطغيان داخل بيته ".
فشاء القدر أن يبخل عليها أسباب الترف والراحة؛ مع الوقت تحولت دون أن تعي رجل البيت دون منافس. هي من تقرر للعائلة وتصرف عليها، استقلت ماليتها عن زوجها، سعادتها أن تعير أحدهم نقودًا، أصبحت فجأة تحب أن يستلف منها الآخرين، تعطيهم دون حرج أو سؤال، تقول لهم خذوا، أرجعوا النقود متى ما تيسر لكم، هي لم تكن تبذر نقودها كما يتوهم للبعض، بل حريصة جدًا على نقودها حرصها على سمعتها، لكنها تريد أن تشعر بأنها السيد الذي يمتلك زمام الأمور. وكلما إزداد زوجها إهمالاً لأسرته وعدم مبالاته لها، كلما توسعت في صلاحياتها وسيطرتها وسطوتها، حتى باتت مع الأيام رجل البيت دون منازع، ناهيك عن هجران زوجها دون أن تسمح له بطلاقها؛ دينها لا يسمح لممارسة حرية الطلاق بسهولة، أجبرت نفسها على الحياة والاستمرار معه تحت سقف هذه الظروف غير الطبيعية لأسرة عراقية، زهدت به جنسيًا وعودت نفسها بأن تحيا من أجل بناتها وأبنيها فقط كراهبة لا تسعى إلى الحصول على متعها الطبيعية كزوجة، ولم تطالبه يومًا بحقها ذاك منذ سنوات طوال. فأصبحت زوجة بلا رجل!. زوجة في الأوراق فقط، أمام الناس والمجتمع. في واقع الحال عاشت زاهدة فيه، لا تتمتع بأي حقوق زوجية، وافقت على حياتها تحت وزر القهر والحرمان ذاك من أجل بناتها وابنها،

من أجل حياتهم ومستقبلهم لا غير. في الليل يتغير لون وجهها الأبيض الملائكي فيبدو أسودًا ممتقعًا، ثم تسمع أبنتها الصغيرة أنهر صوتها اللجوج، اليائس، الخائف يرتفع في أرجاء البيت وهي تناديها وتطلبها، ليس لأن تقبّلها قبل أن تنام، أو تحكي لها حكاية من حكايات الأطفال، بل لتدعوها أن تتمدد بجانبها، أن تبقى في حضنها، معها في السرير، لتتوسط بين الزوجين، لتحمي الأم من إزعاجات وإلحاح الزوج المهجور. البنت الصغيرة كانت تسمع توسلات الزوج وهمساته، أنينه، وشتائمه البذيئة، ثم ترى الأم وهي تصده، تتمسك بابنتها ترصها إلى جانبها بقوة فتكاد أضلعها الفتية الرقيقة تنخلع من مكانها أو تتحطم. الطفلة تعي، تبكي، تتلوى تحت الغطاء وبين أضلع أمها الدافئة. مدفونة، محبوسة بالآهة والقلق والرهبة، تنظر بعينين بريئتين مكبلتين بالخوف إلى أمها وهي ترى أباها يشد شعر أمها من فوق رأسها بيد ترتعش تتراءى لها في الظلام كيد شبح بلباس أسود. ساعتها لا تبدي حراكا سوى الكتمان والشعور بالكره والبغضاء لأبيها الذي تحبه لقسوته المفرطة بحضورها القسري ونظراتها المتعلقة بالخيال، الماحقة بغير لسان، الصارخة بلا صوت.

• • • •

رجت الطائرة أثناء هبوطها على أرض مطار بلغراد، أنهر تمسكت بذراع آدم بقوة، الأخير كان مرعوبًا من الموقف، لكنه تماسك من أجل زوجته، حطَّت الطائرة، تدهدرت في سيرها متجهة نحو مدرج وصولها، تنفس الركاب الصعداء، صفقوا بقوة كأنهم غير مصدقين سيصلون بسلام، كمال صفق هو الآخر، خوفه كان عظيمًا يثير الحزن والشفقة، مسكين حبس دموعه ولم يبكِ متأثرًا بأرتطام عجلات الطائرة بالأرض، حدث مثل هذا لم يعشه العراقي إلا ما ندر، السفر خارج العراق في زمن الطاعون أمر يكاد يكون كدخول المؤمن الجنة غاية في التعقيد.

طال أمد انتظارهما، آدم سلّم جواز سفره وجواز زوجته إلى الضابط الذي كان جالسًا في غرفة من حديد مطلية الجدران بلون أزرق فاتح على شكل دائرة نصفها

الأعلى من زجاج، نظر الضابط إلى جوازي سفرهما، همّ بسؤاله بنبرة غامضة كمن لا يعيش إلا لاقتراف المعاصي والخطايا، بلغة إنجليزية ملتوية بما معناه:

- هل تريد السفر إلى بودابست عن طريق الجو أو الأرض؟

ارتبك آدم، التفت إلى أنهر يطلب نجدتها. قالت:

- لم أسمع بالضبط ما طلبه منك.

أعاد الضابط سؤاله بنفس ضيق وآدم كما في المرة الأولى ظل يتلفت حوله دون أن يقدر على إجابته، تدخل من أنقذه مترجمًا السؤال، فعرفه من فورة، الشاب العراقي الذي كان يجلس خلفهما. شكره آدم وأجاب الضابط مقتضبًا:

- بالقطار. ختم جوازهما، انتظرا كمال الذي كان متأخرًا خلفهما، الأجواء التي يراها أبهرته، جعلته يمشي ببطء لعين، حاولت أخته أن تستعجله، كان يسير مثل غائب عن الوعي، الفتيات كانن بالنسبة له شبه عاريات، حسب منطقه وفهمه لعالم المرأة، ظل يزرهن بنظرات ملتهبات حارقات ملئة بالشهوة النزقة، صاح بآدم دون وعي بعد أن استلم جوازه ورآهما ينتظران في صالة استلام الحقائب:

- ما هذا؟ الأجواء رائعة لا يشبع منها المرء خاصة لرجل مثلي!.

- ركز نظرك على حقيبتك، هذا أفضل لك، قال له آدم ملاطفًا وهو يزرّه مبتسمًا.

.

(٢)

في الظل نقطة محاصرة كالروح في الجسد الحي. للنظرات قوة يمكن أن تحرث الوجوه والنفوس أكثر مما يفعله المحراث بالأرض. تكون الكلمات أحيانًا مثل الحبال لها القدرة على الشنق. القسوة لا تصنع الطبع. يبقى التصميم أساس النجاح. من هذا الذي يستطيع أن يضع على ذنب الأرنب المطارد الهارب ملحًا ؟، وأين هي الفأرة التي تعلِّق جرسًا في عنق القطة كما يقال ؟

وقفت أنهر بجانب زوجها ملتصقة به. كمال كان زائغ النظرات، يقصف الفتيات بنظرات ملتهبة لا معنى لها غير الشهوة النزقة التي تفور بداخله كالمرجل، الشاب العراقي الذي كان يطل بين آونة وأخرى عليهما برأسه لم يكن بعيدًا عن مكان انتظار حافلة تقلهم إلى محطة العاصمة اليوغسلافية الرئيسية للقطارات. حتى فاجأهم رجل يظهر الود غير الصافي يهم بملاطفة آدم على نحو غريب يسأله عن شخص يبحث عنه والحقيقة لا وجود له، كان مجرد مدخل لتعارف يحب الخوض فيه للحصول على بعض المكاسب التي تعوّد على ما يظهر الفوز بها من كل قادم عراقي جديد إلى يوغسلافيا، ربما تكون مهنته هذه؟ لا أحد يعلم. كان قصيرًا يقاس بالشبر لا يتجاوز السبعة منها، يرتدي بذلة قهوائية اللون، عريضة متهدلة الكتفين أكبر من مقاسه، تجلس أمام عينية نظارة طبية كبيرة أكلت من وجهه نصفه، اقترب من آدم يحجل بخطواته كأنه يعاني من اختلاف طول أحد الساقين نابرًا بصوت نابي متطفل كمن يخشى مشاعره فيسمح بمراقبة قلبه:

- أنا د. شريف، عراقي أقيم هنا منذ عشرين سنة، انتظر صديق لي قال سيأتي على متن هذه الطائرة ولم أره، ربما هناك أسباب سأعرفها بالتأكيد منعته من السفر، ما علينا، أحب أن أقدم خدماتي لكم دون مقابل إن أحببتم!، وأضاف مكشرًا عن أسنان مثلمة كأسنان الرضيع : كيف يمكن لي مساعدتكم ؟ أين هي وجهتكم ؟ أعني، تحتاجون إلى فندق، سيارة أو شيء من هذا القبيل، أنا في الخدمة، وأعاد ما قاله

لتوه، أنا دكتور وأقيم هنا وأراد أن يكمل موالـه. قاطعه آدم بعد أن سمعه الشاب العراقي كذلك الذي كان جالسًا خلفهما في الطائرة وأشار له إشاره فهم منها آدم بأن لا يثق به كثيرًا، أجابه:

- الحقيقة نحن لا نريد البقاء في بلغراد، نودُّ السفر مباشرةً والوصول إلى بودابست عن طريق القطار، لذلك، لو تكرمت علينا وتشير أي حافلة ستتوجه إلى محطة القطارات الرئيسية نكون ممنونين منك.

ضحك، انتشرت الضحكة في كل وجهه، حتى رقبته ضحكت وجبينه كذلك، الغريب، أن الأمر لم يكن يستدعي هذا التصرف، استغربت أنهر رد فعله، أمسكت بيد زوجها، رصتها وضغطت عليها دون شعور، أرادت أن تحمي آدم من شيء شعرت بخطره، ربما أحست بأنها أمام رجل معتوه يتحدث اللهجة العراقية، غمزهما الشاب مجددًا من الابتعاد عنه وتركه في حال سبيله، انهى ضحكته التي لا مبرر لها، قال ناصحًا:

- لا عليكم. هذه الحافلة التي أمامنا هدفنا، هيا، لنصعد بها، الشاب أومى برأسه مغمض العينين معوج الرقبة بأنه يوافقه الرأي، لا خوف من ذلك، قال لهما في الطائرة بأنه درس في بلغراد ويعرفها كما يعرف بغداد، لكن ما مقدار الصدق في قوله؟، لا أحد يعلم، كمال استجاب لطلبهم مأخوذًا بعد أن تحدثت معه أخته أنهر بأن يساعد زوجها في حمل الحقائب، الحقيقة أنها لم تكن حقائب بمعنى الكلمة فقد كانت دواليب كبيرة بعجلات صغيرة، ملأى بالملابس. انقسم وسطهما حتى استطاعا الصعود بها.

تحركت الحافلة وصوت محركها يرعد مقرقرًا، كانت طويلة تتألف من مقطورتين، نفطية اللون، لم يروا أبطال الرواية الهاربين من الطاعون مثلها في بغداد من قبل، التهمت الشارع الإسفلتي حائل اللون بسرعة لم يتوقع أحد من ركابها الذين يسافرون لأول مرة إلى أوروبا أن تكون لهذه الحية الطويلة الضخمة نفطية اللون كل هذه القوة والاندفاع في السرعة رغم طولها وكثرة ركابها. اتخذ كل شخص مقعده، طلب الدكتور شريف بقسمات مربدة كأنها محفورة بأزميل الخيبة من آدم أن يعطيه دولارات كي يشتري تذاكر لهم من سائق الحافلة، أعطاه دون أن يسأله عن حقها، نقده عشرين دولارًا، دعكها دكتور شريف المشكوك بشرفه بعينين لائبتين،

تأكد من سلامة الورقة النقدية، وضعها في جيبه وأشترى بالعملة المحلية أربع بطاقات أعطى منها ثلاثة لآدم وسمح لنفسه استعمار الرابعة، جلس خلفهما بجانب كمال، الأخير كان حريصًا على ماله حرص الموسيقي على آلته أكثر من نسيبه، حرّن، ركب رأسه كما يقال، سأله بجسارة أقرب إلى الوقاحة وبخلو بال محظوظ وهو يقلّب التذكره التي بين يديه:

- أين باقي الدولارات؟ ومن ثم رأيتك جيدًا، اقتنيت واحدة لنفسك من مالنا.

كمنبوذ مثل الذين كفروا امتعض الدكتور بعمره الذي يناطح الأربعين فيه من تدخل كمال المباشر، وجدها إهانة، تعمد بالخيبة، كانت ثقيلة ثقل الرصاص على الجسد، نط واقفًا بطوله القصيرة الذي لا يخيف، بصق قوله بسرعة مهذارًا كأنه متخمرًا على طرف لسانه وجفنه الأيمن يرجف بشكل مربك كجناح فراشة محاصرة مثأثًا ويده اليسرى تطوف على جبينه تمسح عرقه:

- لولا هذا الرجل، وهو يشير إلى آدم، لما فعلت ما فعلت ولكن ردي عليك يختلف، أخرج من محفظة نقوده خمسة عشر دولارًا وسلمها لآدم، بصوت مذعن أدرك:

خذ، أنت رجل تستاهل كل الخير. ثم غادر مكانه ليجلس غائصًا في مقعده خلف السائق مباشرةً، لا يرى منه شيئًا كأن المقعد من الوراء يبدو خاليًا.

تحرك الشاب العراقي الذي كان عمره يزحف نحو الثلاثين، غيَّر مكانه ليجلس في محل صاحبهم الدكتور الراحل، مدَّ يده مصافحًا كمال، قال كمن يسعى إلى التبشير لدين جديد:

- أنا علي من سكنة بغداد. كنت أدرس في بلغراد، عدت إلى وطني لرعوتني. لكنني وفي أول فرصة هربت، تركت كل شيء خلفي وهربت مثلكم، لا أحتاج لمن يقول لي بأنكم لن ترجعون، حقائبكم التي تشبه خزانات الملابس تفضحكم، انصحكم بالتخلي عنها في أول فرصة تتاح لكم، اتحدث عن خبرة، ما ينتظركم يحب الحركة السريعة وكما يقال، العمل يحب الخفية، عملكم سوف لن يكون سهلاً، لا تستغرب من صراحتي، لم أعد أخاف، ما رأيته أثناء الحرب وفي الجبهة التي عشت فيها أمر سنوات عمري علمتني بأن الموت حق، ليأتي، أجالسك المقعد في الحافلة التي ستقلنا حيثما نريد، نحو أهدافنا التي خططنا لها.

- وما هي أهدافك.

كركر بنشوة، ثم بلا خوف أو تردد:
- براغ، ومن ثم ألمانيا. وأضاف: وأنتم؟
احتار كمال في الرد. حاول أن يستعيد توازنه، هل يفشي أسراره هكذا؟ ظل يلوب مشوشًا كمريض يحلم، يخرج لسانه من فمه، يبلل شفتيه ثم يدخله، شعر بأنه محاصر ومستفز، هل يمتنع عن الكلام؟ أنقذته أنهر، أدارت لهما رأسها الجميل وشعرها المصفف بعناية محكمة متناثرًا على كتفها كالشلال برصانة تدل على الدراية:
- لقد سمعتنا من قبل وساعدتنا في الترجمة أمام ضابط الجوازات في المطار، فلماذا تسأل؟ ردها كان حاسمًا، تراجع عن لهجته الوادعة، لاذ بالصمت، تراجع إلى الوراء، أسند ظهره على مقعده وراح يتأمل ساكنًا.

• • • •

في المحطة الخامسة توقفت الحافلة تعلن عن وصولها المحطة الرئيسية لقطارات العاصمة. لم يختلف جو بلغراد عما عليه في بغداد وحزيران في نهايته من القرن العشرين في سنته التسعين، الهواء كان جافًا، ساكنًا كأنه متأثرًا مفتخرًا بحرارة الشمس والساعة تقترب نحو الخامسة عصرًا.

قَبلَ كمال متبرعًا أن يبقى قرب الحقائب التي تشبه خزائن الملابس وهي رابضة على الأرض، تركاه وذهبا لحجز مقاعد في القطار المتجه إلى بودابست. لغة آدم وأنهر لم تكن تسعفهما، تدخل زميل رحلتهم الشاب العراقي الذي قدم نفسه على أن اسمه علي يعرف بلغراد كما يعرف بغداد بحكم دراسته، كان يريد أيضًا حجز مقعد في القطار المتجه إلى براغ، هدفه كان براغ كما وضح ومن هناك ينوي الرحيل إلى ألمانيا، هو لم يكن خائفًا مثلهم، صرح بما كان داخله يضمره دون تردد، التردد يؤدي إلى القلق، والقلق يضعف إيمان الإنسان، ساعدهما في اقتناء بطاقات الحجز وأشار لهما برقم الرصيف ومكان وجوده، غادرهما يتحدرج في مشيته، رآه آدم يدخل إحدى الحانات الموجودة في المحطة وغاص في ظلمتها. رجعا إلى كمال الذي كان ينشد الوحدة مع حقائبهم ملهوفًا متلصلصًا مختلس النظرات كمن يداري

شعورًا قديمًا بالإثم، عيونه ظلت زائغة ترصد حركات الفتيات في كل رنة كعب حذاء من أقدامهن يسقط على الأرض أو يلامسها وهو يطلق ضحكات كالصيحات ويردد كأنه يناجي نفسه مخنوق بالمشاعر: طيب الله مثوى أمواتنا الذين رحلوا عنا وتركونا ندب كما نهوى على أرض بلغراد الطيبة وشعبها الجميل الصديق... قال ذلك وهو يمط كلماته الأخيرة مطًا.

وقف آدم قبالته، سأله متخابثًا وهو يرفع تذاكر الحجز ويروِّح بها:

- ماذا هناك يا كمال؟ أراك لاهث الأنفاس كأنك خارج للتو من معركة مع الشيطان!.

قهقهه بعفرته كشخص شقي مهيأ لفعل كل شيء يدل على دلال عريق في طبعه:

- كفيلك الله لم أرَ في حياتي ما أراه اليوم ولا حتى في الأفلام التي كنت أشاهدها لوحدي، انتبه على نفسه، خجل من أخته أنهر، شعر بأنه تمادى في قوله أمامها، حاول أن يعدل من وصفه متنهدًا بسرعة كلفته لهاثًا:

آه يا آدم، نحن كنا مذ قليل كأشخاص مسكونين بالذكريات، تحررتُ لتوي منها، أصبحتُ فجأة رجلاً عاريًا من التاريخ، لا أعرف ما الذي حصل لي ما أن وطأت قدماي أرض بلغراد، وتابع كالحالم: انظر، المحطة صاخبة كسوق هرج (•) وسط بغداد، الأضواء منتشرة في الأرجاء، السينمات وأفلامها المباحة المكشوفة التي لا تحب الستر أو التحجب، المقاهي، الناس، كل شيء يصرخ من الأعماق صائحًا، أنا على قيد الحياة إلا نحن. أقصد، عندما كنا في بغداد قبل ساعات، لكن بعد الآن سننطلق في رحاب الحرية، سنرى ونعيش كما يحلو لنا وأراد أن يكمل تفسير أحلامه قاطعته أنهر بثقة أشبه بالوعيد كأنها متصالحة مع قدرها وتعرف بأن حبيبها لن يخونها:

- على رسلك يا أخي. نحن لم نرَ بعد شيئًا، لا تتعجل في الحكم، أرجو من كل قلبي ألا يكون طريقنا الوهم، وهدفنا غاية لا يمكن تحقيقها، ثم تابعت وهي تنظر لأخيها، وجدته يقلب مقلتاه كمن يواجه ضوءًا ساطعًا: أنا أعرف بأنك في سن يقارب سن

(•) سوق هرج: سوق قديم رفيع ملتوي يشبه الأمعاء يمتد متفرعًا من شارع الرشيد وسط بغداد يباع فيه كل شيء قديم مستعمل، الفوضى السمة الغالبة عليه، ومن هنا أتى الاسم.

المتناقضات، لكن اصبر قليلاً ستعرف بعدها ما هي الحياة في الغربة وعلى شكلها الصحيح، والآن هيا بنا، لنجر حقائبنا ولننتظر القطار الذي سيكون بعد دقائق على رصيف رقم ٣ من الجهة الشرقية للمحطة كما وصفها لنا الشاب العراقي.

• • • •

شاءت الصدفة أن تكون مقاعدهم المحجوزة في القطار في " كابينة " بمقاعد عددها ستة شاركهم فيها خمسة من الرجال الغجر، أشكالهم والوصف هنا بلا مبالغة صادق كانت توحي كأنهم مهيئون للأجرام، يشبهون بعضهم بعضًا بشكل عجيب مثل قطرة ماء انفلقت إلى أجزاء، مخسفو الخدود برؤوس مفلطحة كبيرة، شعرهم أسود من الجير، أفواههم كبيرة بحجم عيونهم، وأكتافهم أسمنتية عريضة لا يخترقها الرصاص الحي والحكمة لله؛ ملابسهم رثة ومنظرهم بائس يائس يؤلم النفس رغم ما يظهرون من فرح ومرح، اللغط الذي كانوا فيه لا يرحم، أصواتهم مجلجلة، وضحكاتهم أعلى من صيحاتهم كفاقدي الإحساس بليدي الشعور، لم تكفهم مقاعد الجلوس فاضطر اثنان منهم الوقوف خلف باب الكابينة فسدوا الضوء اليسير الخافت الذي بالكاد كان يصلهم، فغاص الجميع في ظلام شبه دامس داخل الكابينة التي أصبح هواؤها وجوها لا يطاق مع الوقت رغم برودة الجو كلما تقدم بهم الزمن وهو يزحف نحو الليل الذي بدا منه أولى ساعاته وعجلات القطار تزمجر ترص سكته بقوة حانقة كأنها غاضبة من أمر ما كرد فعل لما تتحمله كل يوم من أجل الآخرين وهي صامتة إلا من زعيقها الميكانيكي الذي اعتادت إطلاقه الممزوج بالشرر المتطاير كلغة وحيدة تعرفها وسط هذا الكون الواسع وعالمه الطافح بالظلم طالما هناك من يتنافس على الفوز بأن يكون الظالم الأكبر.

كانوا يقهقهون ملء أشداقهم كأنهم لا يعرفون من الحياة غير مسراتها وملذاتها كمجموعة لصوص يتقاسمون غنيمتهم التي استولوا عليها بعرق جبينهم الملطخ بالعار والقار، يأتون بأصابعهم بحركات خرقاء لم يستطيعوا الهاربين من الطاعون أن يفسروا معناها. فقد كان الغجريون الرجال عندما ينتهون من رطنهم الطانب المقيت وكركرتهم الصاخبة يمدون أياديهم المعروقة كبيرة الكفوف فاردين أصابعهم

اللعينة الطويلة كنقانق مشوية لتتشابك لمسًا فقط ثم يبعدونها قافزين من محلات جلوسهم كالعفاريت السكرانة، فيحدث هذا رجًّا في الكابينة يكاد يحطمها. منظرهم كان يثير التقزز والاشمئزاز ومن يراهم على وضعهم يقول جازمًا بأنهم لابد وأنهم فقدوا كامل رشدهم في تلك اللحظات التي فيها القطار يسير هاربًا بعجلاته التي لم تسكت من صراخها إلا عندما يتوقف في محطاته المنتظرة المخطط لها، فسائق القطار لا يستطيع إلا أن يفعل ما يكتب له ويطلب منه، حياة أنهر وآدم وكمال كانت منذ عهد قريب جدًا تشبه حياة سائق القطار ذاك، فحكومة الكايزر كانت تكتب لهم مستقبلهم وطريق حياتهم وتقول بعنجهية مخففة برأيهم لطيفة نصف دسم: هيا يا أحبائي، هذا جدول أعمالكم وما عليكم غير الانتهاء منه بأسرع وقت ممكن. أنهر أمسكت بيد زوجها الجالس بجانبها بقوة، هما لا يعرفان ماذا يريدون هؤلاء الغجر من تصرفاتهم الشريرة الرعناء تلك التي يأتون بها. تحامل عليهم كمال، ظل يلوب في مقعده القريب من آدم زوج أخته كمتسلط لا يحب أن يترك أحدًا وشأنه، يرشقهم بنظرات لها القدرة على ثقب الصخر، حاول أن يصطدم معهم، منعته أخته أكثر من مرة، طلبت منه التروي والهدوء، صاحت به:

- هم لم يتدخلوا في شؤوننا، يتسامرون على طريقتهم وبلغتهم، ما دخلنا نحن؟ سنصل بودابست قريبًا ويذهب كل شخص لحاله، اجلس وفقك الله. نفخ كمال الهواء الذي كان مخنوقًا به بقوة، تململ، رطن بكلمات عبر فيها عن مقته لهؤلاء الشياطين كما كان يسميهم، متحاميًا كمن يتوجس شرًا قال وهو يسحقهم بنظراته ويتمنى من أعماقه أن تكون تلك النظرات كافية كي تميلهم إلى رماد:

- أغبياء كأوز سمينة، صبية يستحقون السوط، هكذا ظل في جلسته مرابطًا حينًا واقفًا حينًا آخر وأنهر تمسك بأذيال قميصه بين آونة وأخرى كلما حاول الوقوف أو التقدم نحوهم رغم بعده عنها والحائل كان آدم بينهما لا يعرف بالضبط ما يفعله، بل كان غارقًا في هم ذكريات لم تكن بعيده الزمان عنه مساء ذلك اليوم الذي فاجأه قارئ الكف بجلسته مع أنهر وكمال في مقهى متواضع على كورنيش دجلة في أبو نؤاس يتباحثون بأصوات خفيضة أقرب إلى الهمس عن شؤون مستقبلهم التي ستصير واقعًا بعد أيام وهم يحتسون المشروبات الغازية في القناني القصيرة الشائعة وقتذاك في نهاية الثمانينات من القرن المنصرم حتى وقف فوق رأسهم

قارئ الكف. سأله الهابط عليهم من السماء الذي له شارب مميز، أبيض ويبدو كهلال مقلوب:

- اسمح لي أن أقرأ لك كفك، سأخبرك بما يخبئه لك قدرك. ثمَ أردف بتأكيد كأنه سمعهم: خاصة وأنتم تخططون للهروب والعيش خارج العراق!.

باغته بسؤاله، تجمدت أطراف آدم على حين غرة، جفَ حلقه، صمت الجميع كأنهم يمثلون دور الأصنام. بعد أن أفاقوا من نوبة الصمت التي انتابتهم، أجابه آدم بحزم:

- ليكن، بسط له يده اليمنى...

رفض الملعون وقال بتصميم:

- اليسرى من فضلك!

- ولماذا؟

- لأنها بريئة لم تأتِ بإثم أو خطيئة، ثمَ أردف مختصرًا، مقتضبًا: ولم تثر حنق أو غضب ربك وسكت منتظرًا.

زاد قوله من حيرتهم واستغرابهم، ينظرون له ببلاهة مشفقين على أنفسهم من هول الموقف، صاح آدم هاتفًا بجزع بعد أن نفد صبره:

- خذ. غرق كفه الأيسر في يده، تفحصه بمهل كما يتفحص الصائغ ماسة ينوي شراءها، قال بعد أن جلس بجانبه دون دعوة:

- ما أخطر حظك وأتعسه!، ثم تابع بعد برهة ألتقط فيها نفسًا من أعماقه كان بحاجه له بنبرة غريبة، ثقيلة، مخيفه كأنه ساحر أو مشعوذ وهو يدقق بنظراته على زوجته وصهره، تلك النظرات التي أوحت لآدم بإن نصفها كان إغراء وكفه مازال رهينة في يده: ستغادرون العراق دون مشاكل، ستقيمون هناك بعيدًا وراء البحر سعداء لوقت قصير فقط!، فرك كفه بقوة، شرع طافقًا: خاصةً أنت، ستعيش لحظات موتك ببطء معذب، والاثنان الآخرين. وهو يقصفهما ببصره ويقصد طبعًا أنهر وأخاها كمال: سيموتان حزنًا على شخص قريب لهما قرب اللحم من العظم والقريب هذا سيموت وهو في عز شبابه، ثم يتبعه أبوه ومن ثم أمه. ثم صمت وكأنه فارق الحياة.

بهت الجميع، تحولوا فجأة إلى تماثيل من الشموع وسط دوامة من الذهول، لا يصدقون شيئًا مما يرونه ويسمعونه.

نهض كمال من مجلسه وصاح به آمرًا:

- أغرب من هنا حالاً يا وجه الغراب، اذهب وإلا سترى ما لا يرضيك.

- سأذهب يا سيدي، لكنك ستموت كمدًا، حسرة وحزنًا كما قلت بعد أن تشهد موت قريبك والأخير في عز شبابه، ثم يلحقه أبوه ومن ثم أمه، تابع وكأن ما يقوله ليس بالأمر الخطير:

أرى مستقبلكم وأمسكه كما أرى كفَّ زوج أختك وهي مستلقية في يدي، ما سيقع يكون والعلم عند الله. وهم واقفًا ينوي المغادرة، استوقفه كمال برعونة كعادته:

- كيف عرفت بأن الجالس بجانبي هو زوج أختي؟ ها. انطق وإلا.

قاطعه قارئ الكف بهدوء الحكماء:

- ستدفنه بيدك، تبكي عليه، تموت حزنًا وغمًا لفراقه ومن ثم يلحقه أبوه ومن بعده أمه، تتعذب لموتهما كما لرحيله.

صرخ به آدم دون وعي بعد أن حول جلستهم إلى كابوس لا يطاق:

- يا ظل إبليس اذهب من هنا حالاً.

لم يكن آدم إلا ضحية. معرفته المسبقة بأن هناك ثلاثة أشخاص سيلقون حتفهم قريبًا بعد أن تنبئ لهم ذلك المشعوذ، ثم يعيش موته كأنه الحياة نفسها وعليه أن يبقى صامتًا كالأخرس. يا له من رهان خاسر ومدمر، هكذا ردد على نفسه، كيف لا وأنا الشاهد على المأساة كما أعلن عنها صاحبنا وهو يطالعنا بمستقبلنا؟!

انتبه على نفسه، هو لا يعرف كما يقال كيف يصقل خشب الأرض بنعليه، مازال يتمتع بجلسته قرب أنهر في القطار، ملامحه كانت تدل على أنه مهموم نافد الصبر، كفه غارق في يدها الدافئة، هي لم تسرحها، أو تطلقها ولم تدعها تكون بعيده عنها، تحب استعمار يده طوال حياتها، هذا يجعلها قريبه منه مطمئنة عليه، صدحت قهقهات الغجر ترن في أصداء "الكابينة" كأنها كلمات نابية، خاطب آدم ذاته همسًا بعد ذلك التأمل الطويل عبر رحلة ذكرياته الأليمة مع قارئ الكف اللئيم:

سأمضي بعيدًا عنك يا وطن، سيتبع الشعب الطيب خطانا، سنجدهم حيث نكون في كل مكان، على السهل وخلف الجبل، نهيم على وجهنا لا نلوي على شيء غير تحقيق سعادتنا واستقرارنا وحفظ كرامتنا من الاغتصاب كمجانين هاربين من أقدارهم، هل هناك مفر من القضاء الذي له سلطان وجبروت على الجميع

كالزمن؟!، انفجرت مجددًا ضحكات الغجر، عجلات القطار تزمجر مطلقه صرخاتها المدوية كصرخات امرأة في ولادتها العسيرة الأولى، هم يتجهون نحو محطتهم القادمة من حياة غربتهم، بودابست، وأرضية القطار الحديدية تهتز تحت أقدامهم كاهتزاز أبدان الغجر مترنحين بضحكهم المتواصل الذي لا يريد أن ينقطع إلا بموتهم، يشهد الله على إننا هنا لا نصف غير الحقيقة.

انشغلت عليه زوجته، امتعضت لسرحانه وخافت، ترددت في بادئ الأمر بسؤاله ثم لم تطق الصبر، بادرته مستفسرة:

- شغلتني عليك، بماذا تفكر؟

كالطلقة أجابها:

- بقارئ الكف، هل تتذكرينه؟

استغربت من سؤاله، شرعت طافقة بنبرة مرتجفة:

- ما الذي ذكّرك بوجه الغراب، بدني يقشعر كلما خطر على بالي، وأحس بأن شعر رأسي يقف لو زارني طيفه. قاطعها كأنه لم يسمعها:

- هل تملكين ورقة وقلم؟!

- ماذا!.

- كما سمعتي أرجوكِ. فهمت عليه، سألته مباغته، في هذا الجو الراعد البارق وهي تشير برأسها خفية نحو الغجر.

- الوحي لا ينتظر ولا يعرف لظهوره وقت، يأتي كما يشاء من السماء بطلب من سبحانه، هيا ستطير الفكرة من رأسي، لابد من دقها على الورق.

فتحت حقيبتها الجلدية ذات اللون الزيتوني الفاتح الذي يتناسب ولون قميصها الصيفي ذات الأكمام القصيرة، أخرجت دفتر صغير غلافه مطرز بالزهور، مغلف بقطعة نايلون شفاف، بداخله غرز قلم رصاص صغير، همت تسأله برقة متناهية:

- خذ. ولكن لي سؤال، ما نوع الفكرة التي جاءتك في ساعة كهذه؟

- على نمط صديقنا الكفء قارئ الكف. ضحكت وهي تقول:

- هكذا إذن، يعني مصائب قوم عند قوم فوائد!.

- بالضبط. استوقفته مرة أخرى:
- ماذا سيكون عنوانها؟

- هذا آخر سؤال اسمح به، سأنسى ما أمرني به الوحي، انظري له. يقف على رأسي كالطير. قال ذلك وهو يرفع عينيه نحو الأعلى وأردف متعجلاً: ستكون القصة بعنوان، قارئة الفنجان. ثم انحى على الدفتر، ضاغطًا على وركيه معتمدًا ساقية طاولة للكتابة وبدأ يرسم حروفه بصمت مثل شخص غائب عن الوعي لا يتحرك منه غير قلمه:

" لم تكن سناء قبل هذا الوقت حزينة أو متألمة بهذا القدر الرهيب الذي تعاني منه اليوم وهي تحت وطأة ذلك الشعور القاسي الذي تغلب عليها وملأ كل كيانها، شعور غريب كالخرافة لا تعلم من أين أتاها، أثقل من المرض عليها وأقسى من الموت نفسه، مفاده بأن هناك من يتربص بها أو بزوجها، فعاشت الصمت والتأمل، غرقت في هواجس شيطانية مريرة؛. نصحتها زميلتها في العمل وهي تقول لها كصديقة: سوف لن تخسري شيئًا، بل العكس تمامًا، ستفوزين بمعرفة سر قلقك وما يخبئه لكِ المستقبل، ثم أردفت متابعة: اسمعي كلامي وخذي بنصيحتي، اذهبي إليها، بعدها ستشكرينني وتكافئينني على معروفي هذا؛ جربي زيارتها، هي ذائعة الصيت في المنطقة الشرقية من بغداد، سيدة كريمة وعليمة، تفقه ما تخبئة القلوب وما يدور في النفوس من نوازع وشعور. إنها قارئة الفنجان.

تزوجت سناء من فرحان المهندس الزراعي منذ فترة لم تتجاوز السنة عن علاقة حب طاهرة كلفتها سيلاً من الدموع والأرق وأيام من السهد والحيرة.

كان زوجها يتمتع بجمال الشكل وطيبة الأخلاق، فارع الطول، عريض الصدر، واضح الملامح، مهيب الطلعة، يتقدمه شارب قروي غليظ، تنطق عيناه بنظرات يملؤها الوقار والحزم كأنها تعود لقائد، يحب النظام حد الإدمان، طموح وله هوس في الموسيقا على الرغم من أنه لا يجيد العزف على أية آله موسيقية، لكنه كان يتمتع بذوق وحس وثقافة موسيقية عالية الجودة كأنها تعود لملحن قدير محترف.

تذكرت سناء الأيام التي تلت زواجها والسعادة التي كانت تغطي كل ركن من أركان حياتها حتى غزاها ذلك الشعور مجددًا وهي جالسه في مكتبها بوزارة التربية حيث تعمل، متفكرة بهدوء وعمق في كلام زميلتها. وفي لحظة شاردة خرقت صمتها

الذليل، المهين الذي طال، قررت بانفعال مكتوم وغيض طائش بعد أن تنفست بعمق، قالت محاورة نفسها: سأذهب لمقابلتها دون تردد ولأموت بعد ذلك فلن أخسر شيئًا ولن أندم، هذا هو قراري ولن اعدل عنه. لكنها لم تظن في تلك اللحظة الحاسمة عندما قررت فيها زيارتها، بأنها ستنزلق إلى محنة أتعس وأشقى من محنة شعورها ذاك الذي كانت تعاني منه.

بدت سناء وهي على هذا الحال كمن يرمى بالجنون، همست في سرها مختنقة: أحتاج إلى قدرة خارقة للسيطرة على نفسي الآن فيما يبدو، تبًا لي على هذه الأفكار المحبطة التي تنتابني، تروم حولي وترقص في داخلي رقص العفاريت!، حزمت أمرها وحقيبتها، غادرت الوزارة على عجل دون أن تبلغ أحدًا كأنها سرقت شيئًا وتحاول إخفاءه وهي تردد مع نفسها " لما كانت المعجزة إذن ؟ ". توجهت إلى المنطقة الشرقية من بغداد التي تقطنها العرَّافة، تلك السيدة التي لقبت بالعرَّافة عن جدارة بعد أن فاقت شهرتها أركان محلتها وذاع صيتها في قراءة الفنجان والتنبؤ للمستقبل حتى بات روادها من كبار الموظفين والتجار الميسورين، في حين كتبت عنها الصحافة مقالات عده تمجد بطولاتها!، فأصبحت بمرور الوقت أكثر شهرة من الدينار العراقي نفسه، ليس في اقتنائه بل في صحبته، وبات سعر أتعابها يفوق سعر معاينة أفضل الأطباء علمًا وشهرة!.

دخلت منزل العرَّافة بعد توسلات عديدة بالخادم، نقدته مبلغًا محترمًا، سمح لها بالانتظار. كانت الصالة شبة مظلمة كأنها كهف بأضواء باهته. جلست على مقعد عريض، مريح الوسادة، غاصت فيه ثم قدم لها الخادم القهوة المرة في فنجان تركي مزخرف الحافة بلونين الأزرق والأبيض، همس لها قبل أن ينسحب:

- احتس القهوة كلها ومن ثم اطلبي ما تتمنين وما جعلكِ من أجله تأتين، ثم اقلبي الفنجان دورة كاملة بدءًا من جهة اليسار واحذري من قلبه بالاتجاه المعاكس وإلا ستحل علينا اللعنة جميعًا. انتظر وقع كلماته عليها، ثم تابع مستطردًا:

- ضعيه على الصحن مقلوبًا لينعم بالهدوء والسكينة لتجف رواسب القهوة، ستناديك العرَّافة بنفسها متى ما فرغت، تركها تعاني الوحدة في خلوتها مجددًا، غادر الكهف بصمت كالظل.

قالت سناء والفنجان بين أصابعها يرتجف بارتجاف يدها هامسة تحدث نفسها "يوحى لي بأن الإذعان لمطالبهم في حالتي هذه منج من الكدر الذي أعاني منه". رفعت الفنجان نحو فمها، ارتشفت القهوة بنهمٍ غريب كأن فيها يكمن سرٌّ حياتها أو شيطان شفائها. لم يبق فيه سوى الرواسب، فعلت ما طلب منها بالضبط، ثم سلمته إلى الخادم ثانيةً. بقيت تنتظر بقلب ملتهب، متمرد، بروح منهارة، حائرة وبعقل خاوٍ لا يعلم من أمر صاحبته شيئًا. امتد فيها الزمن ليصبح دهرًا بالنسبة لها وهي تنتظر دخولها إلى العرَّافة. شعرت بالغثيان، تسلل الاكتئاب إليها بطيئًا كعمر الدقائق التي تمر عليها فأخذتها هواجسها بعيدًا. سرحت في خيال كثيف كالضباب وهي تستعجل اللقاء.

فجأة سمعت من خلف الباب الذي يفصلها عن الغرفة الأخرى تلك التي تخرج منها روائح عطرة ساحرة:

- تفضلي بالدخول.

جفلت للحظة لدى سماعها صوت امرأة وهي تناديها وتسمح لها بالدخول، شعرت برجفة خفية في جسدها من الرنة التي ذكرتها بصوت صفير الريح. نهضت بتثاقل شديد كأنها تساق للإعدام، دخلت متعثرة في خوفها الغرفة التي رأت فيها امرأة لها وجه غامق موسوم بالدهاء والحيلة، عيناها تنطق بنظرات يحتار في تفسيرها كل من يراها. متربعة، تتوسط وسادتين كبيرتين على الأرض، أمامها طاولة نظيفة تلمع كأنها معروضة للبيع قصيرة الأقدام كتلك التي يتناولون المصريون البسطاء عليها طعامهم. زاهدة السطح إلا من مبخرة كثيفة الدخان، عالية السحب والفنجان الذي احتست منه قهوتها قبل قليل.

أشارت لها العرَّافة بيد طويلة كقصبة مكنسة بالجلوس وهي تقصفها بنظرها دون رحمة أو هوادة مما جعل سناء تنهار تمامًا لتلعن في سرها اللحظة التي قررت فيها مقابلتها، لكن استعادت هدوءها ونشاطها بعد أن سمعت مجددًا نبرة صفير الريح وهي تردد بعطف كاذب:

- هلا جلست هادئة لتصغين لما سأقوله؟، ثم أردفت بحزم صادق: هناك من يتمنى جلستي هذه، يدفع لقاءها الغالي الذي يملكه. إنك محظوظة في مقابلتي، لا تنسي ذلك أبدًا، ثم أدارت الفنجان وهو غارق بين يدها اليمنى. فجأة قطبت، تغيرت لهجتها من

مسالمة وادعة إلى متشنجة عدائية مباغته، صاحت كصراخ قطة محاصرة دون أن تطرف:

- إنك فتاة متزوجة(قالتها وكأنها بقولها استوفت مزاجها)

قاطعتها سناء بغباء وهي تغمز بعد أن ضحكت على رغمها:

- هذا واضح من الخاتم الذي في إصبعي.

رفعت العرَّافة درجة صوتها ليخرج الكلام من فمها هادرًا كصوت الموج تقول بلا مبالاة لما قالته سناء للتو:

- إنه يستغفلك، يلعب بمشاعرك ولم يكن يومًا صادقًا معك، ثم غرقت في النظر نحو الفنجان الذي يتمتع بدفء كف يدها اليمنى.

جف حلق سناء فجأة، غصت بريقها وهي تشهق صائحة دون وعي في تسليم:

- ماذا تقولين. يستغفلني؟!

- نعم، يستغفلك، أجابتها العرَّافة بإصرار وبنبرة ملأتها المرارة المصطنعة، ثم أضافت بحزم: إنه يخونك وأنتِ لا تعلمين!.

ضربها الذهول كالإعصار. دقت صدرها بيدها بقوة وهي تصرخ هاذية باستهانة وجنون:

- ماذا. يخونني؟، توقعت ذلك، حدسي لم يكذب، كانت الرؤيا والشعور بالنفور من الناس والحياة كلها بوادر لمعرفة الحقيقة، لم تأتِ عن فراغ وها أنتِ تؤكدين ظني، يا ليت كنت خاطئة أو قراءتك لفنجاني ليس صحيحًا. غزتها الدموع بكرم مفرط، استولت عليها ضحكة حادة غير متوقعة كفرقعة سوط في الهواء.

- هوني عليك يا بنتي، قالتها العرَّافة بحنكة توهم المرء الذي يحادثها بأنها صادقة كأنها أم تحث ابنتها على الصلاح، ثم استطردت بتأثر زائف: انتظار وقوع المصيبة أقسى من المصيبة ذاتها. احمدِ الله على إنك عرفت هذا اليوم قبل الغد كي تقرِّري ما ستفعلين، ثم صمتت كأن الخرس أصابها فجأة.

ندبت سناء حظها العاثر بغضب حانق جنوني والشرر يتطاير من عينيها اللتين أثقلتهما الدموع. دمدمت بكلمات لا معنى لها متسائلة بحزنٍ قاسٍ:

- هل أنتِ متأكدة؟، واصلت بنفس الرنة: أقصد هل عنيت حقًا ما تقولين؟، أنه كلام خطير يمكن له أن يهدم كيان أسرة آمنة، ثم دعت على زوجها بحرارة: يا رب ليكن جزاؤه من جنس أعماله أنت السميع البصير، بكت بمرارة لا تقاس ولا توصف بالكلمات. العرَّافة تنظر لها تارة وللفنجان المستقر بين أصابعها تارة أخرى دون أن تنبس.

نقدتها أجرتها المرتفعة بذهن شارد، متوترة الأعصاب وأطرافها بالكاد تستطيعان حمل جسدها، فرَّت هاربة لا تلوي إلا على شيءٍ واحد. ضبط الزوج الخائن. الملاك الذي تحول فجأة إلى شيطان وهو متلبس بجرمه.

طافت في الشوارع دون وعي كالحالمة بشقاء مميت، مندفعة بقوة طائشة، بنسيان تام للعواقب وهي تلعن زوجها الخائن في عرفها وعرف العرَّافة، توجهت إلى مكان المشروع الزراعي في المنطقة الغربية من بغداد حيث يعمل زوجها، هناك لاحظها زميل زوجها المهندس جعفر، عرفها مباشرة، سبق وأن رآها في حفلة زفافها، رحب بها، سألها إن كانت لا تمانع من شرب الشاي معه لحين عودة زوجها من حملته التفتيشية اليومية لمفاصل المشروع الذي يعمل فيه مهندسًا.

شاردة اللُبّ وافقت دون تردد. جلسا متقابلين حول طاولة مستطيلة يعلوها التراب والطين، تظللهما خيمة حمتهم من أشعة الشمس المباشرة، تحدثا حول أشياء كثيرة، خرجا من المكان وهما يقولان في سرهما: ما أجمل الوقت الذي قضيناه معًا وما أقصره!. حضر زوجها وهو يبتسم بصدق لزوجته التي فاجأته بحضورها غير المعلن، سألها مستفسرًا:

- ما الذي أتى بك يا سناء، هل هناك مشكلة؟!

- كلا، لقد شعرت بالحاجة إلى أن أتنفس هواءً منعشًا خارج الوزارة، وجدت هذا المكان هو الأنسب لي!، ثم بادرته طافقة بخبث شيطاني عجيب: ألم تعجبك المفاجأة؟، تابعت دون أن تتلقى الجواب: من ناحيتي أعجبني المكان جدًا حتى زملاؤك. كانوا معي طيبين وكرماء!.

نظر لها فرحًا باستغراب من طريقتها في الحديث، تلهفها من المجيء إلى مكان عمله، إطراؤها الغريب عن زملائه. قال لها كالمعاتب:

- لقد انهيت حملتي المعتادة، يمكننا الذهاب الآن. أمرها بلطف: هيا... لنخرج من هنا.

لم تر على زوجها أي علامات توحي أو تشير إلى الخيانة، لكنها كانت مقتنعة تمامًا بأنه كان يستغفلها ويلعب بمشاعرها. لم تتراجع ولم تفكر إلا بالرد الحاسم الذي يثأر لكرامتها التي اغتصبت، في حين كانت كلمات زميله جعفر ترن في أذنيها كالطنين تردد " ما أجملك من فتاة، رائعة ورقيقة، تشبهين الفراشة إلى حدٍ بعيد "، استقبلت كلماته بعفوية، برضا لم يتوقعه جعفر نفسه بأن هذا سيحصل أبدًا، خاصة بعد أن ضربا موعدًا أخر للقاء خارج أسوار أرض المشروع. انغرست أرجل سناء في وحل الخيانة، تناست بسرعة عجيبة كأن ذاكرتها فقدت أهم مزاياها ما كانت تعاني منه من ألم وقسوة شعور مزعوم من قبل قارئة الفنجان التي لا تحب إلا الدينار وهي تحذرها وتندد بخطر وقدر خيانة زوجها لها.

أفاقت سناء فجأة كأنها استيقظت للتو من كابوس ملأ عليها حياتها غمًا وكمدا وهي مازالت جالسة تنتظر دورها للمثول بين أيدي قارئة الفنجان على صوت الخادم وهو يرجوها ويحثها على الدخول.

نظرت له بدهشة كأنها تراه لأول مرة، بقيت ساهية، مترددة لا تقوى على الحركة، خائفة لما قد تؤل لها حياتها من سقوط لو لم ترجح حكمة العقل ومنطقه.

كرر الخادم توسلاته وهو يدعوها للدخول بقوله:

- أستاذة سناء. ست سناء. حان دورك، أرجوكِ، هي بانتظارك، لا تجعليها تغضب أو تثور. رفعت رأسها إلى الخادم في حالة ذعر، همست بصوت مخنوق لا يكاد يسمع كأنها تحاور الهواء:

" كيف سمحت لنفسي أن أحضر إلى هنا ؟! تبًا لي من امرأة حمقاء لا عقل لها، تابعت على نفس الوتيرة المتشنجة، النادمة: بالغت في تصور شعوري الذي جعلته مأساة حتى تهيأ لي بأن هناك من يتربص بي أو بزوجي، آه. أفسدت على نفسي نعمة الحب والحياة، فرحان يحبني وأنا كذلك. إذن يجب أن استدرك نفسي قبل أن أتمادى أو أنهار. نظرت حولها بخفة ساحر، اندفعت سريعًا نحو الخارج كأسير أفلت من أسره، تلهث بحنق وغضب وقلبها مفعم بالسخط على سفاهتها التي

أوصلتها إلى قارئة الفنجان. الخادم يتابعها بنظرات استغراب حائرة. اختفت من مرماه. لم تلتفت وراءها، الزيارة ستكون بعد ثوان ماضي لا تحب أن يتكرر لها.
رفع القلم عن الورقة، استعدل بجلسته، سألته أنهر متلهفة:
- ها. هل انتهيت؟

- نعم، وأردف: أشعر الآن براحة كبيرة وكأنني رجعت للتو من رحلة استجمام على شاطئ بحيرة رغم وجود هؤلاء الغجر وضجتكم التي تفلق، غريب طبع الإنسان، تجدين الحيوية فيه حتى وهو يقبع في سجن بين أربعة جدران لزنزانة لا يتعد مساحتها مترين مربعين، يستطيع أن يرسم شعاع من نور وهو يعيش الهم، يكون مبدعًا بطاقة لا طائل من قهرها لو أراد أن يستخرج من مكامن نفسه مادة تفيد البشرية، يقدر على تحويل حُزنه إلى أمل. لا يستطيع حتى العلم الحديث من تفسير ما يحدث وما يقدر عليه الإنسان وهو يواجه الخطر. تجدينه مفكرًا، عاملاً ومبدعا. الدليل ما حدث لي الآن، وسط هذا الضجيج الذي لم أسمعه عندما كنت تحت وطأة الإلهام. أراد أن يكمل كلامه، قاطعته بقبلة لم يحفل بها هكذا جهرًا من قبل، استغرب فعلها، فرح بها، تجاوب معها، غرقا في فرح نرجسي هائم، قالت مستبشرة:
- سيكون لك شأنٌ بمجال الأدب في المستقبل القريب. تذكر كلماتي هذه جيدًا، ستقول وقتها: أنهر لا تقول إلا الصدق ولا تتنبأ إلا بالحقيقة.

(٣)

يُقال: كبرتُ ناسيًا أن أحمل عقلي معي.
غاندي يقول "أينما يتواجد الحب تتواجد الحياة".
وهل ما يقال عن الإنسان الفقير بأنه متشدد كثير الشك والحذر صحيح ؟

ترجَّلوا بصعوبة بالغة من القطار، انتظروا كثيرًا في بادئ الأمر حتى نزل أغلب الركاب فأفضت ممرات القطار تقريبًا فارغة ثم بدأت حملتهم بنقل حقائبهم الكبيرة التي تشبه خزائن الملابس المليئة، وفي أول حقيبة رفعها كمال وأراد النزول بها من سلم القطار تدحرج بها، كاد يسقط معها على الرصيف لولا ستر الرب كما قالت أنهر التي سارعت وتشبثت به منعًا من الانزلاق، آدم كان مشغولاً برص الدواليب كما كان يحلو أن يسميها جنبًا إلى جنب ليسهل التقاطها والنزول بها من على حافة القطار العالية ذات الدراجات الثلاث المؤدية بالتالي إلى رصيف صاخب لا يعرف المرء من الوهلة الأولى أين يبدأ وأين ينتهي، الارتباك كان مسيطرًا عليهم مثل الذعر، وسرعتهم كلفتهم لهاثًا وعرق جبين مفصصًا.

الساعة وقتها لم تعلن عن نفسها بعد السادسة صباحًا، الضباب كان كمطر بلاد الطاعون الذي جاءوا منه، غزير كثيف لم يصدقوه. سوروا حقائبهم المكدسة بعضها فوق بعض كساتر ترابي في جبهة قتال يتلفتون حولهم لا يعرفون من أين يبدأون، حتى نبر آدم:

- علينا أولاً أن نسأل أحد العرب المغتربين هنا عن سامح المصري، أوصاني به أحد زملائي المقربين في الجامعة، كان منذ عهد قريب هنا لعمل ما. قال لي يستطيع أن يصرف لكم العملة بسعر رائع ويمكن أن يجد لنا شقة مناسبة كذلك على أمل وصول أخيكما كريم قادمًا من ألمانيا كما وعدنا.

أشادت أنهر برأي زوجها، قالت:

- من يرغب أن يبقى بجانب الحقائب؟

- أنا... صاح كمال، وتابع غامزًا وهو يزر الفتيات بنظرات قاصفة لا ترحم: هذه صنعتي التي سأتعود على ممارستها. اذهبا ودعوني هنا أرتاح قليلاً وآخذ نفسًا عميقًا!. ابتسمت له أخته وهي تردد كلمتها المشهورة "خوش"... أمسكت يد زوجها واتجها نحو مركز المحطة. في حين ظل كمال بوقفته الذاهلة مصطك الركبتين يجتر رغبات شتى لا حصر لها يجهل الشيطان أصلها.

من الخارج كانت قمم بناية المحطة موبؤة بالتماثيل الرخامية التي بحكم القِدم تميل إلى السواد مختلفة الأحجام كعفاريت خرافية تجلس القرفصاء تنظر للمدينة بعيون ناطة متجلدة متحجرة نساها الزمن، في حين نواة المحطة يختلف إذ كانت على شكل خيمة مشجرة بألوان من الزجاج الجميل المطرز كزجاج الكنائس والخشب المبلطة بقطع من الأحجار الملساء المصقولة جيدًا ذات الألوان البيضاء والسوداء المرصوصة والمرصوفة بحرفية هندسية رائعة كلوحة شطرنج، وفي إحدى أركان الخيمة انغرز مكتب صغير لتأجير الشقق وغرف الفنادق الرخيصة تديره فتاة لم يرَ آدم من قبل بمثل جمالها، وعت زوجته على نظرته، نوهت ضاحكة، أحممم. نحن هنا!، على يمينها كانت شبابيك مشرعة الأبواب خضراء اللون تميل إلى السواد لقدمها يجلس خلفها موظفون يبيعون التذاكر الخاصة لقطارات المترو والناس في هرج ومرج لا تعرف الصديق من العدو، الكل يسير مسرعًا متوجهًا نحو غايته وسكك القطارات ظلت خلفهم وكمال في وقفته مسحورًا لا يريد أن يصدق ما يراه، الفتيات تقبل الشبان في كل متر مربع من أرض المحطة دون خجل أو وجل، وأياديهم كالأفاعي الطليقة تذهب كما تشاء إلى أي نقطة من أجسادهم بوقفتهم وهم يتعانقون، لا أحد ينظر إليهم أو يشعرهم بوجوده أو يتحرش بهم وكأن الأمور هكذا لابد لها أن تكون، حتى لمح آدم ثلاثة شبان يتحدثون العربية اللهجة المصرية، سحب أنهر برفق منوهًا، لنتجه إليهم.

وقفا قبالتهم، تقدم خطوة بمفرده، قدم نفسه:

- أنا آدم من العراق. من فضلكم، هل تعرفون سامح المصري؟

أجابه أحدهم بنعم مبتسمًا ببلاهة غير متوقعه كمن يكفر بالنعمة كاشفًا عن طقم أسنانه الاصطناعية رغم صغر سنه وهو يمسح أنهر ويصليها بنظرات قل عنها كل

شيء إلا البراءة!، كان غليظًا أسطوانيًا، صدره مربوع منتفخ كصدور المرضعات مربرب الجثة متروسًا، صلدًا كأحد الأعمدة التي تقف عليها كنيسة الفاتيكان كأن الفقر الذي يعاني منه غالبية الشعب المصري الطيب لم يمسه أو يقترب منه، تسكن على جمجمته كشة ضئيلة من الشعر، وعلى ما يبدو والله أعلم بأنه منافق سيء السيرة كثير العربدة رعديد عربيد متمرد على قومه لا يعرف له أصل ولا فصل.

- وكيف لي أن ألتقي به؟ سأله آدم بحرص.

غاويًا متبرعًا تدخل الشخص الآخر وهو يصفق جفنيه الواقف بجانب الكتلة البشرية التي تشبه العمود، كان والحقيقة تُقال، غير مسرَّح الشعر، نابت الذقن، طويل الشاربين، قصيرًا، أسمر، كالح الوجه مثل الذي باع روحه للشيطان، رث الثياب كسكير منبوذ تطارده الديون:

- سيكون هنا عند العاشرة. هذه هي أوقات عمله، ثم سأله متطفلاً بشكل روتيني متعود عليه: هل تحتاج إلى تغير عملة؟ غرفة في فندق؟ مطعم عراقي؟ ثم ألقى على أنهر نظرة فاختصر جملته ولم يكملها، فهم آدم بخبرته أنه كاد يسأله عن حاجته إلى فتاة من فتيات الهوى، بلع كلامه وسكت. اضطر آدم أن يتابع معهم مواصفات سامح فيما لو حضر وكيف سيتعرف عليه.

هنا غيّر السمين المرصوص بالرصاص موجه رؤيته، اتجه نحو آدم يتفحصه بدقه، ثم صاء كطير البطريق:

- طويل رفيع. أبيض البشرة. أعني لا يشبهنا، ضحك بتهكم قبيح. أضاف: لو سألت أي عربي عنه سيدلك عليه. شهرة سامح لا تقل عن شهرة مايكل جاكسون، ثم أعطاه ظهره دون خجل وبدأ يدمدم مع رفيقيه بكلام لم يعتنيا به آدم وأنهر كثيرًا، رجعا إلى كمال محملان بالأمل رغم حاجتهما للصبر وانتظار ثلاث ساعات في المحطة حتى يظهر من يبحثون عنه كأن سامح المصري منقذهم الذي سيصطفيهم.

• • • •

كانت المحطة تموج بالأفواج البشرية، لا يعرف المرء من أين يدخلون، يهبطون أو يخرجون، تتكون من طوابق عدة بمصاعد كهربائية طويلة، لعينة كأفاعي أسطورية

عجيبة، الانبهار كان مسيطر عليهم، وكمال زائغ النظرات أحمر الوجنتين، منهك الأعصاب لما يراه من صور متحركة، ماثلة أمامه لا يريد أن يصدق عينيه، صاح بهوس كالجريح:

- باه. ما هذا؟ أنهم لا يخجلون!.

عطف عليه آدم مداريًا بقوله:

- أهدأ يا كمال ولا تفضحنا. ستحصل على نصيبك بإذن الله. دعنا ندبر أمورنا أولاً، نحصل على شقة نسكن فيها، نتصل بأخيك كريم نبلغه عن وصولنا ومكان تواجدنا، ثم بعدها افعل ما ترغبه.

أثنت أنهر على تعقيب زوجها:

- عندك حق، نحن نجهل مستقبلنا كل الجهل، علينا توخي الحذر، أن نكون واعين لكل ما يدور حولنا، لغتهم نجهلها وإنجليزيتنا كما تعرفانها على مستوى لا يعلم بها غير الله، هكذا هي مدارسنا التي خرجنا منها، ثم وجهت حديثها لأخيها: أرجوك، حاول أن تساعدنا، تسيطر على نوازعك قليلاً حيثما نستقر أو أن يصل كريم لنجدتنا.

تمتم كمال خجلاً كطفل مذنب:

- حسنًا. أعدكما بانني سأكون مطيعًا ولا أسبب أي متاعب، كما أني لا أنسى فضلكما عليّ، فلولاكما لما استطعت أن أكون اليوم هنا.

قاطعته أنهر، حضنته، شعرت بعاطفة كبيرة اتجاهه، هي تعرف بأنه الابن المدلل في عائلتها، قبلته، شرعت بعذوبة:

- لا تقل هذا الكلام مجددًا، ليس هناك أي فضل، أنت جزء منا. لا تنس ذلك.

- أشعر بالجوع، ناح كمال.

ضحكت أخته، تدخل آدم حاسمًا أمر قرقرة بطن نسيبه:

- سأتدبر أمر فطورنا، دقائق وسيكون كل شيء عندكما، لا تتحركا من مكانكما. حقائبهم كانت متربة تنظر لهم صامته كأنها تنعى حالها، أو تواسي نفسها. تركهما يستحلان مترين من رصيف المحطة، المقلق، سيتعود بعض العراقيين على الاحتلال والاستغلال في كل مناسبة يجدونها مواتية حتى لأقرب الناس إليهم ولو

كان أخاهم!؛. سياسة الكايزر لها الفضل في شيوع وترسيخ هذه المبادئ المدهشة الملفتة للنظر، هل ستنتقل هذه العدوى المرضية إلى بقية أبناء القارات العربية؟ الجواب عند علام الغيوب سبحانه وتعالى.

ما هي إلا دقائق كما وعد عاد إليهم آدم بيده اليمنى كيس ورقي نظيف أسمر اللون مطرز بالأصفر كتب عليه دعاية لمطاعمهم الأمريكية للوجبات السريعة التي غزت واستحلت أركان كثيرة من شوارع العالم اسمها "ماكدونالدز"، فيه سندوتشات منظرها يسلي ومشهي، في يده الأخرى طبق كارتوني أبيض وضعت فيه ثلاث كؤوس ورقية مليئة بالقهوة المحلاة بالحليب المركز. جلسوا على حقائبهم، بدأوا يتناولون فطورهم لأول مرة بعيدًا عن جمهرة الأهل، صياح الأطفال، صينية الشاي، الإستكانات (•) المنقوشة المذهبة والقيمر العراقي المحلي الذي يُضرب به الأمثال لطعمه اللذيذ الطيب.

• • • •

بعد السؤال عن سامح وجداه آدم وأنهر بين جمهرة من العرب يخوضون نقاشًا حامي الوطيس حول حكاية لم يتفهما فصلها الأول غير همهمات تخص العراق والكويت لم يتضح لهما مسار الحديث فأهملوا ذلك وركزا على ما جاءا من أجله، تقدَّم آدم خطوة كما فعل في المرة السابقة عندما سأل عنه، رحب بهم، تابع قائلاً:
من منكم لو سمحتم سامح؟
نبر أوسمهم، رفيع العود، محبوب الدم، قصير الشعر، بسيط الهيئة كفنان، له وجه تنفعل أمامه إعجابًا ما أن تراه، رقيق دقيق ملفت يأسر البصر، وابتسامته رائقة، صافية تنير وجهه لا تفارق ثغره كأنها لفتاة في الخامسة عشر من ربيعها:
- أنا سامح، وتابع: هل من خدمة؟
- الحقيقة نعم، وأضاف، هل يمكن التحدث معك على انفراد؟

(•) الإستكانات : أقداح الشاي الصغيرة.

- بالتأكيد وهو يكردح في مشيته بعيدًا عن جمهرة العرب الذين كانت أصواتهم تسمع عن بعد، أحدهم كان يشتم الكايزر العراقي لأنه سيسبب كارثة في المنطقة حسب قوله، وآخر يحلف بأغلظ الإيمان ويقول العكس. عرّفه آدم على زوجته، رحب سامح بها في رقة تتناسب مع وسامته، ربت على كتف آدم بحرص وهو يسأله عن حاجته:

- كيف لي أن أساعدكما؟

- نحن ثلاثة أشخاص، أنا وزوجتي وصهري الذي تركناه ينطر الحقائب، وعى على كلمته الأخيرة، وجدها غير ملائمة، صححها، قال، أقصد، تركناه بجانب الحقائب لأنها كثيرة وثقيلة، هناك من نصحني بالتعرف عليك عندما كنت في بغداد، قدمت أنت خدماتك له وكان مسرورًا بها ممتنًا، لذلك ستكون محل ثقتنا، نحتاج إلى شقة مفروشة لفترة مفتوحة أولاً، ثم تغير لنا عملتنا إلى العملة المجرية، نمتلك دولارات أمريكية، سنحتاج للعملة المجرية بالتأكيد، سمعت اسمها فرونت، هل صحيح؟

- نعم. ما ذكرته دقيقًا، أضاف بلا تزلف: الشعب المجري معروف بالطيبة، نسبة الجريمة قلت كثيرًا عما كانت عليه قبل عشرين عامًا مثلاً، الانفتاح والتحرر قائم على قدم وساق، يتحدثون بجانب لغتهم المحلية الألمانية والإنجليزية، لن تلاقوا أي صعوبة، في الظروف الطارئة تجدونني هنا في المحطة من العاشرة صباحًا وحتى الثامنة مساءً كل يوم، ثم أردف مقتضبًا: والآن يجب أن نتفق.

كمال يمسحهم بنظرات من وقفته غير البعيدة عنهم منتصبًا بجانب الحقائب منتظرًا الفرج.

• • • •

لم تكن المسافة من المحطة حتى الشقة بعيدة. استغرقت الرحلة بالسيارة التي أجّرها لهم سامح وظل بصحبتهم حوالي خمس عشرة دقيقة. كان الحي جميلاً، شوارعه نظيفة كممرات بيت معتنى به، الشقق متناسقة الألوان موحدة الارتفاع، تطل الشقة على حديقة واسعة تصلح لأن تكون ملعب لكرة القدم زرع في بطنه ملعب صغير

للأطفال ذو سياج مشبك حديدي أخضر دقيق الفتحات بباب موصد لا تصل إليه أيادي الصغار لحمايتهم، كتبت لائحة كبيرة في بداية الممر المفضي إليه ترجمها لهم سامح بوقفتهم من شرفة الشقة بعد أن سأله كمال عن مضمونها "لا يحق للكلاب دخول ملعب الأطفال"، سيجت الحديقة من ظهرها بأشجار باسقة دائمة الخضرة، فأعطى المنظر عن علو سر رباني جميل يدعو للتأمل والشكر. في الشقة غرفتين واسعتين عاليتي السقف بإنارة إلهية يدخل عليهما النهار كله من خلال نافذتين كبيرتين، عريضتين زجاجهما يلمع ثبت على إطار أحدى النافذتين في الغرفة التي لها واجهة مطلة على شرفة صغيرة نظيفة تصلح في الصيف للنوم محرار زئبقي صغير كالذي يستعمله المرء لقياس حرارته. خلعه كمال فيما بعد من مكانة وسرقه. خبئه في إحدى حقائبه دون أن يفكر للحظة عن مدى أهميته له ولا عن إمكانية استعماله في حالتهم التي لا يتكهنون بمستقبلها. ثم تخلص منه قبل هروبهم القادم إلى ألمانيا بعد أن عجز من إيجاد سبب واحد يبرر أحتفاظه به!. وسط الممر بين الغرفتين حمام واسع بضمنه مرحاض على الطراز الأوربي، وبعد أن ألتقطوا أنفاسهم من حمل حقائبهم ووضعها كلها في إحدى الغرفتين وقف سامح منتظرًا، ففهم آدم بأن ساعة النقود قد أزفت ودقت. أخرج من عبه الداخلي المزرر جيدًا ورقتين من فئة مئه دولار وسلمها لسامح كعربون لفترة غير معروف أمدها في الإقامة. كل شيء بالنسبة لهم كان يبدو ضبابيًا لا يرى من خلاله ما يخفي وراءه. غيّر لهم أربع أوراق نقدية من فئة مئه دولار تقاسمها آدم مع نسيبه، ثم تقدم كمال من سامح متعجلاً عجلة الأطفال وبإلحاح كإلحاح المراهقين متسائلاً:

- ربما نحتاج إلى مزيد من المعلومات حول العاصمة، مداخلها ومخارجها، سينماتها، باراتها، مركزها، وسائل راحتها، وكيفية استعمال شياطين المترو، معذرةً، أعني قطارات المترو، ثم تابع كزين العارفين: كما إننا نحتاج إلى خرائط شبكتها.

ربت سامح على كتفه بعد أن دس الورقتين النقديتين في جيب بنطاله ذات القماش الخفيف السمائي اللون وأجاب:

- لا تتعجل رزقك، بودابست مدينة جميلة، ستجد راحتك فيها من كل شيء، وكما ذكرت لكم عندما كنا في المحطة، شعبها طيب جدًا، الناس بسطاء، يقدمون خدماتهم

بلا مقابل، صادقين، والأهم يقرأون كثيرًا، كثيرًا جدًا وكأنهم لا عمل لهم غير القراءة، ستجدونهم يقرأون في كل مكان، الأدهى بأنهم لا يملكون وقت فراغ، يمارسون هوايتهم وينكبون على مواهبهم يحققون فيها ذواتهم وهم يعملون وينتجون.

أضاف بعد برهة توقف مادًا يده في جيبه وأخرج قصاصة ورق ملونه: خذ، هذه خريطة توضح شبكة قطارات المترو، ثم بسطها أمامه وهو يوضح له موقع الشقة وقربها من إحدى المحطات التي كانت تبعد عن الرئيسية بخمس محطات. أرتاح كمال للنتائج، طبّق الخريطة بدقة، دسها في جيبه، شعر بانتعاش وزهو، قدر أن يخرج من صمته، يطفئ نظراته، ينتج شيئًا ذا بال، قال وإشراقة فرح تسرح على وجهه الجميل:

- سنأتي إليك كلما احتجنا إلى شيء، ثم وهو يبتسم كالطفل: عرفنا طريقك، لن يصعب علينا اصطيادك وكركر مغترًا بنفسه بلا إنصاف.

بعد أن غادرهم سامح وصفق باب الشقة وراءه انسحب كمال خلفه وهو يستوقفه بنبرة مشوشة مرتجفة كنبرة الشهوة:

- سامح، انتظر لحظة من فضلك.

التفت إليه، وجده منتصبًا أمامه كالرمح متعثر الصوت:

- نعم يا عزيزي هل من خدمة؟. وهو ينهبه بنظراته مبهورًا بوسامة كمال وزرقة عينيه الأخاذتان. اقترب كمال منه، همس كالخائف من التصريح بكلمات غير مترابطة:

- أردت أن أسألك، أقصد، أحب أن، ماذا أريد ن أقول، أنت شاب وتعرف ماذا يطلب واحد مثلي قادم للتو من شرق تلبسه الطاعون لعقود، أفهمني أرجوك، لغتي التعبيرية تخونني في لحظات مثل هذه. ابتسم سامح بعفوية، فهم ما يرمي إليه ويلمح له كمال، قال كواثق من نفسه:

- تعال لوحدك عند الثامنة مساءً في المحطة عند نفس المكان الذي ألتقينا فيه قبل ساعتين، ثم أريك العجب. لم يجعله يكمل جملته، قاطعه قافزًا يعانق رقبته بوثبة واحدة كالهر الجائع. وهمهم ضاحكًا:

- سأكون عندك منذ السابعة لو أحببت، شكرًا لك، ستكون من أعز أصدقائي، لن أنسَ فضلك.

غادره سامح تاركًا كمال يقهقه ويضرب كفًا بكف كأنه يصفّق لنجاح صفقته عائدًا للشقة التي لم يكن يملك مفتاحها، ضغط على زر الجرس بشكل متواصل حتى فتح له آدم. دخل مترنمًا كالسكران يتعثر بخطواته مثل عاشق ولهان.

• • • •

أصرَّ بأن يستحوذ على الغرفة التي فيها شرفة، هو لم يبرر رغبته، أخذ حقائبه واتجه للغرفة التي اختارها دون أن يشعر بحاجة لسؤالهما وهو يصفر مقلدًا البلبل في شدوه، أنهر امتعضت من تصرفه، آدم حاول تهدأتها بقوله:

- لا تنزعجي منه، أنت تعرفينه أكثر مني، كمال طفلكم المدلل، ألم تخبريني عندما كنا في الحبانية بأنه لو جالس فتاة في مقهى وأرادت أن تدفع الحساب بدلاً عنه يجن، ماذا تتوقعين من ردود أفعاله، ثم خذي بالكِ، سيكون معنا في المرحلة القادمة من حياتنا خطوة بخطوة، علينا أن نهضمه ونتحمل تصرفاته....

قاطعته مستاءة كأن زوجها ذكّرها بما هو خافٍ عليها:

- لكنني لست أمه بدرية، عليه أن يعرف ذلك. ثم شعرت بأنها تمادت في قولها، همست وهي تضحك: كمال هذا تحفة كما قلت أنت عنه ووصفته في إحدى المرات، كم هو طيب كم هو طفل لا يريد أن يكبر، أضافت بهمة بعد برهة: ما علينا، هيا لنرتب أغراضنا، وقبل أن تبدأ عملها سرقت منه قبله خاطفة من شفتيه.

سألها بعد أن تحرر من عناقها:

- ماذا عن الدولارات الموجودة في حذائي وحزامي؟

- سنكسر قيدها، دعنا أولاً نفتح الحقائب ونرتب أشياءنا.

ثم سمعا كمال يرطن مدندنًا بوقفته في الشرفة بأغنية جديدة لكاظم الساهر "عبرت الشط على مودك خليتك على راسي. بكل غطة أحس بالموت كَوة أشهك أنفاسي" (•) ليتكم رأيتم أنهر ساعتها وهي تحاول أن تكون قاسية تحكم على أخيها، كان منظرها وهي تتحدث يوحي للرائي بأنها تطبطب على كتفه، تواسيه لا أن توبخه، هذه هي قسوتها التي تقدر عليها!، ملاك ينقصها جناحين.

(•) شرح مقطع الأغنية : عبرت النهر من أجلك ، وضعتك على رأسي ، في كل غطسة أشعر بالموت يداهمني بالكاد ألتقط أنفاسي

obeikan.com

(٤)

ما قيمة المواضيع النبيلة التي يتحدث عنها الكبار ونحن المساكين لا نفهم منها شيئًا لشدة تعقيدها وغموض فكرتها وبشاعة أسلوبها ؟، ستكون مع عظيم الأسف بعد سماعها أو قراءتها مثل الشيء المركون الذي لا قيمة له، كحجر الرصيف الزائد الخارج عن نظام الشارع يعثر فيه المارة دون أن يفقهوا سببًا معقولاً لوجوده !

بعد أن استقرَّت أغراضهم في خزائنها المخصصة، طلبت أنهر التي يقول عنها كل من تعرف عليها، لها روح أنصع من بياض النهار، وضمير لا يعرف التردي أو الانهيار لا يمكن له أن يخطئ، طلبت منهما أن يستعدان للنزول معها للبحث عن "سوبر ماركت " يتسوقون منه قبل كل شيء. وافقاها الرأي. ما أن استداروا في فرع يخرج من شارعهم حتى لقوه. أنهر بجانب زوجها تترنح بمشيتها المعتادة الملفته للنظر كأنها تريد أن تسقط.

استغربوا الأشياء المعروضة فيه، كل شيء موجود، النظافة تعبير ناطق يصرخ في الوجوه، الأسعار مرقمة وموضوعة بوضوح في أماكنها، لا أحد يستفسر أو يخاصم في السعر، تأخذ أغراضك وتتوجه للدفع دون أن تنبس بكلمة. المكان باردًا والأرضية تلمع كأنها غسلت للتو، الناس يبتسمون وهم يتسوقون، آدم تذكر لحظتها بغداد، همس في أذن أنهر:

- ما هذا؟

- ماذا؟

- جنائن بابل، كل شيء غاية في الترتيب والأناقة حتى اللحوم، معروضة بطريقة تفتح النفس، سبحان الله، عندنا كل شيء مغاير. ناهيك عن الهدوء والنظام كأننا في متحف أو كنسية.

- لا تبدأ بالمقارنة، ستتعب ثم تصاب بالدوار!.

- انظري يا أنهر هناك. الخضار، الفاكهة بأنواعها حتى في غير موسمها تجدينها، اللحوم الباردة، المياة المعدنية.

- هذا في المجر، يحسبونها شرق أوروبا وكأنها عالم ثالث للغرب، أضافت: ماذا عن ألمانيا إذن؟. اقترب كمال منهما وفي يده خبزًا طويلاً كالعصا مستغربًا منه:

- انظر يا صهري العزيز إلى هذا النوع من الخبز ما أجمله وما أروع طوله!، تدخلت أخته:

- أنه خبز فرنسي معروف. خذ قطعة أخرى وسألته: هل رأيت الأجبان؟ وأردفت: لابد من الحصول عليها بالإضافة إلى البيض والزبد والحليب.

كانت رحلتهم غاية في التوفيق، خبرتهم مازالت طفلة تحبو، هم لم يعرفوا كيف ينقلون أغراضهم الكثيرة، استبعدوا شراء أكياس خاصة لنقلها، اقترح كمال عليهما بأن ينقلوها بعربة التسوق حتى الشقة ثم يعود بها ويرجعها إلى مكانها.

أنهر خجلت، أحمرت ولم توافقه الرأي. آدم تردد، قال كطفل يخاف من ظلمة الليل:

- أنا لا أجازف!.

نبر كمال معتدًا بنفسه كعادته:

- قلت لكما، أنا من سيرجعها، هيا. ثم سرح بها كبائع متجول يدفعها أمامه مترنمًا بفعله طائرًا من الفرح، قلبه يصفق وعقله يعد الساعات للقاء سامح كي يحصل على مبتغاه. وفي الطريق أخبرهما أن لا يحسبان حسابه على العشاء. استغربت أخته قوله، سألته مستفهمة:

- ماذا تعني؟

باسم الثغر، بارق العينين:

- عندي موعد مع سامح مساءً. لا تقلقا عليّ، ودّعت الطفولة منذ زمان، وأضاف متعثرًا بقوله: لأكون صادقًا، كبرت عندما غادرت أمك بدرية. أشعر اليوم بالتحرر والانعتاق وأنا بعيدًا عن مرمى نظراتها ولسانها.

- عيب. لا تقل مثل هذا الكلام عن أمك. أنت تعرف أكثر مني ما كانت تفعله من أجلك.

عاقفًا ذراعيه خلف ظهره يهتزان كذيل بقرة ترعى:

- لا داعي لتذكيري. لم أنس، لكن ما قلته هي الحقيقة، كانت تعاملني كطفل، بل كرضيع لم تنبت له أسنان. زهقت روحي من تصرفاتها، أريد أن أثبت رجولتي منذ اليوم وسترين ما سأفعله.

- لكن علينا أولاً أن نتصل بأخينا كريم ونبلغه بوصولنا، ثم نعطيه عنواننا.

- سنفعل ذلك قبل ذهابي. لا تقلقي مثل قلق أمك يا أنهر. مضى نهارهم الأول بين الطبخ والمناقرة حتى أذنت ساعة الرحيل. غادرهما كمال بعد أن طبع على خديهما قُبل كثيرة، أخذهما في حضنه معانقًا بنشوة عارمة كأنه سيسافر لمكان بعيد طالما تاق السفر إليه!.

• • • •

من أجل معرفة مقدار حرقة وشراهة وتوق كمال لممارسة الجنس الذي يراه حسب ظنه وتقديره للأمور مباحًا على الأراضي الأوربية في كل مكان كما يشرب المرء الماء وهو يسير في الشوارع لابد من الوقوف عند لقائه بسامح كما اتفقا.

وجده واقفًا مع بعض الرجال العرب كالعادة يتناطحون بالكلام. اقترب منهم محييًا، عرفه سامح مباشرةً، خرج من دائرتهم مودعًا. سأله وابتسامة متواضعة ارتسمت على شفتيه وخديه بعد أن خرجا من المحطة يسيران على رصيف عريض مليء بالمشاة وأدناه شارع ضاج مزدحم بسيارات الأجرة وحافلات النقل الكبيرة:

- من الواضح أنك لم تسافر من قبل إلى أوروبا؟

تلفت كمال بريبة، بصوت خفيض طفق:

- نعم، إنها المرة الأولى وربما الأخيرة. لأنني لا أنوي العودة.

- كما فعلت أنا قبل عشرين عامًا تمامًا، أجابه سامح وتابع: لكنني عدت، حنثت بوعدي الذي قطعته على نفسي. إنها القاهرة يا رجل، ستبقى في القلب والذاكرة. ثم قلّب عينيه الجميلتين الوادعتين المسالمتين بكمال سائلاً: ماذا تعرف عن حياة الأوربيين؟

- لا شيء، ثم ندم على تسرعه، انكمش على نفسه، اغتصب ابتسامة على وجهه، نبر: بالتأكيد هم مثلنا كباقي البشر، بماذا يختلفون عنا؟

- أشياء كثيرة يا عزيزي، استطرد بحماس حقيقي: يقال، أجعل القلم يتكلم إذا كنت كاتبًا، هم يحيون حياتهم كما يريدون، يقولون ما يشاءون، يعبرون عما تختلج به قلوبهم دون رهبة أو خوف، ثم تراهم نادرًا ما يفكرون بغيرهم حتى أقرب الناس إليهم، لقد صادفت مرة أحدهم يريد بيع داره وأثناء حديثه عرفت بأن له ابنه في العشرين. سألته دون قصد، لماذا لا تعطي الدار لأبنتك؟ انهار، امتعض، انفعل، تغير لونه فجأة، زمجر محتجًا وصاح، ماذا؟ أعطي داري لابنتي! وماذا تفعل هي؟ تنام مع صديقها فقط!، وظل يصرخ كالمعتوه. اعتذرت منه، قلت مواسيًا، لم أكن أقصد هذا. أعذر لي غبائي، سامحني لجهلي وانتهى الموضوع بطردي في أدب مفتعل، ناح، لا دار أملك، اذهب بعيدًا عني، ليس لدي ما أبيعه. تصور ؟! هم لا يحبون العيش تحت الضغط، يكرهون كثيرًا التفكير في المستقبل، يعيشون لحظاتهم بكل ما يملكون من طاقة، لا يفكرون في التوفير مثلنا أو يدخرون لأبنائهم، هم كما قلت يحبون أنفسهم أكثر، يقتنون السيارة قبل الدار، يسافرون كثيرًا، لا يطهون في بيوتهم إلا ما ندر وشذ، يحترمون الوقت، يقدرون قيمته البالغة في صنع حياتهم، يقرأون كثيرًا وفي كل مكان، ليس لديهم وقت فراغ، لا يحبون السطحية مثلنا، مؤمنون ويعرفون الله، مثلي ومثلك وربما أكثر. قاطعه كمال معتذرًا:

- باه. حبًا بالله، ما هذا أرجوك، لم أعد أستطيع متابعتك، لقد أثرت فضولي، هوسي وجنوني، فحياتهم ومن الظاهر ليست على ما يرام، مريضة أقصد. ليس كما توقعت.

مستغربًا:

- وما هو الشيء غير الطبيعي الذي قلته عنهم؟!

- حديثك عن الوقت والعمل والكتاب... يا رجل جعلت الواحد منهم آله وليس بشرًا، ثم حاول أن يغير من اتجاه الحديث فسأله بوجل ولمحة من الخجل:

- أين تقيم، أعني مع منْ؟ في هذه الأثناء رحب بهما المساء، لم تكن العتمة داكنة، أعمدة النور مزروعة على جانبي الشارع الرئيسي الذي يربط المحطة بمركز المدينة كانت واقفة كأشجار باسقة، النجوم تغمز منْ تحتها لامعة، ضاحكة، الناس في سباق مع الزمن، الكل يجري كأن نارًا تلاحقهم، الهواء منعش، المحال التجارية مازالت لم تغلق أبوابها بعد، والعربات الصفراء التي تسيّرها أسلاك كهربائية

تمسكها من سطحها يشاهدها كمال لأول مرة في حياته بانبهار صاعق، جن إعجابًا بها، تسير على سكة في منتصف الشارع العريض لا أحد يزاحمها أو ينافسها في طريقها أو خط سيرها، أجابه سامح على سؤاله بإسهاب وإطناب:

- اسمع، أنا موسيقي، أحرك أوتار العود بشكل أقول عنه جميل، لا أمدح نفسي، بل أردت أن أوضح لك بأن الفنان منا لابد من أن يتمتع بشيء من الأنا، قليل من النرجسية، حب لذاته بشرط ألا تكون هذه الصفات طاغية أو مرضية، وإلا كما يقال عندكم في العراق "ضاع الخيط والعصفور"، المبدع وإبداعه، هذه الصفات اليسيرة التي نوهت عنها هي التي تعطي للفنان صفة تميزه، تجعله يختلف عن غيره، يشعر بأنه متفرد فيما يفعله وينتجه، علّمت نفسي العزف، درست الموسيقى دون أن أدخل أكاديمية الفنون، صنعت آلتي بيدي، كنت لا أملك المال لشرائها، أهلي كانوا أفقر مني، أبي توفي وأنا مازلت في الخامسة، أمي عاشت من أجل أن نعيش نحن، كنا تسعة أفراد أكبرهم في الخامسة عشر، الدولة غارقة، مكبلة بالديون والفقر عندنا الصفة العامة المتميزة. هاجرت وأنا في التاسعة عشر، وكما تراني اليوم كهلاً في التاسعة والثلاثين، لم أعد أنفع لشيء، قال ذلك وهو يبتسم بسحر طاغ لا يوصف، ثم تابع مسترسلاً: لم تكن المجر وجهتي، أردت الوصول إلى النمسا، لم يحالفني الحظ، شكرت الله لأنني بقيت هنا، أعيش كما قلت منذ حوالي عشرين عامًا مع فتاة صاحبتها في السنة الأولى من إقامتي هنا، حصلت على الجنسية بعد تسعة أعوام ونصف، لديها بيت ريفي جميل نسكن فيه معًا، مازلنا لم نتزوج، لكننا نعيش بشكل طبيعي كزوج وزوجة، هي تعمل محاسبة في إحدى المحال التجارية، لا يبعد كثيرًا عن مركز المدينة، وأنا كما ترى، أعمل في كل شيء، التهريب، تصريف العمله، تأجير الشقق، الترجمة والذهاب معك لاصطياد الوز!. قال ذلك وهو يغمزه.

اهتزت مشاعر كمال لدى سماعه كلمة تهريب، خزنها في ذاكرته، سر ذاته، سينفعنا في رحلتنا القادمة، سامح هذا هبط علينا من السماء، تحفة، سأخبر أختي أنهر وزوجها بذلك، ثم عاد إلى طبعه، تاق إلى هوسه يتابع حديث زميل رحلته بشغف منقطع النظير. سامح توقف عن الكلام للحظة ثم استأنف سائلاً كصدفة تشبه العمد:

- حبا بالله أخبرني بصدق، لماذا أنتم هنا؟ هل من أجل السياحة أم لغرض آخر؟

- ناشدتك الله، اترك هذا السؤال إلى حين، ليس الآن، سيأتي دوره. حسنًا يا صديقي أجابه سامح مغيرًا مسار الحديث فأردف وهو يحملق بعينيه الزرقاوين الجميلتين بنغمة عرف بحدسه بأنها ستسر كمال جدًا ويرقص لها طربًا:

- أعدك بأنني سأعرفك على فتاة لا تصمد أمامها سوى لحظة واحدة ثم تركع تحت قدميها تطلب وصالها. ها ما رأيك؟. استمع له كمال بكل حواسه، هتف مفتونًا دون وعي كشخص لا يأمل منه أي خير بعد أن توسعت عينيه ساطعتين بشهوة مسعورة ومن يراه لحظتها لا يشعر بالطمأنينة حياله:

- فتاة!، أركع لها وكأني أصلي!، ثم شرع صائحًا بخبل: سوف لن أتركك، بل من هذا الحمار الذي يفكر بتركك؟ أنا لا أعرف هنا أي شخص، لا أجيد أي لغة أجنبية، بالتأكيد سأحتاجك، يا رجل، لقد بعثك الله لي هبة من السماء.

ضحكا ببراءة وهما يستمتعان بالحديث كيفما كان واتفق. كمال يحترق وهو يحلم بالفتاة ويشتهيها بشبق محموم صارخ. وما أن وطأت قدمي كمال مركز المدينة حتى انبهر، فغر فاه كالمسحور وهو يرى العجب. صاح بصديق رحلته وهو يبلع ريقه بصعوبة، عيناه زائغتان ترفضان التصديق:

- ما هذا الذي أراه أمامي؟ إنه ولا في أغلى وأروع أحلام الشبق التي حلمت فيها!. انظر إليهم. هناك يا رجل. ألا ترى؟ الفتيات في أحضان الشباب، يقبِّلون بعضهم البعض كأنهم عائدين من سفر طويل!، انظر. تمتع، إنهم لا يكتفون بالتقبيل والمص والعض، بل تذهب أياديهم إلى أي نقطة يريدونها، ثم هتف ناسيًا نفسه: الله وأكبر. ما أروع هذه المناظر وما أحلاها.

- هون عليك يا صديقي، أنت لم تر شيئًا بعد، إنها مجرد مقبلات قبل الأكل!

غمغم كمال نائحًا بشوق وتوق والزبد يخرج من فمه:

- أنك تعذبني بهذه المناظر، اتق الله يا سامح، ماذا تنوي فعله؟ كل هذا وتقول مقبلات؟! ثم استدرك بعد وقفة ألتقط فيها أنفاسه الضائعة:

إذن، ماذا سيكون الأكل والحال هكذا؟ أضاف غافرًا: عفا الله عما سلف!.

ببرود جابهه:

- قلت لك اضبط أعصابك، حكم عقلك، لا تفضحنا، لم تمض على أقامتك هنا سوى بضع دقائق، أرجوك. اصبر، فالصبر شيمة العربي!، ثم تابع على ذات الوتيرة المهدئة: سأجعلك موفقًا، سعيدًا مع تلك الفتاة، ستفرج أمورك كلها بإذن الله.

متعتعًا كشاعر كافر:

- نعم أعدك، سأهدأ، بل سأقتل رغبتي وأكبحها ما استطعت إلى ذلك سبيلا. ظل يردد وقلبه يتلجلج حرقة: أقرع وبلا رموش. يا إلهي ثبت لي عقلي واجعلني من الفائزين!.

- ماذا تقول؟!

- لا شيء يا صديقي، لنمضي، ولكن.

- لا تقل شيئًا، امش وأنت ساكت، انظر بلا كلام، عقب بصمت، تفرس في الوجوه فقط، افعل ما يحلو لك كالآخرين، لكن لا تأت بحركة ولا تبعث صوتًا.

بحزن كمن يخفي الحقيقة تحت لسانه من بين أسنانه:

- سيكون لك ما تريد، ادع لي بالسلامة، أضاف: يا لطيف، ثم سأله: أنا جائع يا سامح.

- أعرف مطعم يقدم الأكلات العربية، سنذهب إليه حالاً، هناك أعرّفك على فتاتك.

قال له ذلك بعد أن أنهيا سيرهما في شارع المشاة العريض من مركز المدينة التي تجلس على أرصفته أجمل حانات ومقاهي العاصمة المحاذي لنهر الدانوب الجميل الذي يروي بلدان أوربية عدة. انحرفا في فرع صغير ضئيل النور قليل الرواد ضعيف الحركة.

قأقأ كمال كما الدجاجة بمرح عظيم منقطع النظير كأن الليلة ليلة زفافه:

- يا للروعة، طعام وفتاة!، ليذهب إذن تاريخ مجنون هارون الرشيد إلى الجحيم. لقد كنت أغار منه في بعض الأحيان لِما سمعت عن حياة الفساد التي كان يعيشها، سحقًا له، إلى الشيطان، ابن القملة ذاك، هارون الرشيد قال. تبًا له ولحياة الشاذ السلطان عبد الحميد. ثم هاتفًا: وغدان لا أكثر.

صاح به ناصحًا بتأنيب:

- تذكر وعدك لي، ستبقى هادئًا ومطيعًا، ستحصل على كل شيء كطفل في أول أيام العيد. كل شيء، وهو يزره متلذذًا بغمزه ماكرة.

استقلا قطار المترو، جلسا جنبًا إلى جنب، همس كمال بإذن زميل رحلته وهو يهتز باهتزاز القطار من جراء حركته الانسيابية كحية طويلة سريعة الجري:

- انظر إليهم. لا تستطيع أن تفرق رؤوسهم من كتبهم، سبحان الله، الكل يقرأ، ثم مبهوتًا: يا لهم من شعب غريب، إما أن يقرأوا أو يقبِّلوا وأياديهم اللعينة كالثعابين الحرة السائبة الطليقة تعبث كما تريد وتشتهي في كل صوب وناحية من أجسادهم وهم غارقون في التقبيل. المصيبة، أنهم لا يخجلون!، بل لا ينظر إليهم أحد، ينهرهم أو يحاسبهم!.

بحكمة تعلمها واعتاد عليها بسنواته العشرين التي عاشها مغتربًا في المجر:

- هكذا هي الشعوب المتحضرة، يعملون، يقرأون، يفكرون ويحبون. هذي هي الحياة في عرفهم، الموت في ناموسهم عندما تمضي أيامهم لأنها يجب أن تمضي، أقصد بلا هدف أو إبداع، فذاك هو الموت الحقيقي في حياة شريعتهم؛ الفرد منهم يعيش دون خجل كما قلت تمامًا، السبب يعود إلى أنهم لا يرون أن ما يفعلونه عيبًا، بل يرونه أمرا طبيعيا جدًا، ومن ينظر إليهم بفضول هو الشخص المريض وليسوا هم.

- صدقت يا صاحبي، في العراق حياتنا تختلف كثيرًا، نضحك على الشخص الذي يحمل كتابًا وهو يمشي، نقول عنه معقد، لا يفهم الجك من البك (•) يكون منبوذًا لا أصدقاء له كأنه يعاني من مرض معدٍ والعياذ بالله فكيف والحال هكذا لو قبّل فتاة وحضنها ومد يده إلى ما لا أعلم إلى أين أمام الخلق جهرا؟! ستقوم القيامة ساعتها.

- هذا عندكم في العراق، بل قل في الشرق بطوله وعرضه، لكننا هنا في بودابست عاصمة المجر العظيمة الأمر يختلف لو تقدمت أكثر نحو البلدان الأكثر حرية

(•) الجك من البك : يقال عن الشخص الغبي الذي لم يستطع تميز الطباشير من الكتاب معتقدًا صحة قوله باللغة الإنجليزية " Book-Chalk"

واستقرارًا، انفتاحًا واحترًام لحقوق الإنسان، لجننت إن لم تتفهم حياتهم وكيف يعيشون... تابع بشغف مقصود كأنه ينوي إغاظته:

هؤلاء الذين تراهم يقرأون، أما أن يكونوا ذاهبين أو عائدين من عملهم، يرفضون الفراغ، يملؤنه بما هو مفيد، وإلا كيف تأتي الخبرة وتبني الثقافة؟!

- الثقافة!.

- نعم، الثقافة، المعرفة، التطلع نحو الأفضل. كلها أمور يجب أن يفكر فيها المرء وهو مازال على قيد الحياة، ثم باغته بالسؤال: ترى ما الفرق بيننا وبين الحيوان إذا لم نفعل ذلك؟، إنهم على صواب يا عزيزي، تَعلّمْ كيف تكون مثلهم، إذا نجحت ستكون أمك بالتأكيد هي التي دعت لك وطلبت من الله أن تكون لك هذه النتيجة. الفوز العظيم، الحياة بأسرها!.

- كلامك غريب يا سامح ككلام أختي أنهر.

مستدرجًا:

- وهل أختك تتحدث معك بمثل هذا الكلام؟

- هه. طبعًا، أعني، دائمًا، في كل فرصة حتى تطلع روحي، وغالبًا ما أتملص من لقاءها بأعذار واهية هي تدركها غير حقيقية كما أفعل ذلك مع زوجها الذي رأيته قبل ساعة، آدم هذا مجنون كتب، يقرضها كالفأر، لا شغل له غير التهامها، يقولون عنه حكيم أسرته، لا أخفيك سرًا، هو كذلك، ملعون، يعرف كيف يسفط(•) الكلام، يصففه ويلقيه، يؤثر على محدثه، يسيطر عليه كالساحر. وعى على نفسه، قال، ما لنا ولهما، دعنا في حالنا، متى نصل؟ أشعر بالجوع يقرص معدتي.

مناورًا بلؤم:

- جوع البطن فقط؟

- تفحصه كمال بنظره مستطلعة ولم ينبس.

وهو يضحك آمره بصيغة مشفقة:

(•) يسفط : يوُجد الكلام ويخترعه

- علينا مغادرة القطار في المحطة القادمة.

في المطعم قدَّمت الفتاة لهما قائمة أصناف الطعام وهي تتمايل في مشيتها كالموجه. اقتربت من سامح، اسقطت في أذنه كلمات باللغة العربية التي تجيدها جيدًا:

- منْ هذا الذي معك؟ تابعت بدلال: من الواضح أنه حديث العهد في أوروبا. أليس كذلك؟

كان المطعم مزروعًا في حي هادئ بين حفنة من البيوت القديمة الريفية مزدوجًا إن صحَّ التعبير، داخله يعطي انطباعًا على أنه مطعم أوربي صرف، الكراسي، الطاولات، اللوحات المعلقة على الحائط، الموسيقى الهادئة، والشموع الجالسة بشموخ وإجلال على سطوح الطاولات متراقصة اللهب كشموع الكنائس. كلها تقول بأن زبائن المطعم من الصنف الأوربي، لكن ما تخرج إلى حديقته حتى ترى العجب، العكس تمامًا، الضوضاء، الطاولات القديمة المتهالكة، الإنارة المزعجة المتحرشة، الرجال العرب القح ونارجيلاتهم الواقفة بجانب أقدامهم كغلمان يلبون طلباتهم وقرقراتها الصارخة المتشنجة التي تقلق الأعصاب، كلها توحي بأن المطعم لابد ومصاب بانفصام في شخصيته، فهو بين التحضر والبربرية يعيش ويفتح أبوابه.

أجابها سامح بصوت خفيض:

- نعم، ولكن كيف عرفتِ؟

ردت عليه بضحكة اهتز قلب كمال لها. اتجهت إليه تسأله عما يحب أن يأكل.

خاطب كمال سره وهو يأكلها بنظراته:

- غفر الله لها، عاهرة لا ترمز إلا للشيطان، ثم أشار إلى صديقه كمن يستنجد: أحب أن أضاجع هذه البطة!

- اصبر.

- لم أعد أحتمل، ثم أردف: أنا لست بأيوب حتى تطلب مني هذا التأني، المثل يقول " آمن بالحجر تبرأ " آه. يا سامح يا عزيزي، لو كنت تعرف ما في أعماقي من آهات مكبوتة، من نداءات مشحونة. لو عرفت نصفها فقط، لغفرت لي وربما بكيت بدل الدموع دمًا، ثم باغته بسؤال غير متوقع:

- هل رأيتها كيف تمشي؟ إنها تتغربل كالرمل والحصى في غربال، ملفوفة باللحم، صاح بغباء متناسيًا نفسه: يا رجل، قلت لك. أريد مضاجعة هذه البطة، أريد أن أروي جوعها، أن أشبعها، بل أكاد أجزم بأن هذه البطة الملفوفة باللحم لن ترتوي أبدًا. مد لسانه، لحس شفتيه وما علق فيهما من لعاب، أرجعه إلى داخل فمه، صوب نظره داخل قبو المطعم بحثًا عنها.

جاءت بأطباق الأكل... بدأ سامح يأكل في حين سمَّر كمال عينيه المحمومتين، الملتهبتين عليها. تصور نفسه عاريًا، مستلقيًا على السرير كالملك وهو ينظر إلى جاريته ترمي قطع ثيابها الواحدة بعد الأخرى من على جسدها وهي تترنح، تترجرج وتتموج كقربة اللبن في مشيتها الخالعة حتى تصل إليه وهي عارية كما ولدتها أمها. تصور كل ذلك وهو يحرقها بنظراته القاسية، الجائعة المشتعلة كالبارود.

شعرت الفتاة بتلك النظرات، وربما أحست بحرقتها، أشارت لصديقه الذي مازال منشغلاً بالأكل:

- ماذا عن صديقك هذا؟!

- ماذا به؟

- له نظرات قاصفة، حارقة كأنها خارجة من فرن.

- لا تقلقي، هذا شأن كمال دائمًا، خاصة عندما يرى فتاة بجمالك. سرعان ما يفور دمه ويكاد ينفجر مرجله.

- لكنه لا يأكل مكتفيًا بالتحديق والنظر، أردفت برزانة: انظر إليه أنه لا يسمعنا كالمسحور.

- لقد سُحر بجمالك كما قلت، هذه نوبة وتعدي، لا تخافي، ومن ثم هو يتمنى أن يأكل منك، قبل أن يأكل من طبقك!

- ولماذا لا يفصح؟

- لأنه لا يجرؤ.

انتبه كمال على نفسه، تأتأ:

- ماذا قالت هذه البطة؟

مبتسمًا:

- تريدك أن تفصح بنفسك، عما يخالج قلبك. هيا قل لها بفصيح العبارة، إنك تريد أن تضاجعها، أن تأكل لحمها الطري الأبيض كما قلت لي بالضبط. هي تنتظر منك هذا القول الصريح، هيا. قل لها هذا يا بطل، ماذا تنتظر؟ لقد فلقتنا بكلماتك العنترية منذ لحظات، هي أمامك وأنت ساكن، صامت، نائم كالحجر.

رفع كمال رأسه نحوها، سألها بعدم احترام كرجل ما قبل التاريخ:

- كم تطلبين؟

دوت صفعة على خده، أحمر وجهه وأزرق، زاعقًا، زعيقه كان كفيلاً بإيقاظ ميت من قبره :

- ماذا؟ تصفعينني وأنا الرجل؟!

- أكرر الصفعة إن كررت قولك. قالت الفتاة ذلك بكبرياء صادق لم يتوقعه كمال ولم يحسب حسابه وغادرتهما. في حين استمر سامح بتناول طعامه كأن شيئًا لم يكن، بهوس مثل شخص فاقد لرشده صاح به كمال:

- ماذا عنك يا سامح؟ يا لك من رجل بارد، لم أتوقع أن يكون رد فعلك هذا.

- وماذا تريدني أن أفعل؟ أسأت إليها وهي أخذت حقها منك دون تأخير. أقول لها "برافو" أحسنتِ صنعًا، أدّبتِ رجلاً شرقيًا طازجًا لم يعرف بعد كيف يتعامل مع المرأة بشكل حضاري راقي، هذا هو ردي يا عزيزي، والآن دعني أكمل عشائي بهدوء، أرجوك.

- وماذا عن النقود؟ ما الذي أثارها؟ أنا لم أنو شتمها أو الإساءة إليها كما تدعي أنت. أبدًا لم يكن هذا في بالي مطلقًا.

توقف سامح عن الأكل، بسط ذراعيه على الطاولة، قال:

- عزيزي كمال، عندما ترغب الفتاة هنا بمضاجعة من تريد أو من تحب لا يكون في حسابها بأن هذا بغاء، لن تتقبل ذلك. أنت قلتها في وجهها، أهنتها، جرحت كرامتها، هي لم تنو البغاء ولا تقوم به بقدر تحقيق رغبتها، أن تصل إلى لذتها التي تراها من حقها. هكذا تفسر الأمور هنا، فهي بالتالي ليست غانية كما توهم لك، تمامًا كما تأكل الطعام عندما تشتهي وتجوع، تشرب الماء عندما تعطش وفي نفس

الوقت هم ليسوا قططا، أقصد، لا يضاجعون في حياتهم كل من هبَّ ودب، بل هناك أحاسيس ومشاعر قوية صادقة في كثير من الأحيان هي التي تدفعهم لفعل ذلك. هل فهمت الآن يا صاحبي؟!

كطفل اقترف ذنبًا:

- وماذا علي أن أفعل الآن؟

- أن تعتذر منها وبصدق لا أكثر. المرء هنا متسامح كثيرًا، ينسى بسرعة، لأنهم مشغولون بهموم أكبر من هذه الأشياء أو تلك التي تدور في بالنا نحن الشرقيين.

غادرا المطعم مسرورين بعد أن شبعا وبإنجازهما الذي انتهى بموعد لكمال معها بعد أن سامحته الفتاة عن طيب خاطر ووافقت بأن يقبلها بصدق، نست ما حصل، وعدته بأن تزوره في شقته غدًا عند الظهيرة.

• • • •

قلقت أنهر على أخيها ما أن تجاوزت الساعة الحادية عشر ليلاً، انبت زوجها لأنه لم يعترض على خروج كمال أو يحدد له وقت رجوعه، ظلت تلوب، تنظر من شرفة الشقة نحو الطريق والحديقة المترامية الأطراف التي ظهرت في عتمة الليل كغابة مسكونة بالأشباح، طلب منها آدم أن تدخل الشقة، قال:

- الجو بارد في الخارج، لا تقلقي عليه، من مثله لو أولاد اليوم، بماذا سيفيدك وقوفك هكذا؟ لو وصل سيدخل، سحبها برفق، حاول أن يلطّف الأجواء التي شعر بغربتها منذ يومها الأول قاسية عليه، تنحنح مضيفًا: هل أحكِ لكِ حكاية مضحكة؟

- حكاية مضحكة؟ في هذا الوقت وأنا متوترة!

مستدرجًا:

- هذا وقتها؟

- أي حكاية تقصد؟

- عندما كنت في السابعة!. وما أن سمعت قوله الأخير حتى تفجرت عاطفة حب بداخلها تنوي سماع حكايته، أنهر ترغب دائمًا أن تعرف عن آدم حبيبها كل شيء خاصة طفولته، لطالما ترجته أن يحكي لها حكاياته التي صادفته، متوسلة:

- إذن قصّ عليَّ حكايتك، دعنا نستلهم منها العِبر!

بشكل مسرحي شرع:

- تستهزأين؟ لن أتحدث.

أصبحت قريبه منه في هذه اللحظة، لثمت شفتيه، ببحة هدلت:

- أمزح معك. هه. هيا ماذا تنتظر ؟ أحكِ لي، ماذا حدث لك وأنت في السابعة، حكاياتك كلها تصلح لتكون قصص قصيرة.

- حسنًا، اسمعي إذن:

كان خالي داخل رحمه الله عندما يزورنا في ذلك الزمان الفقير يغني لنا بعد الجرعة الأولى من زجاجة العرق التي لا تفارقه كنبضه يخبئها في عبه، يخرجها يكرع منها ويبدأ بالغناء حتى يصيبنا السكر نشوة جميعًا من عذوبة وحنية صوته، كان غناءً ريفيًا جميلاً، يشدوه بطريقة تبكي، يتوافدون الجيران ويجتمعون عندنا في تلك المساءات التي يحضر فيها زائرًا يودون سماعه بجلستهم في حوش البيت ذو السياج الواطئ الذي من فوقه يمكنكِ رؤية ومحادثة من تريدين من الجيران كأنهم معك في البيت لانخفاضه، وفي إحدى المرات غنى لنا أغنية جعلتنا نغدق في البكاء ونغرق في دموعنا لوعة وحرقة، كلمات الأغنية كانت مؤثرة، أنا لم أفهمها جيدًا ومع ذلك بكيت على بكائهم، كما قلت لكِ، كنت أناطح سنتي السابعة لم أكملها، حفظت من الأغنية مقطع تعلق في ذهني كما يتعلق العنكبوت بخيوط بيته، أحببت الكلمات التي وردت في الأغنية، شعرت بأنها حزينة تنزف وجد كافر لا يتحمله الإنسان العاقل، لا تسأليني لماذا، أنا نفسي لا أعرف، غير متأكد من مشاعري اتجاهها. كانت أنهر تستمع له مبهورة، مسحورة فاغره فاهها وهي تركز على حديثه بكل حواسها، تابع مسترسلاً:

في الحصة الأولى بمادة القراءة كنت وقتها في الصف الثاني الابتدائي طلب منا فجأة المعلم من له موهبة الغناء أو القدرة على الغناء ليأتي أمام الطلاب يشدو أغنيته. من هذا الذي يجرؤ في مثل هذا السن على مجازفة كهذه ؟، لا أحد. لم يتحرك أي طالب، أصيبوا بالخرس، تجمدوا في أماكنهم إلا أنا، انتبهي جيدًا إلى ما سأقوله، رفعت سبابتي بدافع أجهله، قلت متشجعًا بلعنة، أنا يا أستاذ أستطيع أن أغني!. ولكِ أن تتصوري منظري وأنا في ذلك العمر كفرخ البط المبلل بملابسي

العتيقة التي لا تسر وهيئتي البائسة التي تجلب العدوى لغيري أرفع إصبعي طالبًا الغناء. ما علينا، المهم، وقفت، أعطيت ظهري للسبورة (•)، تنحنت، وقبل أن أبدأ بالترنيم داهمني المعلم سائلاً:

- ماذا ستغني؟

برعشة مستوحاة من صدر عفريت:

- أغنية ريفية سمعتها البارحة من خالي وهو يغنيها.

ابن الناس لم يكتفِ بسؤال واحد، بادرني كالسهم بثانٍ:

- ما اسمها ؟

تحيرت في الرد، لجم لساني، كيف أشرح له؟ ماذا أقول؟ خالي لم يحدثنا عن اسم الأغنية. هو غنى هكذا دون مقدمات، ماذا عساي أن أقول له، بدأ خالي بجرع العرق وكرعه ثم غنى؟، سهمت، تأملت، حلمت بالمعجزة لحظتها، انتظرتها، ترى من سيخلصني من ورطتي هذه التي وضعت نفسي فيها؟ الطلاب ينظرون والمعلم رجل طريف، سمح، مشرق الوجه كمنديل أبيض، جميل الكلام على درب الله كما يقولون، عرفناه ينقط أدبًا، برًا وإحسانا، عاقل وعلى خلق، لكني لاحظته بدقة، كان لا يخلو من مكر أو خبث، أعني ليس كاملاً كما حاولت أن أصفه ينتظر هو الآخر ردي، كنت في وضع لا أملك أن أصفه، لو كنتِ موجودة معي لحظتها لعرفتي ماذا أعني أو ما كنت أعانيه. لحظتها شعرت بأنني طفل أخرق لا يقدر عواقب الأمور. ساءت حالتي بشكل فظيع وسريع، قلبي أصبح يدق في معدتي كالطبل بعنف، أسمع ضرباته وارتبك أكثر، يا إلهي قلت محدثًا نفسي لبرهة لم أعرف كم طالت كشخص يهرف وأنا أعض إصبعي أسيفًا: أي شيطان هذا الذي وزّني وورطني؟ خانتني حكمتي، تخلت عني، كنت في تلك الثواني البطيئة الثقيلة في أمس الحاجة لها، هكذا هو الإنسان منذ الأزل، يفقد طاقته، حيويته، نشاطه، وتشل حركته ويتوقف عقله عن التفكير عندما يجابهة الأشياء وجهًا لوجه. هذا ما حصل معي بالضبط وقتها، أي ساعة نحس كانت؟. الخلاصة، افقت من نومي بوجل مستخلصًا متوغلاً بالكلام:

(•) السبورة : اللوحة الخشبية التي يكتب عليها المعلم ملاحظاته للتلاميذ

- لا أعرف يا أستاذ ما اسمها، ثم أضفت بانكسار شعرت وقتها بأني سأموت في مكاني. انقذتني كلماته التي جاءت بالفرج على غير ما توقعت، كنت أتصور بأنه سيعيط ويشيط ويزيط، لكنه نبر برنة دلت على حبه الخالص للفن وربما لي بعد أن رقّت عواطفه:

- لا عليك، غن لنا ما حفظته منه. هيا، أبدأ. رفعت يدي اليسرى على أذني القريبه منها كمؤذن وكما يفعل خالي عندما يهم بالغناء دون أن أعرف سببًا لذلك. شدوت بصوت ليس له ملامح، هادرًا بنبرة مرتجفة تصنعتها مقلدًا خالي داخل تمامًا:

" راح المفره كَليبي وينسه، أجاني الما عرف طبعه وينسه، أتم أقره الدهر بأذنه وينسه، يتردد والطبائع ذيجية "(•). ثم سحبت ونه طال أمدها كي أكسب من وراءها ود المستمعين. وإذا بموجة من التصفيق لم أتوقعها، ضج الصف بالهمهمات تبعتها من التشجيع آيات من قبل الأطفال الزملاء كيفما أتفق بعد أن نسوا أنفسهم بحضرة المعلم الملهم صاحب الفكرة العبقرية. كان يومًا لا ينسى كذكرى إحدى المعارك العظيمة التاريخية.

ضحكت أنهر من كل قلبها، رفعت يد آدم وقبلتها دون وعي، نست نفسها، قالت:

- "خوش" فعلت كل هذا وأنت في السابعة؟.

انتعش بترنيمات زوجته وهو يرمقها بنظرة حب مختلسة. عدّت ليلتهم الأولى في بودابست على خير. وصل كمال في الحادية عشر والنصف مترنمًا، يترنح في مشيته كالسكران منتشيا، خافق الفؤاد كولهان عاشق. دخل غرفته، بحث عن شيء ما، لفه تحت أبطه، ذهب إلى الحمام، ثم سمعت أنهر صوت الماء يجري. عرفت بأن أخيها تحت الدش يغسل. عندها فقط أرتاحت، هجعت توجساتها، وضعت رأسها على صدر زوجها وغفت كما تفعل كل ليلة.

• • • •

(•) تفسير مقطع الأغنية : رحل الذي كان يفرح قلبي ، أتاني من لا يعرف طبعي ، أرشده الوقت كله دون فائدة تذكر وطبائعه على حالها لم تتغير

الضجة التي أحدثتها مكالمتهم لكريم المقيم في ألمانيا صاخبة تستدعي إحضار الشرطة. كانوا الثلاثة في الشارع يتكلمون في آنٍ واحد من كابينة غير بعيدة عن محل سكناهم. دخلوا فيها محشورين بالكاد يلتقطون أنفاسهم. فقبل أن يلبي كمال نداء شهوته والذهاب لسامح اتصلت أنهر بأخيها ثم تجمعوا حول سماعة الهاتف كنحل على خليتها لا يسمع منهم غير طنينهم والدموع كانت قد طفرت من أحداقهم قبل سماع صوته معبرين عن شوقهم وحرقتهم وشغفهم في لقاء كريم بأسرع ما يمكن. ثم هدأت العاصفة بعد أن عاط بهم الأخير أن يلتزموا الهدوء كي يفهم أصل الموضوع. فتبرع آدم بالتقاط السماعة لا يذكر من أي يد ألتقطها وبدأ يهمهم يعرّف نفسه لصهره الذي لم يره من قبل:

- أنا آدم يا كريم.

بلهجة نارية مقتضبة:

- فهمنا، وأضاف كقاضي ينطق بحكم: لا أريد مقدمات، أحتاج إلى العنوان وأي رقم هاتف للضرورة.

ارتبك آدم ولم يسعه إلا أن يصمت بغبن، أخذ صفنه طويلة مبهوتًا من الطريقة التي خاطبه بها كريم، كان مباشرًا جدًا، اعتبرها إهانة لا تليق به من أول مرة يتحدث بها معه، كمال هزّ كتفه بعصبية يريد أن يعرف ما حدث، أنهر قالت:

- ما بك يا آدم لا ترد؟ هات السماعة. التقطتها منه، أدارت الحديث مع أخيها بعد أن مسحت دموعها، أعاد كريم ما قاله لزوجها دون تغير، أخرجت من جيب بنطالها ورقة كانت قد كتبت عليها عنوان الشقة، لكنها وجدت صعوبة في قراءة بعض الحروف، اللغة المجرية تكتب وتلفظ على غير الإنجليزية، أقنعها كريم بحذاقة بعد أن فهم ما تعانيه أخته من محنة، قال:

- لا عليك، اللغة المجرية قريبة من الألمانية، يضعون فوق بعض الحروف نقاط، أعرف هذا، أحتاج فقط إلى اسم الشارع. حاولت أنهر أن تقرأ، لاقت صعوبة، كانت قراءتها أقرب إلى التهجي لا تلفظ الحروف بشكلها الصحيح، كريم بدأ يفقد أعصابه، صاح، فأرعب صوته أخته:

- انظري مما حولك، ألا تجدين شخصًا قريبًا منكم؟.

تلفتت وهي تشعر بالإحباط كشعور زوجها عندما صفن متراجعًا لا يستطيع أن يكمل. رأت أحدهم على الرصيف، طلبت من آدم أن يرجوه للمساعدة، حضر الشاب المجري، كان وسيمًا بهيئة بسيطة كهيئة الأنبياء، شرحت له أنهر باللغة الإنجليزية عما تحتاجه وناولته الورقة وسماعة الهاتف وخرجت من الكابية تمسح عرقها، تلتقط أنفاسها وقلبها مشحون بخليط عجيب من المشاعر بين الرهبة والفرحة، تبعها آدم، أخذ يدها، همس:

- لا تنزعجي، كريم يعيش في الغربة منذ أكثر من ربع قرن. لم يركم من قبل، الآن هو شخص آخر غير الذي سمعتِ عنه، لذلك علينا بالصبر والتحمل حتى نلتقي به.

خرج الشاب من الكابينة بعد أن سلّم كمال السماعة وانشغل الأخير بحديث مع أخيه لا يفقهون منه شيئًا، اتجهت أنهر للشاب المجري تسأله:

- هل أعطيت العنوان لأخي؟

برنة تشبه رنة الذهب:

- نعم، وتابع: هو يتحدث الألمانية وكذلك أنا، فلم أواجه صعوبة. سلّمها ورقتها، شكرته برقة متأصلة في طبعها. قال بأدب منقطع النظير:

- لم أفعل شيئًا ذا بال، وأردف: هل يطلب مني أي مساعدة أخرى؟

- الحقيقة، كلا.

- حسنًا أستودعكم، وقبل أن يغادرهما همس: أنا أسكن بالقرب من شقتكم، في البناية المواجهة لبنايتكم، لو احتجتم لأي شيء أنا حاضر، رأيتكم أكثر من مرة تسيرون معًا. لا عليكم، جاهز لأي مساعدة. غادرهما متدهدرًا في مشيته كالشاة الوديع.

خرج كمال غارقًا بدموعه كالطفل، حضنته أخته، قالت:

- لا تبك يا عزيزي. كلها بضعة أيام ويكون هنا.

بربر متشنجًا:

- هذه دموع الفرح يا أنهر، دموع الفرح. ثم أكمل بكائه ورأسه على كتفها يستريح.

• • • •

في العاشرة صباحًا من تاريخ غربتهم الذي بدأ قبل يوم وزّع كمال أخته وزوجها بطريقة شرقية بحته أقل ما يقال عنها قليلة الأدب خالية من الحشمة. جعلهما يخرجان من الشقة غامزًا مغمغمًا كمختل عقليا:

- كلكما نظر. لا تعودان إلا بعد ثلاث ساعات من الآن!، ما ستصرفانه سأدفعه لكما، لا تبخلا على نفسيكما، هه. ماذا تنتظران؟.

أنهر لم تكن مقتنعة بما ينوي أخوها فعله، كانت متذمره من تصرفه، تحدثت مع آدم على أن ينصحه، قالت:

- هو لا يعرف مصلحته أين، أرجوك كلّمه، سيصرف الدولارات القليلة التي معه ثم يبدأ بالتشكي والبكاء، أنا أعرفه جيدًا، سيتصل بأمي يطلب مساعدتها، ناهيك عن أني خائفة على صحته، هو لا يعلم عن أمر الفتاة التي ينوي معاشرتها أي شيء، فقد تكون مريضة وتصيبه بالعدوى. انفجرت تسأل نفسها، لا أعرف لماذا هو هكذا متسرع، على ماذا؟ ألا يستطيع أن يصبر قليلاً؟ اللعنة، صرخت متذمرة: لا يختلف عن أبي قيد شعره، يعبد النساء ولا يفرق بينهن. كل همه المتعة التي يحلم فيها، وما أن يقضيها يبربر لائبًا يجلد نفسه بأسياط كلماته. ثم يعود فيمارس هوايته وكأن شيئًا لم يكن. أخذ آدم يدها، قرّبها منه حد التلاصق، همس مبتسمًا من قبيل التودد لاسترضائها:

- لا تكدري نفسك، أعرف بأن طبيعتك هي هذه، كمال شاب ناضج، يستطيع أن يقرر لنفسه ما يريد فعله، لا أحد يقدر على فرض شيء عليه دون رغبته، لو منعناه من دخول الشقة مثلاً سيلجأ إلى غرفة في فندق، ربما تكون مساوئها ومشاكلها أكبر، علينا توخي الحذر ونحن نتعامل معه. أنا أتفهم وضعه وخوفك عليه، لكن في نفس الوقت يبقى هو حرًا، هكذا رددنا طوال الوقت عندما كنا في بغداد أليس كذلك؟ لا تجعلي الخوف أو العاطفة تغير من مسار مبادئك، ثم أشار لها بأن هناك على الجهة الأخرى من ناصية الشارع مقهى. اتجها إليها متشابكي الأيادي.

• • • •

كشخص لا يحب أن يستسلم للنسيان جهّز كمال نفسه جيدًا؛ استحم، تعطر وسرح بأفكاره اللذيذة يخاطب نفسه كمارق عن الدين:

openkan.com

يا لها من فتاة. نهدان بارزان بحلمتين تكادان تشقان قميصها وتخرج نافرة، متوثبة، آه. كم يعجبني هكذا نهد عامر، ناهد، متوحش لا يروض بسهولة!، ثم ابتسم لوصفه وحالة التشبيه التي توصل لها، استدرك متعاطفًا مع ما يردد متأملاً بلذة لا تطاق:

- إنها بالتأكيد تحب وتشتهي التقبيل كثيرًا كأولاد جلدتها كما رأيت بعيني. لم يقل لي أحد ذلك، شاهدتهم بنفسي، سأجعل جسدها أزرق، سأعضه وآكل من لحمه، ثم صرخ منفعلاً وهو يتنفس بنهم:

آه. من ضحكتها المستفزة التي تشبه صرير السلاسل الحديدة عندما تتحرك بسرعة متصلة، كم أتوق لأجرب طعم لحمها!

عاد فسأل نفسه جادًا كمتعبد غريب الأطوار:

- لو طلبت مني الزواج، ماذا أقول لها؟ وماذا عن دينها؟ لكنني على استعداد من الزواج منها وفي الحال إن أرادت!. لكنه في هذه اللحظة شعر بعرق ينساب من أعلى ظهره، ينساح بسرعة نحو أسفله، ارتعدت أوصاله عندما وقف على موضوع زواجه منها، شرع يجعجع بتركيز معلنًا خطورة الشأن الذي يهم ارتكابه:

ماذا قلت للتو؟ أتزوجها؟ كيف يا حمار تجرؤ على التفكير وتقرير المصير بهذا الشكل الغبي، أتترك دينك وأهلك وأنهر وآدم من أجل فتاة مازلت لم تتعرف عليها؟ وعى على نفسه، التصقت أذنيه برأسه، أحمر وأزرق، عوى متألمًا في لحظة صراع مع الضمير:

لا، لن أوافقها حتى لو طلبت مني ذلك، سأقول لها بأن ديني لا يعني مذهبي وانتمائي، بل قومي ومجتمعي، صلة الرحم التي بهم تربطني، ديني أمي وأبي، نعم، سأقول لها ذلك ورأسي مرفوع، ثم دخلت فتاته حلبة أحلامه، تطورت الرؤى، تحمس لمشاهدتها، غير رأيه بسرعة مرتدًا إلى الطفولة، قال كمن يقوده اليأس:

سأفكر لو طلبت مني الزواج، لن أجيبها فورًا، سأقول لها، أريد أن آخذ رأي أختي وزوجها الحكيم آدم، هكذا مواضيع لا تحسم بدقيقة، بل تظل أيام وشهور معلقة، ومن ثم أنا غير مستعجل، أنتظر أخي كريم، استشيره، رأيه يهمني هو الآخر، وعندما توصل إلى هذه النتيجة المرضية بالنسبة له تجلت في ناظريه وهي آتية كالسحابة البيضاء، عارية تردد بشبق:

ضمني إليك، احضني بقوة، اصهر عظامي، اجعلها تطقطق، اهرشها، اطحنها، لا تبالي، فأنا لا أشعر بالحب إلا بهرس الجسد .

ظل هائجًا، سابحًا في تصوراته، تناسى نفسه، الوقت يمضي وهو ينتظر. تجاوزت الساعة التي حددتها للقائه ولم تحضر، شعر بخوف يهز كيانه، ارتبك من عدم مجيئها، كان جازمًا، متأكدًا من حضورها، حدّق بجدران الغرفة، وجدها عارية تعكس وحشة خرساء، حزَّ منظرها قلبه، ثار الرعب فيه. أدار ظهره بجهد، تقدم قليلاً، جلس محاذيًا للنافذة التي تطل على الشرفة ثم الشارع والحديقة الغناء المواجهة لها والوقت يمرق، يسرق عمر الإنسان، يترقب بحذر وقلق شديدان.

طرق باب غرفته بهدوء وتأن. توقف الطرق والنقر على الباب، ثم عاد منتشرًا بضوضاء لكن بسرعة متناغمة وصوت أعلى.

فتح كمال باب الشقة وهو في حالة خمول ونعاس كأنه استفاق لتوه من نوم عميق، ثم تراجع إلى الوراء وإذا بسامح يسأله بحرص بلهجة خجولة:

- ها. هل مشى الحال؟!

لم يرفع رأسه، ظلَّ محدِّقًا في الأرض كأنه يبحث عن شيء ما فقده، طفق باسترخاء:

- لم يحدث شيء.

- ماذا؟ لم يمش الحال؟!

- لا، الموضوع ليس هكذا، رد عليه وهو مازال يبحث في الأرض

- لماذا تتحدث معي بهذا البرود؟ إيه. لا. قل لي ما الذي حصل؟ هل أكلتها كما كنت تتمنى وترغب أم لا؟!

- لم آكلها ولم تأكلني. هل ترضى بهذه الإجابة؟. ثم التفت إليه بإحباط وانكسار منكمشًا على نفسه كأرنب مذعور:

- لم تحضر اللعينة تلك بنت القملة السمينة. توقف لحظة ثم أدرك: فبعد انتظار قاس، مرير وصعب يأست من حضورها، قررت حينها وقتما توصلت إلى قناعة بأن لا فرصه لي في النجاة، أقصد، مضاجعتها، ضاجعت نفسي بيدي ونمت. وكما ترى، حزين النفس، مهدود الجسد.

صدرت من سامح ضحكة مقتضبة، رآها كمال واضحة، فهمها على أنها لؤم. عبس مقطبًا حاجبيه زامًّا شفتيه وألتزم الصمت. همهم زميل رحلته المسائية:

- لقد كنت أعرف بأنها سوف لن تأتي.

بشهقة مريبة حادة:

- ماذا، كنت تعرف؟ إذن اتفقتما للضحك عليَّ!.

- لا، بحق السماء لا تفهمني خطأ، بهدوء دافع عن رأيه: أقصد توقعت بأنها لن تحضر، هذا كان مجرد ظن لا أكثر.

- ولماذا لم تشرح لي ظنونك هذه من قبل؟ تنورني، تقول لي لا تغلب، لا تنتظر، احذر، إنها مراوغة، وربما ليست سهلة كما توقعت أو صدقت. أو أن تقول أي شيء يطمئنني، لا أن تذهب وتتركني هنا كالتيس الذي ينتظر نحره!

- عزيزي الغالي كمال، يا صديقي الجليل، عليك أن تعلم جيدًا بأن المرأة الأوربية رغم عن كل ما قلته أنت في رغبتها ولذتها واندفاعها وإرادتها. فهي تبقى محافظة كراهبة إذا أرادت، نقية، صافيه ومخلصة إن أحبت، لذلك توقعت بأنها والحال هذا لا تحضر ولن تأتي. أرادت أن تعطيك درسًا، تفهمك بأنها ليست غانية كما توهم لك، لقد كانت تشعر بنظراتك الملتهبة نحوها، بثقافتها وحدسها بلغها ذلك الشعور الذي يقول إنك تريدها جسدًا فقط، تريد أن تتغذى بها، تأكلها كما قلت، حتى أنك صرحت ووصفتها على أنها بطة ولم تقل إنسانة، كائنة بشرية مثلنا نحن قوم الرجال. هي فهمت ذلك فقررت أن لا تلعب معك لعبتك. هذا يبقى تفسيري، ربما لها تفسيرها الخاص، كل شيء جائز، لكن المهم أنها لم تحضر. كان توقعي وظني صحيحًا، لا تنس بأنك وبفعلتك هذه تبين لها ولي أيضًا بأنك قبلت التعاقد مع الشيطان لأجل أن تخون أفكارك!.

استمع إلى خطبته بانتباه شديد، هبَّ واعيًا بصوت مجروح، مهتاج مخاطبًا نفسه:

"تبًا لهذا الطريق الوعر، الحقير الذي يغرق فيه صاحبه حتى قمة رأسه، متى يا رب تنتهي معاناتنا؟ هذا ليس طريقنا، المجر أو غيرها ليس بلدنا"، ثم هدأ كشبق حقق ذاته، أو كموجه كانت تشتهي الصخر لتتفتت كي تستريح.

ارتاح كمال لما قاله، استسلم وهو يشعر بالقهر والخذلان متراخيًا حتى كاد يسقط مغشيًا عليه. تركه سامح ليأخذ قسطًا من الراحة وحيدًا في غرفته، صفق باب الشقة من وراءه مودعًا، ثم اختفى مارقًا الحي الذي يعرفه جيدًا كالريح.

obeikan.com

(٥)

يقول إيليا أبو ماضي : جئتُ لا أعلم من أين ولكني أتيت، ولقد أبصرت أمامي طريقًا فمشيت، وسأبقى سائرًا شئتُ هذا أم أبيتُ. عندما تكثر المتناقضات نجزم بأن هناك شيئًا ما غير عاديًا يحدث في عالم صامت اتجاه الحق وكأن الأخير أعجوبة الأعاجيب !

ثلاث ساعات قضياها في الحديقة الغناء المقابلة لشقتهم يتمشيان جنبًا لجنب يغازل أحدهم الآخر بنغمة حُبٍّ وجداها ممتعة متشابكي الأيدي في هذا الفضاء الرحب الواسع بين الأشجار الباسقة وظلالها المترنحة بحكم نسيمات الهواء الصباحية العليلة التي ترشقها بحنية كأم تداري أولادها وتطبطب على أكتافهم وبين زقزقة العصافير الرنانة التي تطرب. لم يحاولا أن يتذكرا بغداد، ولا العودة إلى الماضي القريب والطاعون الذي هربا منه، كانا وقتها في عالم صامت كالأعجوبة، كالكون ما قبل النشوء، لا يحبان أن يفيقان منه على واقع يجهلانه كل الجهل. قضيا ساعاتهما الجبرية الثلاث بلذة لا يفوقها متعة غير لذة الموت برأس مرفوع وسط حفنة من المتناقضات اللا إنسانية التي أتت على كل شيء جميل في طبيعة الحياة التي خلقها الله متعة لا أثم، حب لا كره، اتحاد لا تفرقة وكثير من الناس هذا الأمر يجهلون.

دخلت أنهر على أخيها في غرفته للاطمئنان عليه. وجدته مستلقيًا على سريره ساهمًا بين النوم واليقظة، عيناه الزرقاوان الجميلتان معلقتان في السقف لا تزوغان لا يصفق له رمش ولا جفن، أرعبها منظره، صاحت باستسلام:

- كمال حبيبي ما بك؟

لم يرد عليها، اعتصم بالصمت، كان في عالم آخر، أعادت سؤالها بعد أن تقدمت منه، في هذه الأثناء كان آدم قد دخل الغرفة على صوت زوجته:

- كمال. هل تسمعني؟ ما بك؟ ما الذي حصل؟.

استيقظ على صوتها الذي كان يصدح خوفًا، ألتفتَ إليهما ببطء شديد كأنه يمثل دور مسرحي مطلوب إتقانه، تعتع بصوت منطفئ فاقد الخيال وهو مازال يتمتع بالاستلقاء:

- ما بكما؟ لماذا أنتما هنا؟. ها. هل لي أن أعرف؟ لو بقي الحال هكذا سأبحث عن شقة أخرى، استقل فيها لوحدي لحين وصول أخي كريم. ثم سهب بعيدًا كأنه دخل في غيبوبته مجددًا.

كأنثى السنونو بحزن طاغي هدلت أنهر:

- هذا جوابك؟ تشكرنا بطردنا وتهديدنا؟ على العموم، سنتركك كما ترغب. الخطأ ليس خطؤك، بل حبي الزائد ربما هو السبب، كنت أتوقع مخدوعة بأنك قد تغيرت، قرارك بالسفر معنا جعلك أكثر قربًا منا، المهم. ولم يجعلها آدم تكمل جملتها، اقترب منها، أمسك يدها لتهدئتها. كانت منفعلة، كلمات أخيها فاجأتها، تابعت بعد جهد، جاء صوتها واهنًا كأنه صادر من ضلوع مريض:

- ستندم على ما قلته، كمال وأعرفه، لن يطول الوقت بك حتى تأتي وتعتذر. قاطعها وقوفه المفاجئ، فَرد طوله الرشيق وسط الغرفة وهجم عليها مداعبًا، ملاعبًا كطفل مذنب يسعى لتحقيق آخر أمنية في حياته إرضاءً لأمه بعد أن لبك في عمل ما سيء فاحت منه رائحة الشر الصبيانية وهو يردد كمن وافاه حلم مزعج: خذيني على قدر عقلي يا أنهر، أعرف نفسي، أخرق، معتوه لا يفرّق بين العصفور والدجاجة.

أخذته بالأحضان، قبلته، قالت ما تود قوله دائمًا:

- "خوش"، ثم أردفت: لا داعي لكل ذلك، سامحتك، اتركني، لا. ليس من هنا، أغير، أرجوك، ثم هربت من أمامه. لحقها زوجها وابتسامة مضيئة طافت على شفتيه وقهقهات كمال تلاحقهما ظلت ترن في أركان الشقة تصدح وهو يصيح بخبل كناسك خرج من صمته قبل أن يقف عزرائيل على رأسه ويأخذ روحه:

- أنا جائع يا أنهر. ألحقيني بأي شيء آكله، سأنفق مثل حمار ضال لو لم تسعفينني فورًا.

• • • •

بعد أن أتموا غدائهم غادروا الشقة متوجهين إلى مركز المدينة بغية صرف "الشيكات" التي بحوزتهم وتحويلها إلى عمله ورقية كما خططوا له عندما كانوا في بغداد. بالحقيقة كانت تلك فكرة أنهر؛ هي التي أشارت لآدم بأن يقوم بإعطاء الذهب الذي بحوزته بعد سبكه وتحويله إلى عيار ٢٤ خالص إلى هشام زوج فضاء أخت مقبولة زوجه أخيه الكبير نصير. حصل هشام على عمولة وقتها خمسمائة دينار عراقي لقيامه بهذه المهمة والسفر إلى الكويت الذي يحمل جنسيتها، قام بواجبه على أتم شكل وحوّل الذهب هناك إلى "شيكات" يمكن صرفها من أي بقعة من بقاع العالم بعد أن سرق نصف مقدارها وسلّم آدم نصفها الآخر والأخير اكتشف السرقة ولم يتحدث بشأنها لأنه لا يملك وقتها خيارًا آخر وسكت. وما أن رأى كمال ما فعله زوج أخته طلب من الأخير الشيء ذاته، وها هم الآن في طريقهم لتحويل تلك "الشيكات" إلى أوراق نقدية.

لم يحتاجوا إلى جهد كبير للوصول إلى مركز المدينة. كمال فعلها في اليوم الماضي عندما التقى بسامح في المحطة وسارا مترجلين عبر شوارع المدينة ومركزها الكبير، محلاتها الضخمة، مقاهيها المشرعة الأبواب وكراسيها وطاولاتها المنتشرة على ناصية الشوارع المشغولة من قبل روادها على مختلف جنسياتهم. هناك الرسامون بعدتهم المنصوبة أمامهم يمارسون إبداعاتهم في الهواء الطلق، الموسيقيون يعزفون ألحانهم التي يعشقونها ويرقصون معها، البهلوان الساخر يجوب الشارع الرئيسي للمدينة الخاص للمشاة يوزع الابتسامات المضيئة يرسم الفرحة على الشفاه، ورجال الشرطة على ظهور جيادهم ينشرون الأمان والسلام بهدوء يكاد لا يشعر المرء بوجودهم، وما أن وطأت أقدامهم مركز المدينة حتى سألوا عن أقرب مصرف. توجهوا إليه، عبوا أوراقهم النقدية في جيوبهم، ثم قرروا أن يستمتعون بوقتهم يكتشفون بودابست عن قرب مترجلين.

أنهر لم تبتعد لحظة عن حبيبها أثناء التجوال، كانت ممسكة بيده طوال الوقت، هو لم ينزعج من تصرفها هذا بل العكس، قال يخاطب نفسه: آدم وما يملك طوع أنهر، باغتته بشطارتها:

- انظر. وهي تريه خارطة مدينة بودابست، معالمها، شوارعها والأماكن السياحية المشيدة على أرضها، نوهت: قرأت عن المجر قبل السفر، خاصة عن العاصمة، إذ

يصفونها بلؤلؤة الدانوب وهي أكبر مدن هنكاريا، تمتد على ضفتي هذا النهر الذي تراه أمامك وتعتبر هي ملكته، تم توحيدها من مدينتين هما بودا القديمة المقامة على تلال الضفة الغربية من النهر حيث تنتشر القصور ومدينة بست (بشت كما يلفظها أهلها) على الضفة الشرقية من النهر، تشكل المركز الحكومي والتجاري النابض للمدينة التي تعتبر أكبر سادس مدن أوروبا، يبلغ عدد سكانها مليوني نسمة، ثم بادرت زوجها بقولها وكمال يقترب منها بعدما سمعها تتحدث عن العاصمة فأراد من خيرها نصيب:

- ها. ما رأيك بمعلوماتي المستقاة والمستوحاة؟

- أقول رائع، فاجأتِني بالفعل، لا قول يعلو على قولك، أكملي ما في جعبتك، سنحتاج لها بالتأكيد، ستكون لنا عونًا وسندا. انتعشت لإطرائه، ضحكت، شعرت بطاقة تحملها وتضعها فوق رابية عالية، تابعت كمرشدة سياحية بنبرة شجية كأنها صادرة من " ناي " وهي تنظر لأخيها الذي بات قريبًا منها يلامسها بغية مشاركتهما:

- اسمعا إذن، يخترق هذه المدينة رائعة الجمال "باريس الشرق" كما يدلعونها؛ نهر الدانوب الذي يسمى بنهر العواصم لأنه يمر بأربعة عواصم أوربية ويعتبر ثاني أطول نهر في أوروبا بعد الفولجا، وهو أقرب إلى وصف الشاعر الفلسطيني محمود درويش في قصيدته "الدانوب ليس أزرق". إذ يقال إن النهر يصبح أزرق في بعض مقاطعه، تحديدًا في منطقة تقع بين بودابست ورومانيا، لكنه يتشح باللون الرمادي في باقي مساره، ربما بفعل التلوث والعوامل الطبيعية.

معالم بودابست كما ستريانها على ضفتي النهر تنتشر قائمة طويلة منها السياحية والتاريخية والدينية المبنية على طراز معماري متنوع، فجنوب تلة القلعة تقف قلعة بودا (القصر الملكي السابق) التي تضم الآن متحف التاريخ والمتحف الوطني ومتحف الفن المعاصر والمكتبة الوطنية. على تل غير بعيد ما زال تمثال لطير "تورول" الأسطوري يحلّق عاليًا ومعه أسطورته التي تروي كيف أرشد هذا الطير القبائل المجرية إلى هذه المنطقة حيث استقرت وبنت دولتها، ثم أضافت مترنمة وابتسامتها تسبق كلماتها:

من المعالم المميزة أيضًا، مبنى البرلمان، ميدان الأبطال، دار الأوبرا، قصر الفنون، متحف بودابست التاريخي، الحديقة العامة (سيتي بارك) وتلة غيليرت، هذا ما سنراه أول شيء من رحلتنا لهذا اليوم، وواصلت جولتها: هناك أيضًا جسر السلسلة (زيتشني لانشيد) الذي سنمشي على كتفه، أعدكما بذلك، يعتبر الأقدم، كان يربط بين مدينتي بودا وبست. معظم هذه المعالم تعود إلى القرن التاسع عشر الذي يعتبر العصر الذهبي للمجر، يلاحظ فيه التأثيرات الأوروبية خصوصًا الفن المعماري. لذلك، ليس غريبًا أن تسمى بودابست باريس الشرق كما ذكرت، وأن يُطلق على أحد أهم شوارعها، شارع أندراشي، اسم "الشانزليزيه"، فقد صمم على هيئة الشانزليزيه الفرنسية في القرن التاسع عشر، كما أن نظرة واحدة على البرلمان المجري نستحضر البرلمان البريطاني (ويستمنستر) خصوصًا أن مهندسه درس الهندسة في بريطانيا وتعد بناية البرلمان المجري أحد أجمل المباني المطلة على الدانوب، خاصة ليلاً عندما يضاء وهو ثالث أكبر برلمان في العالم. ثم أطلقت صرختها بلا إرادة:

انظرا. ها هي بناية البرلمان، ما أروعها، تحفة فنية، يا الله. تمتعا بمنظرها، سنأتيها في المساء بعد أن تودعنا الشمس فتنيرها الأضواء، يقال، بأنها تأسر الألباب. كمال بهت، لم ينطق بشيء، آدم أشاد على المعلومات التي كانت قد أدلت بها زوجته، شرع:

- الحقيقة التي لا مراء فيها يا أنهر هي أنكِ الأروع، سحرتِنا بفيض المعلومات الدقيقة والمهمة لهذه المدينة الجميلة، بفضلك بتنا نعرفها من قبل أن نراها، هيا أسرعا. علينا أن لا نضيع دقيقة واحدة دون أن نطلع على مَعْلم سياحي، هذه فرصتنا، انطلقوا برغبة محمومة للتعرف والمشاهدة، زاد ذلك من سعادة أنهر وغبطتها.

أخذتهم أقدامهم إلى الجهة الأخرى من المدينة حيث النهر ذو الوقع الرهيب على النفس، أمواجه الهادرة، الصاخبة، الجسور التي مدت على ظهره، التماثيل الشامخة ترأست هاماتها، عبروا ضاربين الأرض الخضراء بأقدامهم سعداء لا كرب يحز يومهم، يشعرون بإحساس لذيذ تغلغل داخل قلوبهم التواقة للراحة بعد رحلة عمر قضوها في صراع مع الطاعون، ها هم يسيرون على غير هدى، في طريق لم

يجربونه من قبل لا يعرفونه كطريق غربتهم التي بدأت قبل يومين. يضحكون، يغنون على غير عادتهم، كانت حياتهم تعيسة لا حياة فيها قبل مجيئهم من حيث تخرج الشمس للناس، من شرقهم، وجدوا أنفسهم بالصدفة على غير موعد في حديقة كبيرة غناء في مقدمتها تله يقف عليها تمثال هائل عظيم الفخامة كطير أسطوري. هبط عليهم الليل بطيئًا، القمر ماانفك يرسل أشعته الفضية اللامعة في الفضاء كالشلال. رجعوا إلى شقتهم مغتبطين سعداء بجولتهم يكملون حياتهم.

عند الفجر رنَّ جرس شقتهم رنات متتالية لم تتوقف إلا بعد أن فتح آدم الباب والنعاس مازال عالقًا في عينيه ليفاجأ بوجود رجل أبيض، طويل، رفيع، ضحوك، بشعر طويل مظفور إلى الوراء كذيل الحصان أمامه كان آدم ينتظره ولا يعرفه.

obeikan.com

(٦)

غاندي يقول: كل طرق الخير تؤدي إلى الله.
جيفارا: السياسي الشريف هو الذي يناضل مع الناس في المقدمة وليس من خلف المكتب.
وبرنارد شو بحكمة فيها رنة العتب: تكلم وأنت غاضب فستقول أعظم حديث تندم عليه طوال حياتك.

ظهرت أنهر من غرفتها متلهفة؛ إحساسها كان يخبرها، قال لها بأن القادم هو أخيها كريم. تعثرت في مشيتها، ترنحت وكادت تسقط. استقرت واقفة مرتكزة على الحائط المحاذي للباب لا تتحرك، واضعة يدها على فمها لا تعرف بماذا تنطق. المفاجأة أذهلتها، كمال نهض من سريره مدهوشًا كطفل مدلل يهاب الوحدة، اهتزت أرضية الشقة لنزوله المباغت من على سريره. قابلهم ببيجاما النوم، تسمر هو الآخر في مكانه، تقدم كريم واثق الخطوات مادًا يده لآدم الذي اربكه الموقف، أخذه بالأحضان والأخير كغائب عن الوعي يشعر كأن المستقبل سرق منه أو مات لتوه!.

لحظات مرعبة، ازدحم الدم في قلبه، هو لم يرَ في حياته موقف كهذا، الغربة سرقت أجمل ما في عائلة زوجته، ينظر إلى كريم نظرة استغراب كأن القادم فعلاً من الأغراب، تساءل بغتة يخاطب نفسه: "ماذا فعلت الغربة به؟ إذ يبدو كشخص قادم من كوكب آخر، ترى، هل سنصبح بعد عشرين عامًا مثله؟ اللعنة، أنا أرفض ذلك بقوة. " انتبه، وعى على ذاته، وجد نفسه من غير أن يعلم في غرفة نومه، كمال وأنهر يجلسان على جانبي صهره، يحيطانه كما تحيط أوراق الوردة مركزها، اختلس النظرات من كريم، رآه بوضوح، قدّره أكبر من سنه، هو سمع بأنه في نهاية الحلقة الثالثة، لكنه يبدو في الستين، استغرب ذلك كثيرًا، اقشعر بدنه، شعر برعشة محمومة باردة تسري في كل جسده، اصطكت ركبتاه، لم يستطع الوقوف، جلس

محاذيًا لأنهر ملامسًا كتفها، يريد أن يحس بالراحة، بالدفء، بالاطمئنان، بأنه مازال على قيد الحياة، نقطة قوته يعرفها جيدًا، زوجته.

• • • •

كريم معتدل القوام، مليء بالتحدي والكبرياء، حسن الطلعة كقطعة فنية لا يمكن وصفها، وجه ملائكي، شعر طويل مضفَّر إلى الوراء، لحية غزاها البياض مبكرًا قصيرة زادت من وقاره وهيبته فبدا كشيخ صيني غريب الأفكار والأطوار، لم تسكت ضحكته، كشفت عن أسنان شابة مازلت محافظة على قوتها ووجودها، يرتدي جاكيت صيفي زيتوني يطير مع الهواء لخفته، وبنطال "جينز" فاتح الزرقة، حذاء رياضي أبيض يتناسب وقميصه ناصع البياض بأزرار صغيرة ناعمة سوداء تشبه عينيه.

رجع آدم يحدّث نفسه مستأنفًا متذكرًا أيامه غير البعيدة في وطنه كأنه يترجم مشاعره إلى اللغة التي يفهمها "آه منك يا وطن، تدفعنا دفعًا نحو الغربة، ذلك الطاعون المخيف المقتدر المتجبر متى نسحقك؟ ننتصر عليك، تغور إلى داهية بعيدًا عن شعبي الطيب المسكين المحبوس بين أسوار سجن وطنه مخذولاً، مكسورًا ومهانًا. متى؟". جاء دوره في الترحيب، اندفع نحو كريم، قبّله، حضنه، قال:

- حمدًا لله على السلامة.

- كما توقعتك. هادئ، رصين، تزن الكلمات بميزان صائغ قبل أن تطلقها، لحظتها ضحك وضحكته كانت لوحدها كفيلة لترجمة حسنه، ولطفه، وخفة دمه. ابتسم آدم دون أن يباعد ما بين شفتيه، ثم نوه:

- شكرًا لك، البداية رائعة، أشعر بأننا سنفهم بعضنا سريعًا. أدار كريم له ظهره، التقط أنهر وكأن الأخيرة قطة، وضعها في حضنه، صاح ملاطفًا:

- يا ملعونة كم تبدين جميلة، تركتكِ في الشهور الأولى طفلة رضيعة، ثم فجأة أراكِ فتاة فاتنة الجمال تأسرين القلوب برمشة عين، أضاف مستأنفًا: ما أحلاكِ، دمية تفنن الله بحكمة في خلقها. أنهر خجلت، أحمرت وجنتاها، قلبها بدأ يدق بسرعة، خفضت بصرها، وضعت راحة كفها على فمها ولم تنبس. صوّب أخيها نظره إلى آدم بعد

أن أدار رأسه له، دقق النظر فيه كأنه يقيسه، أردف: حلال عليك يا عم، تزوجت حكيمة كما قالوا لي وجميلة كما رأيتها.

- أعرف هذا. الله يحبني وتابع بجزل: لا يكفي أن تحب الله، من الحكمة أن تكون أنت في وجدان الله، ساعتها سيهبك كل ما تتمناه، وقتها استغليت الفرصة، تمنيت فتاة من ديني، مثقفة، جميلة وعلى خلق تكون زوجة لي ووجدتها، ثم وهو يغمزها، وها هي في حضنك تسحرك كما فعلت معي من قبل ومازالت.

سادت جلستهم الهمهمات، كثير من الذكريات، تكرر منظر التقبيل مرات، سألهم عن وطن الطاعون، موجهًا الكلام لآدم بالتحديد:

- أعتبرك من المحظوظين!

- لماذا؟

- لأنك تخلصت من الطاعون، أتيت ومعك أنهر، ثم تابع متوجعًا من قلبه: كان الله في عونكم. أجابه آدم مثله مثل الذي يستمع لصوت العقل:

- كان القرار خطيرًا؛. التحرك لم يقل خطورة عن القرار، بدأنا بسرية تامة إلا من أقرب الناس إلينا، ثم أعلنا عن رغبتنا بعد أن حددنا موعد هروبنا ورتبنا كل مستلزماته. توقف لبرهة، لوى رأسه على كتفه ثم استأنف بمشقة كمن أسترد رشده لتوه:

الدين يا كريم ستكون محطتهم القادمة؛ القريب من الأحداث يتكهن بما سيحدث، هناك تحرك خاطئ نحو المرأة وحريتها، سيشلون حركتها بتحجيم دورها، لو حصل ما أشم رائحته ستمحى خرائط لقارات عربية من على الأرض، سوف لن يكون لها وجود، نسمع عنها سمعًا، لكن الحقيقة أقسى من استيعابها، هذا ما أراه ماثلاً أمامنا، ثم بوهن كمريض يئن، داعيًا: أرجو ألا يحدث هذا، اللهم مغفرتك، رحمتك وعونك. قال آدم كلماته الأخيرة وفي قلبه يقبع أكثر من هم ومن عينيه تلوح أحزان لا قرار لها كواقع لا يمكن تجاوزه. طبطب نسيبه على كتفه، همس برقة كروح معذبة متحيرًا مواسيا:

- لا تيأس من رحمة الله؛ المقدر لابد من رؤيته. إن صحّت حاستك، سيكبو وطننا لفترة ثم ينهض، العراق معروف عنه بالتحدي، يستطيع الصمود، العيش تحت

القهر، لكنه لن ينتكس حتى لو حصل ما تتنبئ به، ثم حاول أن يغير مسار الحديث، ضحك كمن يحب العبث مغرمًا به طافقًا:

زرت بودابست من قبل كثيرًا، أعرفها كما أعرف بغداد رغم ابتعادي عنها عشرين عامًا، لي صداقات جميلة، عاجلاً ستحتاجون لها، اتخذوا قرارهم بالإجماع، أن ينسوا اليوم أنفسهم، يعيشون على سجيتهم كما خلق الله آدم وحواء قبل التاريخ. ساعد آدم زوجته بتحضير الفطور، تناولوه، الفرحة كانت سيدة الأجواء فوقهم ترفرف يصعب شرحها، تحتاج إلى شاعر ملهم غارق في الحب لوصفها.

opeikan.com

(٧)

ما فائدة بريق الماس والشمس ساطعة ؟ يتوقد الفحم مشعًا ناشرًا نورًا متوهجًا ملهمًا يتوق لرؤيته الشعراء في الصقيع والليل منسكب. والناس لا يمكن كسب ثقتهم بالكلمات فقط.

ما وعدهم به كريم حصل. قضوا نصف يومهم في متعة خالصة، زاروا فيها حديقة الحيوان برغبة ساحقة من أنهر، طبيعتها تدفعها لفعل ذلك، تجاوبوا معها على هذا الأساس؛ كانت بالفعل حديقة جميلة، واسعة، نست أنهر فيها نفسها، ظلت طوال الوقت تضحك، تقفز وتتحرك كأنها خلقت من جديد لتوها. آدم لم يفارقها لحظة، شاركها مرحها وفرحتها، سار معها في كل درب تحب زوجته السير فيه، تجاوبوا مع خفة القرود في أقفاصها، مع الطيور انطلقت أنهر في متعة آسره لا تقاوم، حسبت نفسها من فصيلتها، تتحدث، تناغي، تطعم، تصفر وتضحك في سحر طاغٍ لم يرحم من كان بقربها ساعتها، انتعشت، ترنمت، همست لآدم بأن يمسك يدها كي لا تطير، أضافت، لم أعش من قبل إلا لحظات بعمر ثواني الدقيقة، بعد الآن أستطيع أن أحيا من أجلك الدهر كله، قرون لا تحسب بمقياس الزمن، ثم انهت بث وجدها بكلمة خرجت من بين ضلوعها:

- أحبك.

متشوقًا، بشيطنة:

- تعالي معي.

- إلى أين؟

- سأريك شيئًا لم يسعفك الحظ أن تقفي عليه عن قُرب في حياتك من قبل!. اغتصب يدها، سحبها بلطف، توارا بسرعة عن الأنظار، صارحها بما كان يعتمر به عقله:

- أريد أن أقبلك!

ذاهلة مأخوذة اللُب وهي تشعر بالحرج يأكلها ويتغذى عليها:

- ماذا؟. هنا؟. وأضافت: اعقل يا آدم، أخي معنا، ألا تخاف أو تهاب؟

لم يرد عليها إلا بقوله:
- أنتِ يا طبع التين أنتِ. اقترب منها، سحبها بلطف، جعل صدره يلامس صدرها، اختفى صوتهما إلا من دقات قلبهما العالية، غرس فمه في فمها، التصقت الشفاه، انطبقت، احترقت بقبل حارقة عنيفة، غرقا في طقوس روحية، ذابت مقاومة العقل كما يذوب السكر في الماء. ثبت إلى رشده بعد وقت لم يعرف مدته، نبر كمن يحافظ على المظاهر:
- لابد من أن نكمل مشوارنا، هيا. قبّلت أنهر يده فجأة، استغرب تصرفها، سحب يده بسرعة، انحنى على جبينها، طبع قبلة ساخنة طويلة أفرغ فيها وجده ورغبته فيها، اقتربا من كريم وكمال، ناح الأخير كعادته هاذرًا:
- أنا جائع، سأسقط من طولي، أرجوكم، الرحمة حلوة. كريم شرع هو الآخر قائلاً:
- أنا أيضًا أشعر بالجوع، ما رأيكم في مطعم عربي؟، ثم نوه متخابثًا موجهًا الكلام لآدم وأخته: لم أركما، أين كنتما؟
قفز كمال من مكانة ممتعضًا، متذكرًا الموقف الذي حصل له عندما كان مع سامح، بالأخص مع تلك الفتاة التي لطمته على خده لوقاحته، ثم انتظرها نهارًا ولم تحضر كما وعدته، هو لم يصرح باعتراضه، الخوف لجم لسانه، قال:
- على شرط!
- ما هو؟ سأله أخوه
- أن نذهب بعدها إلى السينما. قرأت يافتات كثيرة تعلن عن عرض فلم "حامي الطيور" لبودسبنسر وترانس هيل أحب مشاهدته، ثم متوسلاً كالطفل:
- أرجوك يا كريم، دعنا نحضر عرضه... التفت إلى أنهر، حاول كسب صوتها من صالحه بعد أن رسم ابتسامة مغتصبه على شفتيه خرجت ملتبسة، باردة، لا معنى واضح لها:
- ها يا أختي العزيزة ماذا تقولين؟، وأضاف: آدم لن يمانع أليس كذلك؟.
اتفقوا نزولاً على إلحاح كمال بأن يذهبوا إلى السينما بعد العشاء. لكن ما حدث لهم في الطريق قبل وصولهم المطعم غيّر مسار فرحتهم لفترة جعلها أبعد عن المتعة أقرب إلى الحزن والمتاهة.

• • • •

انخفضت الشمس نحو حافة الأفق حتى كادت تقبّله؛ انتهى طقسها لذلك اليوم، تريد أن تسعد من ينتظرها في الضفة الأخرى من العالم، هي تعرف سر قوتها عكس الإنسان، وحقيقتها لا خلاف عليها في الحياة كحقيقة الموت.

أثناء السير هدأ كمال، ارتاح، عرف بأن المطعم الذي ينوي أخوه الذهاب إليه غير الذي كان له موقف فيه. لكن، سرعان ما تلاشى الارتياح، استبدل بالرهبة كلما تعمقوا في الطريق الذي يسعى فيه كريم جريًا. شعر كمال بالخوف، كان الطريق موحشًا، ابتعدوا عن مركز المدينة كثيرًا، استقلوا مترو الأنفاق، وبعد محطات ضاع حساب عددها عليهم أشار لهم كريم بالنزول. الحي مظلم، فقير تخافه الشياطين، يصلهم نباح الكلاب من بعيد، تردد كمال قبل أن يسأل أخيه، ثم لم ير بد من سؤاله مشدوهًا:

- هل أنت متأكد بأن المطعم موجودًا هنا؟ وتابع برنة قلقة كمن يسكب دموع العجز: دعنا نذهب إلى مطعم آخر، أنا لا أحب هذه المناطق الخاوية التي تذكرني بمناطق الحرب التي عشتها، أرجوك.

ضحك كريم من تنويه أخيه، أمسك يده، صادحًا من بين أسنانه البيضاء:

- يا جبان. وتقول كنت مقاتل وتقاتل ؟. استطرد جادًا: هناك من أعرفه ربما يساعدكم في الوصول إلى ألمانيا. في هذه الأثناء كانت أنهر - علينا هنا أن نعترف - تلامس آدم وتسير معه خطوة بخطوة ممسكة بيده، هو شعر بخوفها، خوفها الذي كان يختلف عن الذي سطى على أخيها كمال وسيطر عليه، هاجسها كان حبًا وليس خوفًا، رئفة وليس جبنًا، عطف وشفقة وهي تشعر بالظرف الذي يحيط بأسرتها في بلد ليس بلدها، في وقت غير مستقر خارج عن النظام والضبط ليس وقته، في غربة قسرية جبرية بدأت قبل أيام لا يعلم من أمرها كيف ستكون غير الله، كل ذلك جعلها ترتجف ابتهالاً وخشوعًا لخالقها في سرها، رصّ آدم على يدها، همس يطمئنها:

- لا تقلقي، كريم يعرف بالضبط إلى أين ينوي الذهاب؛ ألم تسمعينه، قال، سيعرفنا على شخص يمكن أن ينقذنا ويهربنا إلى ألمانيا، أجده حاسمًا يستغل الوقت بشكل جيد، رجل عملي، يسعى إلى هدفه بشكل مباشر كالسهم. وإذا بصوتٍ متحدي كالصهيل بفظاظة وغلاظة يقطع عليهم وحشتهم يخرج من الظلمة التي انتشرت بسرعة فوقهم:

- من منكم يتنازل معي؟، ثم ردد مرة أخرى: "بوكس. بوكس". وصلهم الصوت بلغة إنجليزية مثلومة. لم يشعر كريم بالرعب عكس الآخرين، التفت نحو الصوت القادم وهو يبتسم:

- تركنا النزالات وحتى التنازل منذ أن وطأت أقدامنا أرض أوروبا، نحن هنا للسياحة، للمتعة ورؤية بلادكم الجميلة. قال ذلك بلهجة رقيقة باللغة الإنجليزية التي يجيدها بشكل رائع. وإذا بمجموعة من الشباب الغجر يخرجون لهم بغتة لا يعرفون من أين يشهرون سكاكينهم اليدوية في وجوههم، يلوحون بها عاليًا طالبين المنازلة بعد أن أصبحوا فجأة سورًا دائريًا حولهم. وهنا تدخل آدم مناورًا كسياسي محنك:

- هه. أنتم يا مذاهيل لا يمكن أن تخيفوننا بهذه السكاكين الصدئة التي لا تجرح طيرًا، انتبهوا، نحن نحمل جوازات رسمية، يعني بكلمة واحدة تكون الشرطة هنا، ثم بذكاء أشار لكريم بأن يظهر جواز سفره الألماني، فهم نسيبه ما كان يبغي آدم الوصول له، أخرج جواز سفره، تحرك لسانه كطاحونة تدور، قال:

- انظروا، ها هو، أنا رجل ألماني، فلا أعتقد بأنكم ستجازفون. قال لهم ذلك برنة حاسمة، قاصمة متعود عليها، الغربة علمته متى يكون ليِّنًا ومتى صلبًا، حاول معهم في البداية باللين والكلمة الرقيقة الطيبة ولم تنفع، آدم ذكّره بما كان عليه أن يفعل. ابتعدوا عن طريقهم، فكوا حصارهم، اختفوا كما ظهروا، أنهر كانت غارقة في دموعها، قلبها كاد يتحطم خوفًا على الجميع، خاطبت نفسها "أرجو ألا تكون هذه الجولة صولة، أن تكون حادثة عابرة يمكن تلافيها بسهولة ونسيانها بسرعة".

أكملوا طريقهم للمطعم بعد أن نشف ريقهم واهتزت أبدانهم من هول المفاجأة وكمال يُصلي الغجر بنظرات شزراء يمتد فيها الاحتقار عميقًا بعد أن صاروا بعيدًا عن مرمى نظرهم كأشباح بثياب سوداء.

• • • •

كان المطعم خافت الإنارة صاخبًا مليئًا بالزبائن، يقع في حي شبه معزول تحرسه الكلاب بين حفنة قليلة من الوحدات السكنية التي تبدو خاوية غير مأهولة من الومضة الأولى كأنها منطقة عسكرية محظورة، متواضع السمعة، قليل النظافة غير

معتنى به كأنه معزول أو مهمل لا يسأل عنه أحد؛ أغلب رواده من القاطنين خارج المجر، يأتون للعمل والتجارة وتبادل المعلومات والممنوعات. فجأة ومن على بُعد هجم على كريم ما أن رآه قادمًا يهم بدخول المطعم مع كمال وآدم وأنهر شخص ضخم الجثة، يتمتع بحنجرة لا تضاهي كحنجرة مشجع فريق كرة القدم العراقي المعروف "قدوري" صوته جهوري يعادل عشرة رجال يصرخون في آنٍ واحد، وقوة صوته لا تتناسب ونحافة وطول أصابع يديه ومن يلقي نظرة سريعة عليها يعرف من توه بأنها أصابع فنان وبالتحديد نحات، لتجزم بعدها بأنه على درجة كبيرة من الذكاء والحذاقة والفراسة، بالإضافة إلى هذا التناقض بين الصوت العريض الجهوري والأصابع الطويلة الرفيعة كأصابع البيانو هناك شيء من الأنوثة والرقة فيه لا يمكن تحديدهما بالضبط، ربما هذا الانطباع يعود لطيبته الغالبة على شخصيته وتصرفاته، الموقف أربك أخوته وآدم، لكنهم سرعان ما اكتشفوا صلة العلاقة بينهما من خلال الترحيب، توضحت الصورة لهم ببطء بعد أن قدّمه كريم على أنه من أعز أصدقائه يدعى جورج من سوريا وهو صاحب المطعم ويتولى إدارته بنفسه. من جديد سادت جلستهم مرح حقيقي، عاشوا لحظات جميلة، حميمية أنستهم ما تعرضوا له في الطريق إلا من منغصات ذلك الشاب العريض السمين الذي يبدو شاذًا جنسيًا يقهقه بشكل متواصل، قه. قه. قه. هأ. هأ. هأ. هئ.هئ.هئ. دون انقطاع أو أخذ النفس كمختل يعبد الشيطان ركعًا تتدلى من على صدره المربوع المنفوخ كصدر الراضعات سلاسل ذهبية ثقيلة تحدث أصوات مجلجلة كلما ارتج بدنه، أو تحركت جثته، تجلس في حضنه فتاة مجرية نصف عارية يلمسها ويدمّسها، يمصها ويلصها، يملسها ويلحسها، يمخط كأنه يتقيأ، يفرك يديه لما علق فيها من مخاط ثم يواصل عضها مثل مجنون يستحق تكبيله بالأغلال من رقبتها التي احمرت وكاد الدم ينفجر منها، يرفع كأس العرق الذي أمامه يرجه ويمجه، يجرع منه ويكرع ما طاب له وشاء، ثم يواصل ما كان ملتهيًا به يقهقه بعنجهية شرسة مستهترة يقبّل فتاته التي تتلوى في حضنه كأفعى تعرف قيمة نفسها وحجم قوتها تتجاوب معه بشكل منفلت لا ترفض له طلب تعض أذنه حينًا وتغطس فمها في فمه حينًا آخر وهي تطلق آهات وتئن كمريض يحتضر.

أشار آدم لأنهر همسًا:

- هل ترين ذلك الشاب الميت من القهقهة وشعر رأسه كنوابض منفلتة؟

- ما له.

- لا أعرف لماذا هو مازال على سطح الأرض يتقلب كبوم عجوز!

ضحكت من وصفه، أدركت:

- ما لنا وله، دعه وشأنه، يكفي ما حصل لنا أثناء الطريق.

- إن تركناه نحن الله لن يتركه، سفيه ويرى نفسه شيئًا، انظري له، عفريت ابن جنيه، ليس هذا فقط بل يبدو ميت الفطنة محشور بالغباء مستهتر، اصدع رؤوسنا بكركراته الصلفة المستفزة المتجاوزة التي لن تنتهي. انتبه لهما صاحب المطعم الذي كان يجالسهم، سمعهم الملعون رغم الصوت الخفيض الذي كانا يتحدثان به، ناح صادقًا ناصحًا ملعلعًا محاولاً جهد إمكانه كظم صوته أو خنقه ولم يستطع إلا بمقدار ضئيل:

- من الأفضل ألا تهتما لأمره، أبوه عراقي وأمه سويدية، يشتغل مع المافيا الإيطالية، يتاجر في كل أصناف المخدرات الموجودة على الأرض، يزرعها، يصنعها، يمجها، يروج لها ويبيعها، نذل، عربيد يقتل الإنسان ولا يهتز له عرق كأنه يقتل ذبابة، لا نستطيع منعه من الحضور، مرغمين على تلبية كل طلباته، نزق لا يفرق بين الصديق والعدو، مصلحته فوق كل شيء وهي التي يعبدها، الغربة يا أحبائي ستعلمكم الكثير، لا تستغربوا من كلامي، سترون العجب، الوهم سيكون هدفكم، ما تسعون إليه اليوم لن يكون إلا حلم من صنع خيالكم، من يترك وطنه مخيرًا أو مجبرًا لن يجد له بديلا حتى لو حفت قدميه جريًا وسعيًا، ومن ثم لماذا أقوم أنا بهذه المهمة التوجيهية؟ هذا كريم عندكم واسألوه، ثم أدار رأسه نحو كمال متابعًا:

- هذا الكلام موجه لك أيضًا، خاصة وأنت مازلت عازبًا، الحرية هنا كبيرة جدًا كنور الشمس الساطع لا تستطيعون التركيز فيه أو مجاراته مدة طويلة وبنفس القوة، يعني كيف أشرح لكم، اسمعوا، الحرية كالشهرة يمكن أن تقتل صاحبها لو ساء استعمالها. أنا من سوريا، تخرجت من كلية الآداب جامعة دمشق قسم الترجمة الفرنسية، ماذا فعلت بعد ذلك؟ لا شيء، لم أجد عملاً يناسب ما درسته والشهادة

التي حصلت عليها طوقتها بإطار ظلت معلقة على الجدار في بيتنا العتيق كطائر محنط لا روح فيه ولا نبض يدق، للفرجة يعني!، كايزرنا مثل كايزركم له نفس الأهواء والطباع، من لا ينتمي ويؤمن بأفكاره يسحق ويطحن مثلما تطحن حبة الحمص، أو يودع الوطن؛. أنا اخترت الرحيل بكرامتي، هاجرت، وجدت نفسي أدير مطعمًا يستطيع أن يفعل هذا أي شخص أمي، لكن الحاجة جعلتني أقبل بالأمر الواقع، رضخت لكنني لم أمد يدي لأحد ولم أنحرف في سلوكي نحو الهاوية أو الحضيض كما ترون بأنفسكم وتسمعون الآن، وهو يصب جام غضبه الأخرس على العربيد الذي ما انقطع عن القهقهة، إلتهم كريم الذي كان بجانبه بنظرة جانبية، شبع منه، ثم واصل بذات الحماس:

في ألمانيا ستجدون الأمر أكثر تضخيمًا، ستكتشفون الناس عن قرب، ستتذكرون كلماتي هذه وتقولون جورج كان صادقًا، احذروا، للغربة أخلاقيات تختلف عما تعلمتموه في وطنكم، الشاعر الألماني والأب الروحي لهم جيته يقول "بسبب الحرية الكبيرة التي تحيط بي وأتمتع بها لا أعرف بعد ماذا أفعل بها؟" هكذا هي ألمانيا، لذلك أقول خذوا حذركم، في الغربة تنشق أنفسنا نصفين، جزء عربي شرقي وآخر أوروبي غير منتمي، المشكلة أين تكمن هنا؟ أجاب على سؤاله مستمرًا: تكمن أن هذين الجزأين لا يكملان بعضهما، يبقيان غريبين لا يتحدان، لا يكونان شخصًا ناضجًا، أقصد، نبقى نذوق الأمرين دون أن نشعر بطعم أحدهما بشكل صحيح، حقيقي يجعلنا نحس بأننا شخص واحد ننتمي إلى حضارة واحدة وثقافة واحدة، لا نصل إلى هذا الهدف المفروض أن يكون طبيعي، سهل الوصول إليه، الغاية التي نسعى كالفضيلة، ستلمسون تلك الغاية التي أتحدث عنها سراب لا ندرك كهنها، هذي هي حياة الغربة التي تنتظرون. ألم أفسرها على أنها وهم؟، ثم زعق ناسيًا نفسه:

وحق ما أعبد وهم... وهم لا أكثر ولا أقل رغم رفعة الإنسان هناك وقيمته تختلف عما نفهمه نحن في شرقنا الغافي على سطح بحيرة الرومانسية التي تشبه رومانسية شعراءنا الجاهليين سابقًا.

قطع حديثه قادم مشيرًا بيده يعرف كريم، صاح مبتهجًا: أبا الكرم كله هنا؟ بالحضن يا طيب. تفاجأ آدم من كثرة معارف نسيبه وعلاقاته الواسعة، الجميع تقريبًا كانوا قد

رحبوا به وهنأوه لسلامة وصوله كأنهم على موعد معه، رجع جورج إلى حديثه الذي قطعه المرحب بكريم، واصل:

- سؤال سيبقى يؤرقكم، من نحن، ولماذا نحن هنا؟. هذا السؤال هو الموت بعينه، لا تستغربوا من فصاحتي، معذرةً، أقصد، صراحتي، ستحتاجون إلى لمّة العائلة الكبيرة، إلى الحب الصادق، الحنان غير الزائف، كل هذا ستقفون عنده، تشتاقون لرؤيته، بل ستتحسرون عليه ولن تجدوه، قدم في أوروبا والأخرى في الشرق، نصفين تكونون كما قلت. لكنني ومع ما قلته أعدكم بتقديم المساعدة، أمسك شاربيه الغليظين القرويين، برمهما وهو يحلف بأنه سيعرفهم على شخص موثوق منه يشتغل بالتهريب على مسؤوليته وبضمانته. قاطعه آدم بإشارة من يده:

- يقال عندنا، اسأل مجرِّبًا قرأ التاريخ جيدًا وشحاذنا خنجره من ذهب، المصيبة التي أراها هو أننا لم نتعلم من حكمة الهنود في الصبر والتأني، شعوبنا لا تعرف غير التذمر وقذف اللوم على الآخرين كتحميلهم المسؤولية الكاملة عن خلق وانتشار الطاعون فينا دون أن يلتقطوا أنفاسهم لحظة ويسألوا أنفسهم لماذا وكيف؟، أستطيع وأنا مسؤول عن كلامي هنا أن أقول، بأنها مسألة ذوق قبل أن تكون ثقافة!.

عدّل من جلسته واستمر:

- الدين اختلط بالتقاليد، لم تستطع شعوبنا التي تعيش التاريخ حاضرًا التفرقة بينهما، اختلط الأمران عليهم، بات مستحيلاً فهمهما، بل أصبح الدين في عرفهم تقليدًا. هذا وحده كافٍ لأن تكون نقمة، مصيبة المصائب، نرى الممنوعات تقابلها المسموحات، المضحك في الأمر هو سرعة تحول الممنوع إلى مسموح والعكس!. واختصارًا يمكنني القول: سبب خراب شعوبنا سببين، العنصرية القومية والإيمان الجاهل الأعمى بالدين، ثم أضاف كمن يستسلم لإلهامه:

- يتصور البعض منا خاطئًا بأن المجنون هو الوحيد الذي يعمل ويقول بجرأة لا نستطيع نحن العقلاء من فعل وقول ذلك!، الحق، هو لأننا خائفون من واقعنا ومن يمثله عكسهم، لا نراهم يحملون ذلك الخوف ولا يردون له أي اعتبار، فمن هو الأعقل والأجرأ في حالتنا هذه، المجنون في عرفنا أم العاقل مننا؟!

انبهر جورج من تصريحات آدم الجريئة التي وجدها أقرب إلى الحقيقة، تسمر في مكانه، لم يستطع مجاراته ولم يرد عليه. أنهر غرقت في سعادتها التي أشرقت على شكل ابتسامة طافت على محياها، هي متأكدة من قوة زوجها.

كريم تنحنح كشخص عاش حياة مليئة بالمكائد يعرف متى يصمت ومتى يتكلم، أخذ زمام الأمور، دار دفة الحديث موجها الكلام لنسيبه بقوله كي لا يصيبهم الملل من أولها:

- سمعت عنك يا آدم بأنك قاص حاذق، تسحر مستمعيك كلما تحدثت، هيا أرنا شطارتك.

سمعه جورج صاحب المطعم فطار لبه، صاح من مكانه:

- ماذا؟ بيننا قاص وأنا لا أعرف؟ كيف هذا يا كريم؟ وأقول عنك أبا الكرم كله!، هذه خيانة... ثم وجه الكلام لآدم مستطردًا: ماذا تنتظر أنت الآخر؟ هيا، ألم تسمعني وأنا اعترف أمامكم بأني خريج كلية الآداب؟ سامحك الله، منذ مدة طويلة وأنا لا أجالس إلا الأميين هنا، أصحاب السوابق، أرباب الأجرام وخريجي السجون، اللعنة، كيف هذا. هيا يا حبيبي، قل لنا شيئًا، اِحكِ لنا ما تجود به قريحتك رعاك الرب وجزاك كل خير، قص علينا حادثة أو قصة تجعل ليلتنا عرسًا أدبيًا.

انحرج آدم، طفح وجه بالخجل، أحمر، غاص بالصمت بدل أن يطوف بالكلام، انتبهت عليه أنهر، أمسكت يده، رفعتها عنوة وقبلتها بحرارة، قالت وهي تعض شفتيها الوردتين بلون قشر الرمان:

- من أجلي يا حبيبي.

هو لم يحضّر نفسه لهكذا مفاجأة، من طبعة هو لا يحب المفاجآت المباغتة، تربكه، تجعله يذوب مثل الشمع، يدوخ، يتطشر فكره، أنهر قالت له من أجلي، حسمت الموضوع بطريقتها، ثقبت جلده برجائها، هو لا يستطيع أن يرفض لها طلبًا، يحتاج إلى جرأة أشبه بالمعجزة كي يعتذر من تلبية رغبة لها، وجد نفسه محاصرًا، مسوّرًا بالعاطفة والرغبة، برقت له فكرة حادثة، لم يكن يتوقع حضورها في وقت كهذا، أسعفته الذاكرة، وربما الموهبة التي لا يتقصدها، الأخيرة لا تتعمد حدوثها، تحل على المرء بأمر من صاحبها، وصاحبها هو خالق الأكوان، من يستطيع أن يتدخل

لمنعها أو انحسارها أو تحجيمها، أو استعمارها أو قمعها؟، تنحنح، ابتسم ابتسامة حلوة رقيقة تعبدها أنهر، طفق بصوت خفيض، خجول يتناسب وطبعه مسترسلاً:

- سأقص عليكم قصة حدثت لي في صغري عندما كنت في التاسعة، أعني، في الصف الثالث الابتدائي؛ كانت ومازالت تعتبر لي حادثة طريفة لا تخلو من شجن، حيث كنت أعيش في عالم لا يعلم من أمره أحد غير الله، أفكاري كانت لي وحدي لا يشاركني بها كائن، لن أسمح بمشاركتي بها أحد، هكذا كنت، طفل منعزل، أعاني الوحدة وسعادتي وحدتي، قليل الكلام كثير الصمت، حتى فاجأني يومًا عند الصباح وبعد الدرس الثاني أستاذ اللغة العربية الذي أحبه كثيرًا يطلب مني المثول أمام مدير المدرسة دون سابق إنذار، مثل هذه الدعوة كانت تعتبر لي حكمًا بالإعدام، قص رقبتي ولا تقول أن أحضر مقابلة أو أمتثل بين يدي مسؤول، ربما تربيتي، خجلي الذي جبلني الله عليه، طبعي، قولوا ما تشاءون، صفوه بما تريدون لكنني هكذا، وما أن نطق الأستاذ بالحكم حتى خارت قواي، ارتجفت ركبي وطقطقت، سابت، اهتزت فرائصي، دخت، شعرت بأني لا أقوى على الوقوف، اختنقت في حلقي الكلمات، ماذا تتوقعون من طفل يحمل صفاتي في موقف كهذا؟، طالب في سنته الثالثة الابتدائية يطلب منه أستاذه الذي يجلّه أن يقف بين يدي ناظر المدرسة؟ هو لم يقف أمام طالب مواجهًا، كيف سيكون والأمر أمام المدير الأحمر الأقرع الطويل النظيف الذي يبدو دائمًا يلمع؟ أمر مستحيل، لا يمكن لي مواجهته، عرعرت محاولاً الكلام ولم أقدر، شعرت بأن أذني التصقت في رأسي، قلت محدثًا نفسي لحظتها " لابد وأني سأموت في مكاني، كانت لي رغبة في الهروب والارتماء في حضن أمي التي أحبها أكثر من أي شخص آخر في العالم، لكن من هذا الذي يسعفني ويجعلني أزوغ وأهرب إليها؟ لا أحد، لم يساعدني أحد، بقيت سارحًا، متصلبًا، متسمرًا في مكاني كشخص أصابه الانجماد حتى لكزني المعلم بعصاه وهو يلبس قناع الخبث فجأة:

- ماذا يا آدم؟ أراك لا تريد تحقيق رغبة مدير المرسة!، سيزعل عليك، أنت تعرف وتقدر ماذا يعني أن يزعل ناظر المدرسة من تلميذ، أليس صحيحًا؟ أنت ولد شاطر، طالب مطيع، والمدير يريد لقاءك، هيا. هو في انتظارنا.

كلمات المعلم جاءت على ما كان فيّ معافا، جفَّ عقلي، الشيطان ساعتها يعرف ما كنت أفكر فيه، كنت ميتًا، لا شيء يدق ويطق في جسدي، ارتعدت، أنا عبد الله الفقير يطلب منه لقاء المدير، وإذا بيد المعلم تسحبني من كتفي دون إرادة، مشيت خلفه كما يساق المحكوم لساحة الإعدام بعد أن تركنا الصف بيد المراقب المشاغب الذي يدعى خماس كان قصيرًا بدينًا أسمر يميل إلى الاحمرار يخافه الجميع وأولهم أنا، ما علينا، لنركز بما سيحصل وما وقع، كنت في حالة لا أحسد عليها، منهارا تمامًا، لا أستطيع حتى البكاء وهذه هي كانت أصل المشكلة التي كنت أعاني منها لحظتها، لو استطعت النحيب أو البكاء أو الصراخ لهانت أموري كلها ولفرجها الله، لكنني لزمت الصمت كشخص ميت فارق الحياة منذ أسبوع، ماذا تنتظرون من شخص يشعر بأنه رحل عن العالم منذ أسبوع؟ لا شيء، كنت حجرًا والمعلم يشير لي بيده النحيفة أن أنتظر أمام باب غرفة المدير حتى يؤذن لي بالدخول، طالت إقامتي هناك، لو رأتني أمي لحظتها وأنا مقرفص أمام الباب ذليل أشعر بالرعب يأكلني لقالت، لماذا تشحذ بهذه الطريقة المأساوية يا ولدي ؟!، هكذا كنت في انتظاري الجبري حتى جاء الفرج، فتح المعلم الباب وخرج مبتسمًا كأنه لم يحاول قتلي ولم يشترك بالجريمة، نادى عليّ المدير بصوت رخيم تهابه العفاريت، تقدم يا آدم خطوة، ادخل، لماذا أنت هكذا؟ نحن لا نريد بك السوء، تفضل، كانت الزمرة تستمع لآدم وهم مأخوذين كالمسحورين لا يتحركون مشدوهين ينتظرون نهاية الفاجعة التي يتوقعون، تابع آدم قصّ حكايته:

يقينًا بلا شكوى، دخلت متأوهًا متعثرًا بخوفي قبل أن أتعثر بخطواتي، كان كل شيء فيّ يصرخ إلا لساني، فإذا بالمدير يقوم بطوله ويقترب مني، هنا، غرقت ببحر خوفي، لا أعرف لماذا، قلت لنفسي، هذه لابد وأن تكون نهايتي، اغمضت عيني، لم أعد أذكر إن كانت ملابس تغطيني، كنت أشعر لحظتها بأني عارٍ لا أرتدي أي شيء، ومن ثم لماذا أدعي بأنها كانت ملابس؟ الحقيقة هي أن ما كنت أرتديه مجرد أسمال بالية خيطت بطريقة ساذجة بسيطة من قبل أمي التي تحبني كثيرًا، وهذه الأسمال هي التي كانت طوال السنة الدراسية تحميني من حر الصيف وبرد الشتاء، ما كان على بدني أخجل منه خجلاً مقيتًا لا يوصف، بل أخجل من وصف خجلي فكيف أرثي ملابسي؟ المهم، شعور عجيب يا جماعة انتابني وقتها لم أشعر به من

قبل ولا أريد أن أجرّبه مرة أخرى، أبعدكم الله عنه، الخلاصة، أصبح المدير فوقي، طوقني بطوله، نبر:

- اخترناك يا آدم على أنك أهدأ طالب في المدرسة، وعليه سنقدم لك هدية في رفعة العلم قبل الحصة القادمة وأمام جميع الطلاب عبارة عن علبة بسكويت ماركة الهلال الطيبة، ثم بعد أن توقف لبرهة لجس وقع كلماته عليّ أضاف: حضّر نفسك للمواجهة، سنناديك وقتها لتظهر أمام الطلاب والمعلمين كي تستلم جائزتك التقديرية، والآن إلى صفك.

انقلبت جلستهم إلى ضحكات مجلجلة ارتفع صخبها أكثر مما كان يحدثه الملعون تاجر المخدرات بقهقهاته بصحبه الفتاة المجرية شبه العارية، وأول من صاح مثمنًا جورج كمن ينوي غسل سمعته، يفرك يديه، يصفق ساطع العينين إعجابًا:

- الله عليك يا آدم، أحسنت، رعاك البارئ وحفظك، نشفت حلوقنا من المتابعة، حبست أنفاسنا نريد أن نعرف على ماذا ستنتهي القصة، ما هذا؟ إنك قصاص ماهر حاذق تجيد هذا الفن بشكل رائع، لا أريد أن أسميه حرفة، سأنتقص من فنك لو قلت هذا... ثم تابع بعد أن بلع ريقه الناشف وهو يجيل بصره في الحلقة التي حوله:

- بحق رب السماوات والأرض اسمع، درست الأدب الفرنسي، أجيد الإنجليزية أفضل من الفرنسية التي درستها، قرأت الأدب العربي، الرب وحده يعلم كم ولمن قرأت، ومن الأدب العالمي ما يوازي العربي وأكثر، إذن اسمح لي بقول رأيي دون مبالغة: أنت مبدع، بارع وتمثل المدرسة الواقعية الكلاسيكية الخالدة التي ستعيش فينا غصبًا عنا إلى ما شاء لها ربنا الذي في السماء لأنها تمثل واقع الإنسان، أحزانه وأفراحه، صبره وسعيه وكل ما يحصل له من حوادث وفواجع على الأرض، لذلك، ستبقى هذه المدرسة حية، ناطقة، معبرة عما يعتمر الإنسان من آلامٍ ومآسٍ، ملذات ومسرات لن تموت كالطبيعة وأنت صورت لنا للتو على أنك أحد رموزها، عمود من أعمدة أركانها دون مواربة. مص شفتيه، لمظها، ثم أضاف متحمسًا، مستعرًا أكثر من ذي قبل كمن طاش صوابه:

- ما هذا يا رجل؟ أنت كارثة أدبية، أرجعتني إلى قراءاتي القديمة تلك التي صنعتها مدرسة ديكنز الإنجليزية، الروسية على يد دوستويفسكي التي سبقت تحليلاته النفسية سبعين سنة نظريات فرويد، مدرسة جون شتاينبك الأمريكية. هذا ما شعرت

به وحق ما أعبد. تستمع أنهر له مأخوذة اللب، سعيدة لهذا الثناء الذي تجده حق طبيعي لزوجها، حبيبها الذي تعشقه بكيانها مع كل قطرة دم تسير في شرايينها.

تدخل كريم شارعًا، ضاحكًا يسأله:

- وماذا فعلت بالبسكويت يا هادئ؟

بصدق وهو يضحك دون تردد كالطلقة:

- أكلت نصفه والنصف الآخر بعته لأطفال الحي. ثم عج الضحك من جديد كموجة صاخبة لا تحب إلا أن تكون حرة على هواءها لحظتها. وكمال ما انقطع نابصًا بين آونة وأخرى متأثًا كمن يعاني من فساد الذوق بعد أن طق صبره يذكّر أخيه بوعده على أن يحضروا عرض الفلم الذي كان يرغب بمشاهدته، وكان له على الدور الأخير في الساعة الحادية عشر ليلاً، وهو يشعر بميل كبير نحو أخيه كريم معتقدًا بأنه قد أصبح له مكانه خاصة في قلبه، محل ثقته ومستودع أسراره.

obeikan.com

(٨)

من يعرف الناس على حقيقتهم يشكر الله على وحدته وعزلته. الطيور تُعرف من رشيها. هناك نوع من البشر إذا لم يتملقهم أحد تملقوا لأنفسهم مقتنعين بأنهم يستطيعوا أن يفعلوا ما يفعله الزلزال بالأرض.

عند صباح اليوم التالي وأثناء تناولهم الفطور قرر كريم أن تكون الأيام القادمة عملاً متواصلاً بغية إيجاد طريقة آمنة يصلون فيها ألمانيا هدفهم الذي من أجله هربوا تاركين الطاعون خلفهم ينهش في بلادهم بعد أن سألهم عن الشخص الذي أجرَّ لهم الشقة وعبرَّ عن رغبته في التعرف عليه.

كانت وجهتهم محطة القطارات الرئيسية لبودابست. كريم يعرف الطريق جيدًا لا يحتاج إلى خريطة. وفي ركن مكشوف وجدوا سامح المصري وسط حفنة من الشباب العربي المقيم في هنكاريا يتناقشون كعادتهم بالسياسة بصوت عال كأنهم دهاة يفقهون في كل شيء، اقترب آدم من سامح طالبًا منه الحديث على انفراد.

كريم لا يحتاج إلى وساطة كي يتعرف على شخص جديد. خبرته في حياة الغربة علّمته كيف يصنع الحديث مع الآخرين، يديره بشكل إنساني حرفي رائع قل نظيره. نراه يضحك، يتكلم، يناقش، ويرطن بلغات أجنبية عديدة، التركية، الإسبانية، الإيطالية، الإنجليزية، الألمانية بالإضافة إلى لغة الأم العربية؛ ثقافته لا يستهان بها، عليم في دخائل النفوس فهيم بها، لذلك كانت علاقاته واسعة يحبه الجميع، وسامح بالنسبة له شخص سهل يمكن مجاراته لتخفيض سعر إيجار الشقة من جهة التي وجدها مرتفعة الثمن ومحاولة جس نبضه إن كان يستطيع مساعدة الزمرة التي معه بغية الوصول إلى ألمانيا من جهة أخرى. أراد أن يفعل ذلك رغم وعد جورج إليهم، كريم هكذا، يسير في أكثر من طريق كي لا يغلب.

سامح رجل شاطر يحب الرزق. قال، طلبكم عندي، أشار لهم واعدًا : بعد ساعة نلتقي في مقهى لوندا على ناصية الشارع العام العريض الذي تكنسه الرياح طوال فصول السنة الذي يؤدي إلى مركز المدينة لو استمر الشخص السير قدمًا في نفس

الاتجاه. كريم رحب بالفكرة، أعجب بشخصية سامح اللطيفة، وسامة الأخير جعلته يُحب بسرعة بالإضافة إلى لباقته وحسن تدبيره وبساطته، شرع كريم راطنًا بأنه يعرف تلك المقهى جيدًا كما يعرف العاملين فيها، من صاحبة المقهى التي هي سيدة مجرية محترمة إلى أصغر عامل في المقهى. سامح استغرب هو الآخر من معرفة كريم الجيدة وعلاقاته الأخطبوطية الواسعة وكأنه في ألمانيا وليس في المجر.

غادروه طائرين من الفرح سعداء بالنتائج التي توصلوا إليها وبهذه السرعة، مضوا ببطء سائرين حيث مقهى لوندا العريقة ذات الواجهات الزجاجية الكبيرة المطلة على جزء كبير من معالم المدينة.

• • • •

ما أن وطأت قدما كريم أرض المقهى حتى ذهب مباشرةً كسهم يعرف طريقه إلى السيدة التي كانت تجلس وراء طاولة عالية الستار، صنعت من الساج تلمع، صاحبة المقهى ملتهية بمحادثة أحد العاملين عندها، وما أن وقف كريم فوق رأسها، قامت من مكانها فاردة طولها الملفت، صاحت مبتهجة بالألمانية التي تجيدها:

- منْ، سيد كريم هنا؟

حضنها ضاحكًا وهو يقبلها من وجنتيها هاسًا:

- ومن يكون غيره يسأل عنك يا حلوتي ؟. والمجموعة التي معه فاتحة فاهها مستغربة التقبيل والعفوية التي يتصرف بها كريم أمامهم دون خجل أو حساب حتى التفت كمال نحو آدم يسرّه:

- هكذا هي حياة أوروبا، لعب على جد.

- قل إنسانية حقيقية لا خداع فيها.

كمال امتعض من قول نسيبه، لم يعجبه رده، بربر حانقًا متلبدًا كشخص مجروح الكرامة:

- مغرور يرى نفسه شيئًا!.

آدم لم يسمعه، وحتى لو سمعه لن يرد عليه، زوج أخته له أفكار وطبائع وميول لا يفهمها كمال ولا يريد أن يصدقها، فلماذا يزعج نفسه معه. هكذا كان آدم على كل

حال ولو لم يصرح بمشاعره تلك، لكن أنهر كانت تعرف تلك الهواجس والمواهب التي يمتلكها زوجها وتعترف له بها. كريم كان في وقفته مشغولاً يتسامر مع صاحبته في أمور لا تفقهه زمرته منه شيئًا، انتبهت صاحبة المقهى عليهم، سألته:

- من يكونون؟

قدمهم لها قائلاً:

- هذا نسيبي آدم زوج أختي هذه التي ترينها أمامه كالفراشة الهائمة أنهر، وهذا الصنديد العنيد أخي كمال القادمين للتو من بلاد الرافدين، أضاف ساخرًا: طازجين لم ينبت لهم بعد ريش في الغربة كما تريهم، من يدك هذه إلى يدك الأخرى، عجينة يعني. رحبت بهم بحرارة كعادة المجريين، اتخذوا موقعهم بصحبتها في ركن يطل على ساحة المدينة الواسعة، جلسوا حول طاولة مستديرة، نادت على أحد العاملين عندها للاهتمام بطلباتهم، غادرتهم راجعة إلى مكانها خلف الطاولة ذات الستارة العالية تراجع حساباتها بعد أن سرقت قبلة من خد كريم وهي تسقط في أذنه كلمات لم يسمعها غيره قافلة إلى محلها.

استغلت أنهر الوقت سائلة أخيها عن ألمانيا، ظروف أخيها، عمله، علاقاته، حياته الخاصة، وطبيعة الأمور ومجرياتها هناك. هي لم يسنح لها الوقت من قبل أن تسأله في أمور عميقة كهذه. تنحنح كريم، أرجع رأسه إلى الوراء، أطلق حسرة كالآهة، قال:

- أحبتي الغاليين، دميتي الغالية أنهر، لا أريد أن أمدحكِ، أنت شعلة من الذكاء المتقد، تكمن وراءك شخصية قوية، أتوقع بأن هذا سيساعدكِ في بناء أسرة راقية، سليمة، نظيفة تكونين فخورة بها كما آدم، هذا ما أراه ماثلاً أمامي منذ اللحظات الأولى التي رأيتكِ فيها وعرفت آدم عن قرب فتوصلت لقناعة بأنكما والحال هذا لن أخاف عليكما في ألمانيا عندما تصلون بالسلامة وتبدأن برسم وتخطيط حياتكما كما تشاءان، ما أطلبه منكم الآن أن تعوا لما سأقوله جيدًا... رصَّ لاصقًا ظهره على مقعده، تابع خطابه:

- ألمانيا خاضت حربين عالميتين مدمرتين، شعبها ذاق عذابهما وعاش ويلاتهما، لكن، بصبرهم، عنادهم وذكائهم استطاعوا أن يبنوا بلدهم كما كان قبل الحرب وأفضل. هذا لم يأت عن فراغ، بل بالعمل، بالعزيمة، باحترام الزمن، بتقدير قيمته

الحقيقية ومعرفته تأثيره على حياة الإنسان. لهذا الشعب طبائع سوف لن تستسيغوها بسهولة، أنا متأكد مما أقوله، ستبقون تعانون، وربما تنسحبون من أجوائهم يومًا بعد آخر حتى يأتي اليوم الذي ترون فيه أنفسكم تعيشون من أجل أسرتكم فقط دون الألمان. السبب كما نوهت، صعوبة الطبائع التي يحملونها المعقدة، أجواء الحربين وما صاحبهما هي التي خلقت فيهم تلك الطبائع التي ستصدمون بها ما أن تقتربون منها. ساعة تجدونهم أناس لا نظير لهم مثل ملائكة نازلة من السماء، وساعة ترون فيهم كل رذائل البشر مجتمعة فيهم. شعب دقيق، غريب، عجيب، صعب المراس ولهم صبر لا مثيل له كصبر الآلهة لا يملون ولا يتكدرون حتى مبتغاهم يصلون كآلاتهم التي يصنعونها بأنفسهم، هكذا هو الشعب الجرماني. ستجدون مسألتين غاية في الوضوح لا تخطئهما العين السليمة، الأولى راقية جدًا والأخرى مزعجة لا تطاق. أولها وعندما يحاول المرء هناك عبور أحد الشوارع ستقف السيارات للعابر فجأة دليل الاحترام والرقي لقيمة الإنسان، هذا لا جدال فيه. الشيء المقيت الآخر هو شعور الشخص الألماني بالخوف من الأجنبي قبل أن يعرفك، ولو صادفك وأنت تسير خلفه بالصدفة سيقف، يتجمد في مكانه لا يبارحه ولن يستمر بالسير إلا بعد أن يتأكد بأنك أصبحت أمامه، سيحاول بشتى الطرق بأنه لا يلفت الانتباه لما يفعله، لكن أمره سيكون مفضوحًا. هذا أسوأ حالة ستصادفكم هناك، ستسبون الكون الذي تعيشون فيه كلما صادفكم ذلك. أما عن الحياة العامة يمكنني تلخيصها بالتالي:

النظام هو السائد، دوائر الدولة لها قوة لا يستهان بها، القانون فوق الجميع، من يخطئ يحاسب مهما كان دوره أو مكانته في المجتمع. الحرية مباحة حد اللعنة بشرط أن لا تستغل غيرك أو تتعدى عليه، وقتها يشهر القانون سلاحه في وجه المذنب يقول له قف هذا حدك، فإن كان الذنب مقدورًا عليه يكتفي القانون بالغرامة المالية، وإن كان كبيرًا فتأخذ منه حريته التي كانت بحوزته لأنه أساء استغلالها. هكذا هو جوهر نظام البلد، يمسكون الناس ويجعلونهم يسيرون على طريقهم كالقطار على سكته لا يحيد عنها أو يميل وإلا فما نوهت عليه وذكرته من عقاب سيكون في الانتظار. يستطيع المرء أن يدرس، يعمل، يفعل ما يشاء بشرط أن لا تسيء للآخرين، أن تلتزم باللوائح والقوانين...

قاطعته أنهر بلهفة ما أن سمعت المقطع الأخير وهي تنظر جانبيًا لزوجها بنظرة ذات مغزى:

- هذا يعني بأنني سأستطيع أن أكمل دراستي لو أحببت؟ وأضافت بصدق: أخذت من آدم وعدًا بذلك لو سمحت الظروف.

مبتسمًا تابع كريم:

- بالتأكيد؛ لا شك في ذلك. الإنسان هناك يستطيع أن يحقق أمنياته وقتما يريد لو كان يقدر على تحقيقها، النظام والقانون يساعدانه ويقفان بجانب هذا الشخص إلى أبعد الحدود، رغبات الإنسان هناك لها دور كبير في رقيهم وتقدمهم، يؤمنون بقناعة بأن الرغبات وخاصة الفكرية والعلمية منها تخلق الإبداع وتحقق المعجزات، لم تولد الاكتشافات والاختراعات إلا من رحم الرغبات والأمنيات، الطموح والتحدي، العمل والصبر والتحمل، ولا أعرف في العالم من خلال سفري الطويل الكثير شعب مثل الشعب الجرماني يحمل هذه السمات ما عدا الياباني فهو يعتبر المنافس القوي لهم من حيث الطبائع والميول في العمل والحياة. ولم يكمل جملته، قاطعه الظلال الذي خيم فوقهم كليل لا يدرك المرء كنهه بوقوف أربعة أشخاص على رأسهم فجأة كالقدر. فساد الصمت الجميع لبرهة.

• • • •

سامح كان أحد هؤلاء الأربعة بصحبة صاحب المطعم جورج ذي الصوت المجلجل وثالث لا يعرفونه. كان رجلاً أبيض، متوسط الطوال، معتدل السمنة، بوجه دائري وسيم مفرح يشع نورًا لنظافته بلحية قصيرة مشذبة بحرص ومهتم بها، يرتدي بذلة رصاصية غالية الثمن أو هكذا تبدو لأناقة موديلها وحلو قماشها التي صنعت منه. والرابع كان نحيفًا طويلاً مثل نهر الجحيم، عرف عن سلوكه بين الجالية العربية في بودابست بأنه كالح المزاج، شرس الطبع، لاذع اللسان مقرع، منفر، يدوخ عشيرة بكاملها إن تفاصل معهم في شيء ما، يتمتع بقدرة عجيبة على التحمل، أعصاب من فولاذ وقلب من صخر، له عينان نهمتان تأكل من يقابلهما يعلوهما حاجبان عريضان مقوسان يشبهان مناجل الحصاد كأنهما لشيطان رجيم، يدان أبيض من لب الخيار اسمه كاسب ينحدر من أصول تركية.

رحب بهم كريم بلسان منطلق كعادته:

- حلّت علينا البركة، أهلاً وسهلاً. تفضلوا.

بصوت جهوري انطلق جورج متحدثًا:
- هذه تسمى خيانة يا عم كريم؛ لقد وعدتكم بأن أساعدكم، ثم أراك تسأل غيري كأنني من الكاذبين!، كيف هذا؟. لا. لا يا أبا الكرم، لا أصدق بأنك فعلت هذا. قاطعه كريم برزانة حاسمًا سوء الفهم قبل أن يتطور:
- لنتعرف أولاً على صديقينا الجديدين وهو يشير بيده إليهما، ثم أقول لك بالضبط لماذا فعلت هذا.

كبحر يبدو للناظر بلا هدف عرّف الملتحي عن نفسه دون أن يسمح للآخرين بتقديمه، قال:
- أنا علي، من سوريا. أحمل الجنسية المجرية. متزوج من إحدى بناتهم. أعمل محامي لكل القضايا الإنسانية، ثم غامزًا: وقضيتكم التي سمعت عنها اختصاصي، ختم جملته بقوله: هذا زميل كفاحي كاسب. عظيم صاح كريم، طلب من النادل أن يلبي طلباتهم، وبعد أن تم له ذلك توجه بحديثه إلى جورج بالتحديد:
- اسمع يا صديقي العزيز، ليست هناك أي خيانة ولا نفكر نحن بهذا الشكل وإلا ما أسرك على أمورنا الخاصة؛ الموضوع وما فيه هو أني مرتبط في ألمانيا بأعمال غاية في الأهمية، لابد من الرجوع بأقصى سرعة ممكنة، عامل الزمن هنا أكثر شيء أفكر فيه، لو قلت لي سيخرجون الأولاد اليوم، بل الساعة لوافقت على طلباتك كلها، لكنك قلت، أعطني يومين أسأل وأتحرى ثم أعود إليك بالجواب، حصل، أم لا ؟ قلت لي ذلك، أم لا؟ فأين هي الخيانة، عندما أبحث عن شخص يساعد الشباب في وقت قياسي قصير ؟ المال ربما يأتي بالمرحلة الثانية، ففي كل ساعة أخسر أكثر مما ستطلبه بعد يومين، هل فهمت الآن يا جورج؟.

عاط الأخير مقهقهًا هأ. هأ. هأ. ناسيًا نفسه وبدنه كله يهتز وبعد أن هدأ اعتذر، سامح ما انقطع عن الابتسام بوجهه الوسيم السمح، وكمال يهمس في أذن نسيبه آدم كلمات لم يسمعها غيره، أنهر صامته تتابع مجريات الأمور بهواجس مختلفة هاجمتها وانتابتها فجأة، متناقضة بين الفرح والحزن، بين الخوف والرهبة وشيء من الأمل. ثم بدأوا حوارهم، لعلهم يتفقون.

(٩)

الحكمة الطاوية على لسان لاوتسه، تقول : قد يُرمز للعدم كبداية للكون، ويُرمز للوجود كأم لآلاف الكائنات، ومن منطق العدم قد ندرك رقة الكون، والفضيلة هي الغاية التي يتوجب السعي إليها، من الطين صنعت الجرة، ولولا خلوها لما احتوت.

انتظر علي حتى أتمَّ كريم كلامه. إذ شرح الأخير لهم ما مطلوب منهم وما ينتظرهم، سرعة وسلامة وصول أخته وأخيه وآدم إلى ألمانيا حيث يقيم هو كل ما يريده وما يحب الوصول إليه، المال يأتي بالمرحلة الثانية بشرط عدم الاستغلال. عرف عن كريم هذا الطبع، سخي، كريم معطاء ما لم يحاول أحدهم استغلاله ولو تم ذلك أو شعر به ينقلب النقيض، يكون نمرًا جريحًا، شخصًا آخر، يستطيع أن يفعل أي شيء يمنع كارثة الضحك عليه، لا يطيق هذا الشعور، لا يتحمله، لذلك أنهى كلامه معهم وهو ينوه عنه بصريح العبارة، كل شيء إلا الاستغلال قال لهم خاتمًا كلامه. عندها فقط تدخل علي هامًا بالكلام، قال وهو يسرق نظرة خاطفه من زميل عمله كاسب:

- عرف عنا بالأمانة والمصداقية؛. خبرتنا وتجربتنا بهذا العمل علمتنا كيف نكون أمناء مع زبائننا. ما نعدهم به نحققه لهم. لا نستلم شيئًا إلا بعد التأكد من وصولهم، ماذا تطلب أكثر يا كريم؟ أنت تبقى معنا حتى يصلنا اتصال هاتفي منهم، تتأكد من ذلك بنفسك ثم تعطينا حقنا، أضاف بعد أن فرش ابتسامة لامعه على شفتيه:

ها. هل يرضيك هذا؟

- كل الرضا، لنتفق إذا على المبدأ ثم الخطوات.

تدخل هنا جورج موضحًا:

- عليك أن تعرف يا كريم بأن ما يقوله علي يسري علينا جميعًا، أقصد، نحن شركاء في العمل، وسامح معنا. همهم سامح كاسرًا طوق الصمت الذي كان يغلفه:

- نعم يا كريم، ما قاله جورج صحيحًا، يتوزع العمل علينا نحن الأربعة، هناك من يهتم بتحضير الجوازات، وآخر بتقليبها، أعني، الاعتناء بها وتغير الصور ووضع الأختام والفيز المطلوبة وما إلى ذلك، ومن يعتني بالسائق الذي سيخرج معهم ومن سيبقى معك والمال الذي سنتفق عليه حتى وصولهم بالسلامة بإذن الله.

كانا آدم وأنهر يستمعان إليهم بكل حواسهما، هما لم يحدث وأن حضرا جلسة مثل هذه وبهذه التفاصيل الدقيقة حول عملية تهريب لأشخاص وبهذه العلنية التي يتحدثون عنها دون خوف، كمال ظل ساهمًا، يزرع نظراته في الموجودين دون أن يتجرأ على النطق أو التدخل. حسم كريم النقاش أخيرًا بقوله:

- المطلوب يا جماعة؟. ما هو المطلوب بالضبط؟

بجلسته تقدم بجثته نحو الأمام ولأول مرة همَّ كاسب بالكلام كمقاتل شرس متأثر بالجراح:

- نحتاج من كل شخص صورة حديثة وألف وخمسمائة دولار. سيأخذهم سائق مجري من هنا بسيارة خاصة مرسيدس سوداء لا يمكن الشك فيها بعد أن نتفق على كل شيء، ثم يمر بالنمسا دون أن يتوقف ويدخل الأراضي الألمانية حتى يصلون إلى مركز مدينة ميونخ، هناك يجعلهم يتصلون بنا يطمئنوننا على سلامة وصولهم بأي إشارة يرونها أمامهم كأن تكون اسم المحطة الرئيسية للقطارات، وقتها تسلمنا أنت الأمانة بعدها فقط يتركهم السائق وشأنهم. هذا مجمل ما نفعله غالبًا مع زبائننا، لو وافقتم أعطونا خبرًا وسامح سيكون وسيطنا، خذوا وقتكم للتفكير، يمكنكم السؤال عن غيرنا، نحن لن نزعل، العمل عمل.

بعد أن أنهى كلامه وقف بطوله المرعب ثم تبعه الآخرون زملاء عمله وهم صامتين كأنهم كانوا ينتظرون إشارة منه.

• • • •

بعد أن غادروهم سألهم كريم بصراحة:
- كم معكم من مال؟ هل يكفي لوصولكم؟ سمعتهم طلباتهم بأنفسكم؛ كل شخص ألف وخمسمائة دولار، هل تملكون هذا المبلغ؟ ثم أضاف وهو يمسحهم بنظرة مشفوعة بابتسامة رقيقة عذبة: لو أردتم النجاح لا تسهلوا البدايات.
نظر آدم إلى أنهر قبل أن يسمح لنفسه بالحديث. أنهر شعرت بذلك، فهمت ما كان يدور في مخيلة زوجها وما يقصده من نظرته، حبهما الصادق من الأعماق كان وسطًا كالماء كفيلاً بنقل أي إشارة يتهامسان بها، هذا التناغم الرباني سيسير معهما طوال حياتهما، هبة الله لهما هو هذا التفاهم من غير كلمات، لا يحتاجان إلى لغة تعبر عما يرغبانه، تمتمت أنهر قائلة:
- الحق يا كريم بأن ما نملكه لا يزيد على أربعة آلاف وخمسمائة دولارًا. هذا ما خرجنا به، صرفنا منها لحد هذه اللحظة ثلاثمائة ما بين عربون الإيجار والأكل والشرب والمواصلات. لابد أن نحاول معهم في تخفيض السعر، أرى الطريقة رائعة، فقد قال، بأننا سوف لن ننزل من السيارة حتى وصولنا ميونخ، أجد الوسيلة المتبعة لديهم مريحة وأمينة لا نقاش فيها.
ثم وجهت الكلام لأخيها تسأله:
- ما رأيك أنت يا كمال؟
بحماسة منفلته كحماسة مخترع أمام خلق جديد من إبداعه، منفعلاً بطاقة تشبه الطاقة الموجودة في البارود المشتعل أجاب:
- في حوزتي ألفان لا أكثر. نقصت في اليومين الأخيرين مائة وخمسين دولار. لو كانت الأمور ستسير على هذا النحو أو في حدود ما نملك أكون موافقًا، جاهزًا ومستعدا.
- على بركة الله إذن، قال لهم كريم ذلك وتابع: سنحاول معهم مرة ثانية، المفاصلة في الأسعار جزء من طبيعة عملهم، وإذا رفضوا أعرف رجلاً تركيًا عنده مكتب في وسط المدينة يساعده شخص من الهند يعملون ويؤدون نفس الخدمات، سمعتهم مقبولة، لكنهم يترددون كثيرًا، أظن أرخص من الجماعة لكن عملهم غير دقيق كما نوهت، والدقة هنا مهمة، من أين لنا فراشة أخرى مثل أنهر لو طارت من بين أيدينا بسبب سوء تصرفهم لا سمح الله ؟، ثم أطلق ضحكته الجميلة العذبة، شاركه

الآخرون على نفس الوزن والوتيرة وذات السلم الموسيقي في هواه، هى.هى. هى. ثم رفعوا جلستهم.

• • • •

المثل الشعبي الروسي الجميل يقول، الليل يحمل النصح.
كريم يعجبه هذا المثل كثيرًا، ويعلم كذلك دخائل النفوس. أشار لهم بالتروي مزيدًا من التفكير في العرض الذي تلقوه من جماعة سامح رغم ضيق وقته، هو يعرف مسالك هؤلاء الذين يعملون في التهريب جيدًا. استهلك من عمره ردحًا في لبنان قبل مجيئه ألمانيا، هناك عرف أمورًا كثيرة، تجربته في تلكم الأيام زادت من خبرته، صقلت مواهبه، علمته كيف يكون الصبر وقت الحرج، السكوت وقتما يكون أغلى من الذهب، والحديث وحسم الأمور حين تولد ساعتها، هو مغرم بالأمثال الشعبية، غالبًا ما يردد على سامعيه: (لا تقل للدجاجة "كش" اقطع أرجلها) (•). أشار لهم بزيارة المكتب في وسط المدينة قبل أن يحين وقت الغداء. وافقوا على رأيه. يعرف الطريق جيدًا، ما هي إلا عشرين دقيقة حتى كانوا مزروعين داخل المكتب، جالسين أمام طاولة عريضة سرقت من الغرفة نصفها ووراءها جلس رجل مكرّش بدين يبدو من الوهلة الأولى لا هم له غير الأكل والشرب وهذه كل ما يتمناه في الحياة.
على رأسه وقف رجل نحيف شديد السمره كغراب البين عرفه كريم مباشرةً شريك البدين الهندي الذي حدثهم عنه. استطاع التركي المكرش بعد جهد جهيد أن ينهض، رحب بالضيوف وهو على علاقة ومعرفة بكريم من قبل، صاح بالتركية التي يجيدها أخيهما:
- أرقدش مرحبا، هوش كَلدن (•)
- مرحبا، هوش سني كوردم سفندم (•)

(•) تفسير المثل الشعبي : لا تنهر الدجاجة في كل ساعة ثم ترجع إليك. قص أرجلها فتمتنع
(•) أرقدش ، هوش كَلدن : أخي ، أهلاً وسهلاً
(•) هوش ، سني كوردم سفندم : أهلا ، سررنا بك.

- ناسيلزين؟ (•)

- أي تشكر أديريم (•)

ثم بدأ كريم بالحديث معه دون أن يعرّفه على مجموعته، يعلم علم اليقين بأن الوضع هنا ومع مثل هذا الرجل يختلف، لا يكشف كل أوراقه، الحذر واجب، يؤمن بهذه المقوله، هو لا يخاف على نفسه بل على آدم وأخوته، لذلك التزم الصمت حيالهم ولم يقدمهم له. استطرد هامًا بالشرح وهو يلقي بنظره بين الحين والآخر على الهندي الرفيع الذي يشبه عصا النداف بوقفته المقوسه كخدم الملوك على رأس المتين الجالس خلف الطاولة:

- لطفًا أرقدش، المسألة وما فيها هناك أشخاص ينون الوصول إلى ألمانيا، أعرف بأن لك إمكانية التحرك، أثق بعملك، علاقتنا وطيدة منذ سنوات، لم أقصر في طلب كنت قد كلفتني به من قبل، لا أريد أن أذكرك بما فعلته من أجلك، لا أنتظر رد الجميل لا سمح الله، بل نحتاج إلى مساعدتك وبأقصى سرعة ممكنة، بعد وقفة أضاف: ها. ماذا تقول؟.

جلجلت ضحكته الخبيثة الماكرة التي تثير في النفس الاشمئزاز، انتشرت في المكتب كصوت الرعد، صدره يهتز وهو يدمدم:

- أرقدش، أنت تعرف معزتك عندي، نحن أصدقاء منذ سنوات طوال، لا حاجه بك أن تشرح لي ذلك، طلبك مستجاب من غير نقود، ثم واصل ضحكته والهندي يهز رأسه يمينًا وشمالا موافقًا على ما يردده شريكه بالحرف. قاطعه كريم بقوله:

- أعرف شهامتك وكرمك، المثل الإنجليزي يقول، عش وأجعل غيرك يعيش، أنا لا أقبل أن تساعدنا وتؤدي لنا هذه الخدمة مجانًا، مازلت أنتظر طلباتك كي ندرسها، نفكر بها ثم نقرر بشأنها، لطفًا أرقدش، هذا ما أتمناه، بل لن اتفق إلا على هذا الأساس بعد أذنك.

صمت أولاً كمن يكبح انفعاله ثم نعق محترسًا:

(•) ناسيلزين : كيف الأحوال ؟

(•) أي ، تشكر أديريم : بخير ، شكرًا جزيلاً

- حسنًا، حسنًا لا تزعج نفسك أكثر، كل ما نطلبه هو ثلاثة آلاف دولار على الشخص الواحد. هذا ما سأدفعه وحق ربي لمن سيخرجهم من هنا ويوصلهم إلى ألمانيا، أما عني، فلا آخذ منك سنتًا واحدًا، نفسي لا تطاوعني بأن آخذ منك. أهتز صدره مرة أخرى دون سبب، ضحك، أشعل سيجاره الضخم، كان نائمًا أمامه على الطاولة، بدأ ينفث بدخانه على وجوه الجالسين مترنمًا، سعيدًا بإنجازه. وقف كريم، طلب من أخويه وآدم بأن يتهيأوا للخروج، قال بلهجة تشبه لهجة الناصح بعبرات مرتجفة يحسُّ بها السامع:

- يقول مؤسس الطاوية رحمه الله "الكلمات الصادقة ليست بالضرورة أن تكون جميلة، والكلمات الجميلة ليست بالضرورة صادقة، من بلغ مناله لن يجادل أو يناظر، ومن يناظر لم يبلغ مناله بعد ". سأرد عليك قريبًا، وداعًا.

جعجع:

- كوليكلة أرقدش(•).

في الطريق اقترح عليهم كريم باستكانة كاستكانة الهنود أن يزوروا الأحياء الشعبية لبودابست بعيدًا عن المنغصات:

- أعرف هناك مطعم عراقي للمشويات، ناهيكم عن شايه المعطر بالهيل الذي يعدّه على الفحم؛. المحل متواضع لا يبدو عليه سمات الصحة لكنه غير مقلق، أعني، يتمتع بشيء من النظافة لحد يبعد الشك على أقل تقدير وصاحبه رجل طيب جدًا مازال يرتدي اللبس البلدي، الثوب الأبيض الفضفاض الطويل كأنه يعيش في ريف العراق أود زيارته، ثم نقضي المساء في التفكير، الصباح رباح كما يقولون، يحلها الله.

(•)كوليكلة أرقدش : وداعًا يا أخي

openkan.com

(١٠)

الماضي لن يكون مرغوباً إذا سعى لتسيير الحياة الآتية. وعندما يقرَر الإنسان السعي في غاية ما تتهيأ الأمور الأخرى من تلقاء نفسها

الصباح لم يأت بنتيجة جديدة لهم؛ ما سمعوه في أمسهم كان كافيًا لاتخاذ قرارهم، الرجوع إلى سامح ومحاولة مفاصلته لتخفيض السعر كي يبدأوا بالإجراءات التنفيذية، هكذا حسموا أمرهم وها هم إلى مركز المدينة حيث المحطة وتواجد سامح يتوجهون.

وجدوا سامح لوحده هذه المرة، اقتربوا منه، رحب بهم، دعاهم للجلوس في إحدى المقاهي القريبة، وافقوا على عرضه، تحدث كريم بشكل مباشر، قال:

- عزيزنا سامح، نحن موافقون على عرضكم إلا من شرط واحد!.

- ما هو؟

- أن تخفضوا لنا السعر ليكون للشخص الواحد ألف ومائتين دولار بدلاً عن ألف وخمسمائة. لو وافقتكم نبدأ على الفور.

- مثل هذا القرار لابد من مراجعة الشركاء. سنزوركم في شقتكم مساءً، ما رأيكم؟

تفحص كريم أنهر كأنه يجس نبضها، حوّل نظره إلى أخيه كمال، ثم سأل آدم:

- ما رأيك أنت يا آدم؟

- القول قولك عزيزي كريم، ما تراه مناسبًا أفعله، لن نخالفك الرأي.

- حسنًا إذن، اتفقنا يا سامح، ثم أردف: هل السادسة مساءً وقت مناسب؟

- رائع. سنكون عندكم لنتفق على كل شيء. ثم استمرت جلستهم لساعة تحدثوا فيها عن الشرق والعراق بشكل خاص، تناولوا الأحداث الأخيرة التي تعصف بأجواء منطقة الخليج، حيث بدأ سامح بنشر الأخبار التي في حوزته قائلاً:

- الأمور لا تسر على ما يبدو. آدم ارتبك لدى سماعه هذه الأخبار، أراد المزيد منها، سأله:

- ماذا تقصد يا سامح؟ هل لك أن توضح أكثر؟

- ألم تقرأوا الصحف العربية؟ أو تسمعوا الإذاعات. هناك تصعيد خطير بين العراق والكويت.

نبر كريم فازًا بقوله:

- الحق، شغلت هذه الأيام بالموضوع الذي أتيت من أجله، لم أتابع شيئًا البته. تحرك سامح في مقعده وهو يشعر بالارتباك بعد أن أثار مسألة لم يتوقع بأنهم لم يسمعوا عنها، أحس بالحرج يلتهمه، أحمر وجهه، قال بصعوبة والكلمات تتدحرج ببطء من فمه:

- الوضع كما قلت لا يسر. أمريكا تحاول أن تضحك على كايزركم، نشعر بأنه سيبلع الطعم ويرتكب كارثة من شأنها أن تشعل المنطقة كلها بنار لن تنطفئ بسهولة.

تدخل كمال ببراءة طفولية مخنوقًا بالعبرات:

- هل تقصد بأن العراق سيدخل حربًا مع أمريكا؟

- لم أقل ذلك، بل سيدخل المنطقة كلها في حرب لا يخرج منها أحد منتصرًا غير أمريكا، هذا ما يتوقعه الخبراء في أقل تقدير لو صحت الإنباء.

ثم أنهى كلامه داعيًا:

- ربنا يستر.

- مرة أخرى القدر يقف لنا بالمرصاد قال ذلك آدم بصوت بان عليه التأثر، وتابع:

- ما توقعناه سيحصل، هروبنا كان إشارة واضحة للآخرين، أنهر قالت لمروان أخي عندما عارض خروجنا "لا تبكي على رحيلنا، بل أبك على أنفسكم وما سيؤول له حالكم قريبًا"، كانت صادقة، عليمة في إحساسها، وها هي أولى الأخبار التي تعصف بنا تتحقق. ظل الحوار يدور والكآبة علت مسيطرة على جلستهم.

• • • •

قبل السادسة بقليل رنَّ جرس الباب، فتح لهم كمال مرحبًا، دخلوا الأربعة وهمهماتهم تسبق خطواتهم، تقدم منهم كريم ثم ألتحق بهم آدم بعد أن جلسوا في الغرفة التي استحلها كمال وشاركه فيها أخيه بعد قدومه. طلب كريم من أخته أن تهيئ لهم شيئًا ساخنًا يشربونه. سخنت الماء، نشرته في أكواب بيضاء صغيرة، وضعت في بطن كل واحد منها كيسًا صغيرًا من الشاي الجاهز، وعلى حافة الصحون التي جلست عليها الأكواب وضعت قطعتين من السكر، فتركت للشارب حرية الاختيار. قدمتها لهم بنفسها وابتسامتها توردت قبل كلماتها وهي ترحب بهم وتسلم كل شخص كوبه، ثم جلست بقرب زوجها كنسمة فرح لابد من حضورها لتكتمل الطقوس.

غمغم كريم بسؤاله مباغتًا:

- ها. ماذا توصلتم؟ هل نقول على بركة الله؟

تنحنح علي نابرًا وشعر لحيته الجميلة المعتنى بها يتحرك بتناسق رتيب تحت وطأت أصابع يديه وهو يمررها صعودًا ونزولا:

- الحق، أننا لم نفعل هذا من قبل، أعني، لم نهرب شخصًا بهذا السعر، حيث المجازفة والمخاطرة وما سندفعه للسائق السيارة المجري الذي سيوصلهم إلى ميونخ مع حق الوقود ناهيك عن حق الجوازات التي سنعمل على تغيرها وتغير صور أصحابها الحقيقيين الأصليين كلها أمور لابد من دفع أجورها وأتعابها وكما ترون نحن أربعة أشخاص.

قاطعه كاسب المنحدر من الأصول التركية ناعقًا كاسرًا وحشة المساء الذي بدأ يذوب بطيئًا، منسحبًا، تاركًا الكون بين رحمة الليل وظلامه:

- لقد أحببناكم؛ الحب نعمة من الله، سألنا عن كريم واستغربنا لمعرفة الناس به، الكل تقريبًا يعرفونه. الأمانة والصدق في عملنا أهم شيء، لذلك، وافقنا على عرضكم بأن يدفع كل شخص ألف ومائتين دولار تسلم المبالغ كلها عند كريم، يحسبها أمامنا ويبقى معنا حتى نسمع خبر وصولهم ألمانيا ثم يسلمنا المبلغ. أرتاح كريم للنتائج، آدم تدخل شاكرًا لهم تعاونهم، قال مستخلصًا:

- المطلوب، أقصد، ماذا علينا الآن أن نفعل؟

هلهل جورج بصوته الجهوري ملتهبا صادحا:

- يا يسوع المسيح، صورة من كل شخص طبعًا؛ تلتقطونها غدًا في المحطة، هناك مصور يعرفه الجميع، تسلّم الصور إلى سامح بانتظار إشارة منا. شربوا الشاي. تلاقت الأيادي علامة الاتفاق. غادروهم والجميع يشعر بالراحة بانتظار ساعة الحسم. تكملة طريق الهروب من جديد نحو مستقبل مجهول لا يعلم من أمره إلا الله.

• • • •

بعد يومين من تسليم الصور عُقد اجتماع بينهم في الشقة مساءً. سامح فضّل جلوسهم في المطبخ، يعرف الشقة جيدًا، هو الذي أجّرها لهم. توسطت المطبخ طاولة خشبية مصقولة جيدًا بيضاء بلون الحليب تحرسها أربعة كراسي لها نفس اللون مطعمة مقاعدها بجلد اصطناعي مخطط ذي لونين أبيض وأرجواني فاتح، أسرع كمال نحو غرفته وجلب كرسيين آخرين مما جعل آدم يفضل الوقوف بجانب أنهر خلفهم. رفضوا أن يشربوا أي شيء، نوَّه جورج بصوته الملعلع العريض الرنان بأنهم في عجلة من أمرهم. بدأ بالحديث علي كالعادة بعد أن وضع حقيبة جلدية داكنة اللون على ركبتيه وهمَّ بفتحها:

- هذه جوازاتهم. سلّمها إلى كريم الذي كان يجلس بقربه، ثم أردف: لابد من أن يحفظوا أسمائهم، وأن لا ينطقوا في الطريق بغير كلمة واحدة عند سؤالهم "نكس" وتعني: لا أعرف، لا أدري، لا أفهم، أو شيء من هذا القبيل، كلمة يدركها كريم ويعرف مدلولها، كلمة عامة شاملة تعني عدم المعرفة. الباقي سيتولاه السائق، هو يعرف ما يعمله وما ينتظره، الجوازات العراقية وهذه الجوازات ستكون كلها بحوزته أثناء الطريق، عندما يصلون بالسلامة يعطيهم جوازاتهم العراقية ويتصلون بنا من هناك فيسلمنا كريم حقنا كما اتفقنا:

وزّع كريم بمساعدة سامح جوازات السفر عليهم. لم يروا صورهم عليها، تفاجأوا، نوه آدم لنسيبه عن ذلك، التقط كريم منه جوازه ونظر فيه، سأل علي عن السبب:

- يعني لم تضعوا صورهم على الجوازات، هل هناك من ثمة سبب؟ وأضاف: حتى لو كانت مثلاً هذه الصورة في الجواز تشبه لحدٍ ما آدم لكنها تبقى لشخصٍ آخر، سيتعرف عليها ضباط الحدود لو دققوا النظر فيها... قال ذلك وهو في أشد حالات الاضطراب الذي بدا واضحًا عليه.

ما أن سمع ذلك كمال حتى طار لُبُّ عقله، أخذ يورق الجواز بغية رؤية الصورة الموجودة عليه، رأى صورة شاب تكاد تكون طبق الأصل منه، استغرب من هذا الشبه الكبير، ناح بلا وعي:

- كيف أمكنكم العثور على شخص يشبهني إلى هذا الحد؟ أمر يكاد لا يصدق!.

ضحك كاسب التركي، شاركه جورج متصنعًا، نبر سامح شارحًا:

- يا عزيزي كمال، هذا هو صلب عملنا؛ لقد بحثنا في الجوازات الصالحة للاستعمال التي في حوزتنا كثيرًا، قارنا صور أصحابها مع صوركم بدقة، وجدنا هذه الجوازات الأصلح من بين العشرات التي نعمل فيها، سلامتكم كل ما نفكر فيه، وصولكم إلى بر الأمان يعني لنا حصولنا على أتعابنا، هكذا تجري الأمور وتحسب المعادلة. تدخل كريم مزيدًا في الاطمئنان مخاطبًا أنهر:

- أعطني جوازك. نظر فيه، رأى صورة لفتاة تشبه أخته مع فارق بسيط في لون البشرة التي تميل إلى السمار الغامق، قال: يمكن بمكياج بسيط أن تغيري لون بشرتك وتجعلينها أغمق لونًا، هذه ليست مشكلة، سأتولى الأمر بنفسي ساعتها. هكذا تم قبول فكرة الجوازات بصور لا تعود إليهم. ساعدهم سامح بتحفيظ الأسماء بعد أن أعاد عليهم نطقها بشكلها الصحيح. كاسب التركي نهض من مكانه، اقترب من آدم بعد أن انتهى من مراقبة الجميع بانتباه يقظ، مبربرًا:

- اسمك هو أصعب الأسماء "فارتيكوليتانبوست" يعود إلى شاب غجري من أصول رومانية، عليك أن تركز فيه وتحفظه، بلع ريقه، تابع بسرعة وكأنه لم يقل شيئًا أو لم يبدأ بعد: كما ترى، صورة الشاب الغجري صاحب الجواز أسمن قليلاً منك، عليك عندما تصل الحدود نفخ وجهك، هكذا. ونفخ وجهه كما ينفخ بالونًا، هل رأيت؟... قال ذلك ثم أردف: سأخبر السائق حول هذه النقطة المهمة، أن يخطرك بفعل هذا عندما تصلون المنطقة الحدودية.

هكذا. ونفخ وجهه، امتقع احمرارًا والتهب؛ أراد أن يضيف شيئًا لكنه أحجم، صمت كأن في فمه ماء، رجع إلى مكانه، استحل كرسيه الذي لم يبرد المقابل لكريم، رشقهم بنظرة خرساء كأنها لغز. كل ما يحيط بكاسب كان يصرخ بالتركية التي يتحيز ويفتخر بأصوله التي ينتسب إليها. ابتسم آدم لتعقيبه، نظر إلى أنهر وجدها تكرر اسمها الجديد بعذوبة لم يتوقعها منها، بانت على قسمات وجهها رقه تشدو

معبِّرة عن جمال أخَّاذ، كان هو يشعر بالارتباك وبعض الخوف دون أن يجد سببًا لما كان يعتريه كما كمال الذي ما انفك يعيد على مسامعهم الاسم بصوت مرتفع مرتجف وكأن مستقبله كله مرهون فيه، أنهر أعجبتها اللعبة، رددت اسمها كمقطع من أغنية، جوانا. جوانا. ثم همست لزوجها وابتسامتها لم تفارق محياها؛. اسم جميل أليس كذلك ؟. أرجعوا الجوازات لعلي، قال كاسب ذلك آمرًا، ناهضًا. معلنا عن نهاية اللقاء مرددًا وهو يمسحهم بنظرة متملقة معتاد عليها في أوقات كهذه بعد أن طغى طابع الحدة والقسوة فجأة على وجهه من غير مقدمات يجيد تمثيلها وأداء دورها متمرس عليها بحرفية رائعة تخرس الأنفاس في الصدور:

- بعد غد سيكون السائق عندكم في السادسة مساءً بالضبط، لا يسمح بأخذ أي شيء معهم، يتركون أشياءهم عندك، وهو يوجه حديثه لكريم، يخرجون بملابسهم التي عليهم ونقودهم، ماعدا ذلك تهتم أنت بأمرها فيما بعد، وصولهم بالسلامة أهم شيء وكل ما نفكر به، بعد وقفة قصيرة أضاف:

- واضح.

أجابه كريم بنفس الجدية لمعرفته المسبقة بأمور كهذه:

- اعتمد. لن يأخذوا شيئًا معهم. سأهتم بأشيائهم بنفسي.

- على بركة الله، قال كاسب.

ردَّد جورج مدافعًا عن إيمانه على طريقته:

- ليحمينا الرب صاحب الملك، رب السموات والأرض، الذي جعل الملائكة كلها تسجد إلا الشيطان عصى.

خرجوا بسرعة كأنهم مهددون بالقتل على أن يكونوا جاهزين بعد غدهم السادسة مساءً لتبدأ رحلة غربتهم القسرية إلى ما شاء الله لها أن تدوم.

(١١)

الحي من فصيلتنا يهون عليه كل شيء إلا أن يصاب بآفة الهمّ، فالأخير مثابة موت سريري في الحياة.

اليوم الذي سبق هروبهم الثاني بعد أن نجحوا في الأول بجدارة تحسب لهم بالشجاعة والإقدام في زمن حكمه الطاعون دون أي رحمة لآدمية الإنسان، يواجهون بعد يوم سفرهم الجديد نحو مجهول لا يفقهون من أبجديته حرف واحد، يعتبر لهم سراب في عالم الغيب، داخل حلم في ليلة صيف، وأول من شعر بالخوف والرهبة من قرب ساعة الرحيل الطفل الكبير المدلل كمال. اقترب من أخيه محاولاً تبديد هواجسه وهم يتناولون فطورهم في مقهى قريب من شقتهم بعد أن أحسَّ كريم بتوترهم فدعاهم إليه تبديدًا للتجهم الذي رآه واضحًا على محياهم:

- ربما يغدرون بك أخي، ألا تخاف منهم وفي حوزتك المال؟

ضحك كريم من هواجس أخيه التي وجدها غير مبررة، قال:

- انظر، خبرتي تقول، مثل هؤلاء ليسوا قتلة بل أناس يشتغلون بالتهريب؛. بمعنى آخر، ليس لهم من همٍّ غير المال، يحاولون جاهدين أن يوصلوا زبائنهم بسلام لأخذ حقهم، أرواحنا لا شأن لهم بها، هم لا يفكرون بها ولا يريدونها، كما قلت، المال هو كل هدفهم، فلا تقلق عليّ، بل فكر بأن تحزم أمرك وتجمل صبرك وادع بأن الله يساعدكم للوصول إلى بر الأمان. فاجأهم كمال بوقوفه، انحنى على أخيه وقبّل رأسه، رجع إلى مكانه مسترسلاً بعد أن ترك الأكل والتهى بالحديث:

- لقد أرحتني وأدخلت الهدوء والسكينة إلى قلبي، أضاف: لكن، كيف نتفاهم مع السائق؟ هل يمكن أن يغدر بنا مثلاً، أقصد، يوصلنا إلى مكان ما نجهله ويقول هذه ألمانيا!، كيف سنعرف؟

- يا عزيزي كمال، لا تفكر بهذه الطريقة الساذجة، اترك الموضوع هذا لآدم وأنهر سيتكلفان به، أكمل فطورك، لا تشغل بالك، ستسير الأمور كلها كما خططنا لها، بعد

أن تصلوا إلى ميونخ وتخبروننا بذلك، سأحجز من فوري لحظتها وأكون خلال ساعات في مدينتي بانتظاركم، وهو يصوب نظره لأخته وآدم رافعًا قدح القهوة قريبًا من فمه واصل قبل أن يرتشف منها:

- لا تقلقوا. سأكتب لكم عنوان بيتي، نقودكم في جيوبكم، جوازات سفركم ستكون معكم، تحجزون بمساعدة السائق وسأخبره بذلك قبل انطلاقكم تذاكر القطار المتجه نحو مدينة هانوفر الواقعة في الشمال من ألمانيا، هي لا تبتعد عن ميونخ أكثر من ٦٥٠ كيلومتر، عندما تصلون هناك خذوا أول تاكسي يقابلكم إلى بيتي الذي لا يبتعد عن محطة القطارات الرئيسية للمدينة سوى عشر دقائق لا أكثر في منطقة تسمى لِندن، وما يميز بيتي وجود كنسية بقربة تهز أركان البيت كل نصف ساعة بعد أن كانت تدكه كل ربع ساعة، حصل هذا التغير عندما قدمنا شكوى لبلدية المدينة لِما تسببه أجراسها الرنانة من أرق وحرق لأعصاب الساكنين بقربها. وافقوا على مضض، لم يكن الأمر بالسهولة التي تتوقعونها، فقد قدمنا عريضة موقعة من قبل سكان الحي زاد عدد الموقعين فيها عن ثلاثمائة شخص، رضخوا لمطالبنا في نهاية المطاف، هكذا هو الكفاح السلمي هناك.

تدخل آدم بعد أن كان ينصت بشكل دقيق جدًا :

- هل يمكن أن تزودنا برقم هاتف لصديق تثق به نستعمله عند الضرورة القصوى؟

- فكرت في هذا أيضًا وعملت حسابه، سأكتبه مع عنوان البيت لكل واحد منكم، ثم مازحهم : هه. دعونا نكمل فطورنا يا شباب، لماذا هذا القلق كله؟ هربتم من الطاعون ولم تخافوا، هل تترددون وأنتم تسافرون من هنكاريا إلى ألمانيا بصحبة سائق خاص يتولى أمركم وشؤونكم؟ كيف هذا!، تابع بعد أن ارتشف جرعتين من القهوة المحلاة بالحليب المركز:

- كي لا أنسى، لو كشفت الشرطة أمركم في أي مكان، سواء في النمسا أو داخل حدود المجر سلموا أنفسكم عندهم واطلبوا اللجوء السياسي. عند الاستجواب لا تقولوا غير الحقيقة، كل شخص يحكي ما صادفه وما عاشه؛ الحالة الصادقة تكشف نفسها، وأنتم ستتعاملون مع أناس يعرفون ظروف بلدكم وما لحق به من جراء الطاعون الذي أصابه، ناهيك عن ديانتكم التي تعتبر فريدة من نوعها، هذا سيسهل

قبولكم وإعطاءكم حق اللجوء بسرعة لا تتوقعونها، ثم سألهم بحسم كعادته وقت الجد:

- واضح؟

غمغموا الثلاثة كأنهم متفقون:

- واضح.

شاركتهم أنهر الإجابة وهي تضع يدها اليسرى العارية من الساعة فوق راحة زوجها مزيدًا من التعاطف والشعور الفطري بالمشاركة والاندماج، والذوبان في الآخر كليًا والأخير ذروة ما كانت دائمًا تحلم وتطمح الوصول إليه، أن تكون مع حبيبها آدم مثل قطرتي ماء تندمجان.

• • • •

قبل أن يتغرب كريم في نهاية ستينيات القرن المنصرم عاش غربته وهو في وطنه. اشتهر بحبه للمرح وخفة الدم، يرجو المغامرة ويسعى إليها سعيًا، لذلك، كان يعيش وسط أهله منفردًا بأفكاره، منعزلاً عنهم كأنه محبوس في زنزانة لوحده؛ حاول كثيرًا أن يكون كالآخرين من أفراد أسرته ولم يفلح، فقرر الهجرة في وقت مبكر من حياته. وجد كريم يومه وسط أخته وأخيه ونسيبه آدم الوقت مناسبا للتحدث عن حياته، ماضيه، غربته الأولى في وطنه قبل أن يتغرب غربته الطويلة في بلاد الله، عن علاقاته، عمله وأسراره التي لا يحب الإشارة إليها، لكنه، في تلك اللحظات وعند العصر بجلسة حميمية أخوية نادرة الحدوث في أسرتهم قرر الإسهاب والإطناب والسرد الملل، بقلب مهدم بالعذاب، طفق:

- اسمعوا يا أولاد، يقال إن الأنانية العميقة أساس كل الفضائل الإنسانية. من جهة أرى ذلك حقيقيًا، صادقًا وواقع حال؛ فالعالم والفيلسوف والفنان والكاتب لو لم يكن أنانيًا ويحرم الآخرين الذين يشاركونه حياته بسبب عزلته وانطوائه وطول تأمله وتفكيره بعيدًا حتى عن أقرب الناس الذين يحبونه ويقاسمونه عيشه، لما استطاع أن يبدع أعماله. المهم، أفضّل أن يتعود المرء قبل الإقدام أن يسأل قلبه، فإن وجده هادئًا فليصدقه ويمضي فيما شرع به. هذه فرصة يا أحبتي ربما لن تعوض أو

تتكرر، دعوني أتحدث عن كل ما يخطر على ذهني ويجول في بالي، لا تقاطعونني، كنت منذ صغري مهووس بالمغامرة، لا أطيق تصرفات أمي، كنت أراها قاسية علينا كالصخر، حاولت أن أستمل أبي وأتودد إليه، لكنه كان في عالم خاص بناه لنفسه، دخله بمحض إرادته، لا يحب كائن من يكون أن يدخله غيره، جعل سوره عاليًا جدًا، يصعب على الطائر ارتقائه، تقوقع على نفسه يقرض أيامه ويعيش حياته كما يشاء ويشتهي ليشبع نزواته التي ما أظنكم لا تعرفونها. مسحهم بنظرة ذات معنى، وتابع:

آدم لم يعد شخصًا غريبًا، سأتحدث أمامه بكل حرية، أكاد أجزم بأن داخلكم يسألني عن الشائعة التي يتقولون الناس عنها بشأن علاقة أمي بأبي. قاطعته أنهر معتذرة بقولها كمن يمتحن آرائه بعد أن أدركت بأنه سيخوض في غمار خاصة لابد من التنويه عن جزئية وجدتها ملزمة في إعلانها:

- آدم يعرف كل شيء، تستطيع التحدث أمامه بلا تردد، أثناء فترة خطوبتنا كتبت له رسالة شرحت فيها وضعنا العائلي كي يكون شريكًا حقيقيًا في حياتي.

- حسنًا، قال لها كريم ذلك وتابع كمن يحاول أن يسبغ على كلامه طابعًا سريًا فيه الكثير من الغموض: كيف أودعت أمنا أبينا السجن بتهمة ملفقة وذلك لانتمائه لأحد الأحزاب المعارضة ثم أدخلته مستشفى الأمراض العقلية بسبب لوثة أصابته. الناس تتحدث عن هذا بالسر والعلن، نحن لا نستطيع أن نمسك أو نغلق أفواههم، الحقيقة لا أحد يعرفها، حاولت جاهدًا معرفتها وفشلت ثم أهملتها ولم أعد أعر أي اهتمام لها. حاولت منذ الصغر أن أقلّد الكبار في مشيتهم، أفكارهم وأفعالهم كلما سنحت لي فرصة لقاءهم. كان عاصم قبل أن يصيبه التغير عندما كانت له أفكار وميول شيوعية حسب اعتقادي زوج سمر أختكم المغلوب على أمرها أحد هؤلاء الذين أعجبت بشخصيتهم رغم نفور الناس وتقززهم منه، نصير أخو آدم الكبير كان أحد أفراد شلتنا كما جليل ابن عمه، هكذا كنا نقضي أيامنا في حرية خالصة لا يكدرها غير وقت نومنا الذي لابد من الركون إليه بعد سهرات من العربدة والغناء والشرب ومعاقرة القمار حتى قررت مع نفسي يومًا أن أهاجر؛ نعم، لم أخبر أحدًا فيما نويته. انعزاليتي داخل البيت كانت بحق غربة حقيقية لا تختلف عن غربتي خارج وطني، هكذا ترسخت قناعتي، حاجتي للنقود كانت مجرد حاجة مؤقتة، أقصد، وسيلة

للعبور، طريقة للوصول إلى ما كنت قد عزمت عليه، بعت كتبي وبعض من حاجاتي وأشيائي الخاصة خفية، الدنانير القليلة كانت كافية لتحقيق رغبتي من خلالها، ولم أتوان. عند الفجر بعد ذلك اليوم الذي حصلت على النقود توجهت إلى بيروت دون إبطاء؛ تركت كل شيء ورائي وهربت، لم أقل لأحد، ولم أجعل أي شخص يحس بما سأفعله، وفعلاً، تحقق لي ما أردت وما أصبو إليه وأنا لم أتجاوز السابعة عشر. كانت أنهر وهي تنصت له لا تتحرك كشخص فاقد الوعي مغمى عليه، وجهها لحظتها كان ملتهبًا، تستمع لأخيها بشغف منقطع النظير، توشحهم بنظرات تكاد تكون ناطقة متوسمة بروح الإخاء والمحبة، كانت تتوق لمعرفة هكذا تفاصيل تتعلق بأهلها، بل لطالما تعذبت وتألمت وسألت دون أن تقف على جواب يرد لها صوابها، خاصة فيما يتعلق بعلاقة أمها بأبيها وما تناقل عنها. كانت تموت لتسأل أخيها عن جواب يريحها. أرادت أن تتدخل. فتذكرت كلامه في البداية، فلم تتجرأ وتقاطعه، جعلته يكمل ما قد شرع به منتظرة اللحظة الملائمة:

الحقيقة، هربت من العراق بالثياب التي عليّ، في جيبي تسعون دينارًا، أو ما يقارب إن لم يكذبني الله. عندما وصلت بيروت عثرت على غرفة في فندق متواضع بسعر زهيد في شارع الحمرا؛ اتصلت بأهلي وأبلغتهم بنيتي المبيته التي لم أفصح عنها قبل هروبي، قلت لهم بأنني سوف لن أرجع، بدرية أمكما- وهو يصوب نظره لأنهر وأخيه كمال نظرة ذات مغزى - لم تستطع أن تتحمل الخبر رغم جبروتها الظاهر، قلبها الرحيم ونفسيتها الطيبة جعلتها تنهار قبل الآخرين، عوت، لطمت خدودها، عاطت، بكت. ولم تثنيني كل ردود أفعالها عما نويت فعله. هدأت عاصفتها بعد أن أدركت بحدسها بأني لن أتراجع عن قراري، كنت فعلاً قد حسمت موضوع هجرتي من غير رجعة. وطني لم يعطني شيئًا، بل الأمر كان يزداد ببطء سوءًا، حيث البطالة المنتشرة، ضعف في البنية التحتية للبلاد، تفشي الفساد والرشوة، الاضطهاد الحزبي، سلب الحريات، وقلة المال والأهم كان الزعيم المعاون يخطط بخبث شيطاني فظيع كيف يضعف الشعور الوطني للفرد العراقي، كيف يحول ذلك الشعور والارتباط بالوطن الأم إلى شعور آخر أقرب إلى التمسك بأذيال الكايزر منه إلى الالتصاق بتربة الوطن، نجح في خططه إلى أبعد الحدود، فجعل الناس

يختبئون وراء ظله كأنه الرب وهم في حماه. طلب من أخته أن تهيى لهم شيئًا يشربونه، قال:

- ما هذا؟ لا أحد منكم يحس!، منذ ساعة وأنا أتكلم دون أن يفكر أحدكم بتقديم شيئًا أشربه، ما هذا البخل؟ نسيتم بأني ضيفكم؟ ضحك، وقبل أن تنهض أنهر نوهت:

- " خوش "، لا تكمل حكايتك. انتظرني، سأعد لنا شايًا. ضوء القمر تسربل من بين ثنايا الستائر الواقفة خلف الشباك المطل على الحديقة الغناء أمام البناية التي تتواجد فيها شقتهم؛ كان نوره شفافًا كلون الضباب والسراب، مموه، يخدع الناظر، والحق، لا يمكن وصفه، خلابًا، ساحرًا، بهيًا، رومانسيًا وعذبًا، انعكس على سطح الطاولة البيضاء التي كانوا يسورونها بجلستهم الدافئة وتموز انقضى منه ثلثه من عام الويلات التي سيشهدها الشرق الذي أصابه الطاعون وتغلغل فيه حد النخاع. من بين أسنانه البيضاء دمدم كريم:

- حسنًا. سألتزم الصمت لأريح حنجرتي على الأقل.

نهض آدم من مكانه، اقترب من حبيبته، همس في أذنها:

- أخوكِ هذا تحفة، أين كنتم تخفونه عني؟ يتحكم في كلماته أثناء السرد كقاص متمرس، محترف، يعرف متى يسكت ومتى يتحدث، ماكر، عفريت، جني حقيقي، لا، ليس هذا فقط، بل كان يعرف نصير أخي، من شلتهم، والأدهى أن عاصم ربيبه، يا لها من مفاجأة كان يحضرها لنا أخوكِ هذا، كنت استمع إليه مدهوشًا، أبلع ريقي في كل لحظة وكأني أركض لاهثًا أسعى لشرب الماء ولا أجده.

سمعه كريم، قال وهو في جلسته بعد أن استدار لهما:

- على منْ تتآمران؟ ها. قولا لي، لا تجعلاني أقرركما، هيا، تقيؤا ما كنتما به تتهامسان، لقد سمعتكما جيدًا، تشتمون عاصم الملهم نسيبنا؟ ثم قهقهة بعذوبة لا يقدر اللسان على وصفها. جلسوا مرة أخرى حول الطاولة البيضاء المصقولة، سوروها وأكواب الشاي يفوح منها عطر شهي والبخار يتصاعد ملتفًا على بعضه، يرقص بخيلاء كخيط البخور الضبابي المتصاعد نحو الأعلى. أخذ كريم جرعة من الشاي، تذوقه، صاح:

- رائع وطيب مثلك يا أنهر.

- لا تخجلني.

- أنا لا أجامل على حساب الحقيقة؛ ستعاشرينني وتعرفين ذلك بنفسك وتقولين بأن أخي كريم لا يحب الكذب ولا المبالغة، قاطعه آدم بأدب:

- لا تحول الموضوع إلى إطراء وثناء، نحن كلنا آذان صاغية، نحب أن نعرف المزيد عن حياتك، تدخل كمال نابصًا بعد أن مارس الخرس الوقت كله وهو يرتشف الشاي بصوت عالٍ مزعج متعود عليه منذ صباه:

- هيا يا أخي، قل لنا ماذا حدث معك بعد أن وصلت إلى بيروت؟ كيف فكرت بألمانيا، وهل زرت دول وبقيت فيها قبل استقرارك في هانوفر؟، وتابع وعيناه الزرقاوان الجميلتين ترنو لأنهر بحنية لم ترها فيه من قبل، ولم يسبق لها أن رأته بمثل هذه المودة الصامتة المتأملة. حنية كمال كانت مجرد أطماع ورغبات ومصالح يحب تحقيقها لو أراد إهداء أحدهم شيئًا معنويًا كالرحمة مثلاً، لذلك، استغربت أنهر نظرته اللامعة رغم جمالية عينية التي تشع بريقًا لا يقاوم:

- لماذا لم نعرف هذه الأخبار من قبل؟ لم يحدثنا عنها أحد في البيت، كلهم يقولون، لا نعرف عنه شيئًا!، ترى لماذا هذا التعتم والتضليل؟. فهم كريم بحدسه ما كان أهله يفعلون، الخوف من سياسة الكايزر القمعية التي ينتهجها ضد أبناء شعبه يمنعهم من التصريح. سيرة حياته لا يريدون أهله تعميمها وإلا انتشرت بين طائفتهم وأصدقائهم كالنار في الهشيم، لكنه اليوم أراد أن يحدثهم عن كل شيء، حتى الجانب المظلم من حياته إن صح التعبير بالنسبة له، كان مصرًا على أن يقول لهم بنفسه قبل أن يكتشفون ذلك بأنفسهم فيما بعد، هو لم تفته تلك الجزئية المهمة، حسب حسابها جيدًا، قال يحدث نفسه، يسمعون مني أفضل من أن يتفاجأوا، حياتي تخصني وحدي لا أقبل أحد التدخل فيها، أفعل ما أراه مناسبًا لي، لن أسمح لهم بالتدخل أو محاولة تغير اتجاه سير حياتي، ذاك شأنٌ خاصٌ بي، خطٌ أحمر، لن يتجاوزوه. عدلَّ من جلسته، شرب قليلاً من الشاي، قال:

- رحلت إلى تشيلي. هاجرت من جديد؛ بقيت هناك نصف عام أو أقل، أقمت في العاصمة سانتياجو، تعلمت لغتهم الرسمية الإسبانية بسرعة فائقة، هذا ما اكتشفته، لي موهبة طيبة بتعلم اللغات. انتقلت لغة الشعب التشيلي بعد حكم الأسبان لهم دام ثلاثة قرون. لم أتأقلم كثيرًا، لم أعتد حياتهم، الناس كانوا سلالتين على الأغلب، إما أسبان أو هنود، كتحصيل حاصل لم تعجبني الأجواء؛ لأكون صادقًا، لم أتحملها،

كانت رطبة، حارة تقارع جنهم الحمراء في حرارتها، الأمطار كانت سبحان الله مثل رماح مسننة تسقط على رؤوس العباد، ناهيك عن البطالة، نسبة الجريمة المرتفعة، تجارة السلاح والمخدرات، لا أقول لكم ولا تقولون لي، الفساد كان منتشرًا على قدمٍ وساق لا يطاق؛ فإما أن تكون مثلهم أو تهلك. لكن، لم أذكر لكم عندما كنت في بيروت اشتركت كمقاتل في المقاومة الشعبية؛. حملت السلاح، تدربت معهم، انغرست قدمي في تربة لينة كانت باستطاعتها أن تقضي علي، تغرقني في وحلها، لكنني لم أجد ميلاً كبيرًا لها، انسحبت من حياتهم بسرية دون أن أقتل أحد، تربيتي المسالمة، شعائر ديني، ذكرى أهلي، طيبة أمي، فطرة أبي، أنتم جميعًا، كانت عائقًا طبيعيًا يمنعني من تسلق سور الخطر الذي كان يحدق بي من جميع الجهات، إن لم يكن تحتي وفوقي، بالإضافة إلى طبعي الذي يتنافى مع تلك الأجواء التي كانت مشتعلة وقتذاك في لبنان، طبول الحرب، المقاومة الشعبية، إسرائيل، الشعب الفلسطيني وأمور معقدة كثيرة غيرها، كلها لم ترق لي، فقررت الهروب مجددًا، وكانت وجهتي جنوب أمريكا وكما قلت، تشيلي بعد أن جمعت في بيروت مبلغ دسم من المال حصلت عليه نتيجة انضمامي للمقاومة الشعبية، استفدت منه في هروبي القادم الذي أحدثكم عنه والذي لم تستمر إقامتي كما نوهت في سانتياجو أكثر من ستة شهور ينقصها بعض الأيام، وكانت وجهتي أوروبا بلا تحديد الدولة.

نبر كمال دون وعي:

ـ لماذا سكتْ؟، هل تحب تعذيبنا؟ استمر أرجوك، لم أسمع من قبل حكاية يسردها لي شخص قريب وبهذه الصورة المشوقة ما عدا الحكايات القليلة، النادرة التي يحكيها لنا آدم وبطلوع الروح، لم أرَ في حياتي شخص بخيل في السرد مثل زوج أختي!، ثم عدّل من تعقيبه، جعله أقرب إلى الفكاهة والمزحة: من حقه، فهو شخص موهوب لا يعرض بضاعته هكذا على الرصيف لكل من هب ودب، كنت قد سمعت من أحدهم يقول، إذا زادت البضاعة بخس ثمنها، ربما هو يطبق هذا المثل على نتاجه، من يعلم؟ وهو يصوب نظره إلى نسيبه مبتسمًا بدلال نسائي مفضوح.

ضحك آدم، تجاوب معه في الضحك كريم. أنهر حضنت يد آدم فوق الطاولة دون أن تعير أهمية لأحد، نست خجلها فجأة، مثل هكذا موقف تفكر فيه قبل الشروع به

سنة بكاملها، لكنها في لحظة حب وشعور طاغٍ وبعد أن سمعت كلمات أخيها عن حبيبها فقدت صوابها، تنقلب نمرة لو أحست بأن هناك من يريد النيل من حبيبها، مجرد شعورها بذلك يكفيها أن تقاتل، بل أن تقتل من أجله وروحها لحظتها هادئة، مسترخية، كأنها عائمة على سطح بحيرة تحتضنها الجبال من كل صوب وحدب.
آدم شعر بالإحراج، حاول سحب يده من أمامهم رفضت، تمسكت بها بقوة، شعورها بالحب والخوف والحماية لزوجها كان يدفعها أن تفعل أكثر من ذلك. قطع كريم حبل أفكارهم جميعًا بقوله:
- فكرت في بادئ الأمر بفرنسا، ثم ألغيت الفكرة، طفرت في ذهني الإقامة في إيطاليا، كنت والحق يقال أتوق لزيارتها والعيش مع الطليان لكثرة ما سمعت عن شعبها الذي يشبه شعوبنا الشرقية من حيث الطبائع وبعض الميول، قلت وقتها أحدث نفسي، سأعيش في أوروبا وبالتحديد في إيطاليا وكأني في وطني، لما لا ؟ هاجرت من جديد كما سيتعود على ذلك العراقي خاصة والشرقي عامة، ما علينا، حزمت أمري وقررت الرحيل إلى نابولي، سمعت عنها قبل أن تطأ قدمي أرضها حكايات عجيبة غريبة، كنت أتوق للإقامة في تلك المدينة الساحرة الساحلية التي ضربها البركان مرات لا تحصد، فالناس الذين أصابهم المد الناري البركاني في مدينة بومبي ماتوا وهم في أماكنهم لم يستطيعوا مغادرتها، شاهدت ذلك بأم عيني، أطفال ونساء وشيوخ تجمدوا وتحولوا من بشر- من لحم ودم - إلى هياكل بشرية حجرية، لم يتغير منهم شيء، تحنطوا في أماكنهم التي وصلها سيل البركان فتحولوا إلى أحجار صماء بالثياب التي عليهم، تكلست أجسادهم، هياكلهم ظلت محافظة على قوامها بعد أن غطتها طبقة رصاصية من الرماد المتصلد، فعملت حكومة المدينة بعدها بعمل معرض لهم ومازالوا هناك رابضين يزورهم الزوار. الخلاصة، عشت في نابولي بضعة أشهر رأيت فيها الويل، صرفت كل النقود التي كانت بحوزتي، صرعني الفقر، جعت، نمت على الرصيف، تلحفت لأيام بالصحف والجرائد القديمة في الحدائق العامة أقضي فيها ليالي مرة، بطيئة، قاتله. كانت المدينة فقيرة جدًا رغم سمعتها السياحية، المتسولون يمثلون أغلب سكانها، الناس يعيشون في بؤس ويأس شديد يكسر الخاطر يبكي الحجر، لم أرَ مثل هذا البؤس ولا حتى في سنتياجو، ليس هناك نظام يدعم المواطن، أو فرص عمل، أما أن تجد الغنى الفاحش المسيطر الذي

تعيشه عصابات المافيا، أو الفقر المدقع الذي يحياها أغلب أفراد الشعب. في لحظة ضعف فكرت بروما، قلت لنفسي لماذا لا أرحل إلى روما؟. هناك السياحة على أشدها، وبالتأكيد فرص العمل ستكون أفضل، لكنني قتلت جنين قراري قبل أن يولد عندما تذكرت الفاتيكان؛ ذابت فكرتي كما يذوب الملح في الماء. إذ لا أخفي عنكم استيائي من تجار الدين، لا أخص هنا دين بعينه، كل من يتاجر بالدين لا أتفق معه، لا أحب عشرته، أو توجهه، ولا إدعاءته تلك التي أجدها ملفقة عارية من الدين الذي يمثله. كما نوهت، موقفي هذا نحو كل تجار الأديان، سلطتهم التعسفية المبنية غالبًا على المصالح الشخصية الدنيوية وليس الدينية كما يدعون، أقاويلهم قد تنطلي على بعض جهلاء العقول، لكنها لا تمر على الجميع بسهولة. أعرف بأن كل الأديان لا يمكن أن تستند على العقل والمنطق فقط، وإلا ما صدقها أحد. كان كريم وهو يتحدث يرى المرء فيه الحماس ملتمعًا في عينيه، تابع بعد وقفه قصيرة:

ـ الأسطورة والخيال وماشابه له نصيب كبير في تكوين أي هيكلية دينية. المعجزات والخوارق وما وراء الطبيعة من قوى لابد من حضورها وتوفرها في أساس كل دين لو أردنا أن نكون منصفين. أكاد أجزم بأن النسبة الكبيرة من أدبيات الأديان جاءت من أجل الإنسان لتفادي الشر الذي يمكن ممارسته قبل أن يتمادى فيه. ومع كل ذلك نجده يعاقر الشر كلما تاق له اعتمادًا على الثمرة المحرمة التي لابد ولها أن تكون أشهى وأطيب. لم أتصالح مع تجار الدين يومًا من الأيام، ومازلت على رأيي لم يتغير أو يتزحزح من مكانه قيد شعره. ولماذا يتغير إذا هم لم يتغيروا؟!

استسلمت للنتيجة لولا مصادفتي لشخص ألماني كان يتجول هناك، تعرفت عليه كما قلت بالصدفة في محطة القطارات، عرضت عليه نفسي، أعني، خدماتي، وجدت منه تجاوبًا خلاقًا طيبًا؛ ساعدته في الترجمة لقضاء بعض المصالح التجارية لديه، هذا يعني كنت قد تعلمت من خلال تنقلي بين لبنان وتشيلي وإيطاليا ثلاث لغات عالمية ما كان لي أن أعرفها لولا غربتي!. لم أتهاون أو أتردد، طلبت منه أن أرحل معه حيث يقيم، كان قراري مثل حالي غير قابل للشرح، فهيئتي كانت تفضح لساني، وافقني الرجل عن طيب خاطر وهذا أحد أهم صفات الشعب الألماني، طيبون وكذابون، رحماء جدًا وفي لحظة تجدونهم ينقلبون وتكادون لا تعرفونهم، هم أنفسهم كانوا قبل لحظة واحدة ملائكة يسيرون على الأرض بلا أجنحة، قد

تستغربون ذلك، من حقكم هذا، أنا استغربت في بادئ الأمر كذلك تصرفاتهم الغريبة تلك، لكنني تعودت عليهم مع الوقت، بت لا أتفاجأ عندما أرى ألماني يتغير ويتحول في قراره أو سلوكه، بل على العكس، بات لي من يبقى كما هو، هو الشاذ أو الغريب؛. الأدهى، هو أنكم سترونهم يحملون حججهم في جيوبهم، تجدونها على طرف لسانهم، سريعو البديهية، لا يتأثرون ولا يقهرون أنفسهم مثلنا، صبرهم مثل صبر الآلهة وربما يتفوقون عليهم، فضيع صبرهم وقوة تحملهم، لهم من برودة الأعصاب ما يهلك، سبحان الله، تجد نفسك ستنفجر ولا تتحرك شعرة من رموشهم كأنهم مخلوقين من جليد. كلمة "إيكَال" (•) شائعة جدًا، أعدكم بأنكم ستتعلمونها كأول كلمة حينما تصلون بالسلامة، واختصارًا، أقول:

- بعد أن أكمل الرجل مصالحه التجارية سافرت معه في المرسيدس السوداء التي لم أصعد واحدة مثلها من قبل وتوجهنا إلى "كاسل"، كانت الأخيرة مدينة صغيرة في وسط ألمانيا لا حياة فيها قريبة من هانوفر. هناك وبعد أن وصلنا اقترح علي أن ابتعد عنها، نصحني هكذا لله بأن اكمل مشواري إلى هانوفر، لمعرفته المسبقة بأن الحياة ستكون لواحد مثلي وبظروفي التي رآها لا تسر تفطر القلب أفضل. صدقته من فوري بلا نقاش أو جدال، أخذت أول قطار أقلني إلى هناك وهو من دفع لي حق التذكرة باتجاه واحد. وبالفعل تم لي ما كنت أصبو إليه، في هانوفر كانت البداية الحقيقية لحياة حافلة بالغربة بعد أن قدمت اللجوء السياسي. ما هي إلا بضعة أشهر حتى كنت أتمتع بكافة الحقوق والواجبات التي يتمتع بها أي مواطن ألماني آخر مع فارق واحد، هو أني أحمل جواز سفر أزرق اللون وليس أحمر كما معروف، مكتوب عليه جملة شنعية في صفحته الأولى لم أستسغها يومًا، تقول " يحق لحامل هذا الجواز من السفر لكل دول العالم ماعدا العراق ". شرعت أنهر تسأله متأثرة بما سمعت بسرعة وكأن الوحي الذي فوق رأسها سيتخلى عنها:

- وماذا حصل بعد ذلك؟ أقصد، كيف عشت؟ ألم تفكر بالاستقرار الاجتماعي مثلاً؟ أن تتزوج وتكوّن أسرة، ماذا عملت، في أي صنعة اشتغلت؟

(•) إيكَال : طظ

- طبعًا فكرت. لكنني لم أوفق. ارتحت في هانوفر كثيرًا، وجدت أسباب الراحة والأمان. النظام الاجتماعي راقٍ، كل شيء بحساب، الدولة تدعم القادم لها ماديًا حتى يقف على أقدامه، ناهيك عن التأمين الصحي وتوفير السكن وفرص العمل المتوفرة. فبعد خروج ألمانيا من الحرب العالمية الثانية كانت البنية التحتية للبلد مدمرة تمامًا، استقدموا الأتراك ليعمروا ويبنوا لهم بلدهم. لا تجدون ألماني يشتغل بيده إلا ما ندر، خاصة الأعمال المتعلقة بالنظافة، الأخيرة مهنة الأتراك، أعدكم أيضًا، بأنكم لكثرتهم ستتعلمون لغتهم قبل الألمانية، لقد أثبت لكم يوم ذهبنا نسأل عن مهرب ووجدنا التركي اللعين الذي ساومنا وطلبنا منا للشخص ثلاث آلاف دولار تحدثت معه التركية، تعلمتها من أصدقائي الأتراك في هانوفر. اشتغلت في كل شيء، ما يسمح به القانون وما لا يسمح. بعت واشتريت وحملت الطابوق على ظهري. شعر رؤوسكم يبقى أسودًا، متميزًا، الأجنبي على رأسه بطحة كما يقال، يكون واضحًا للعيان، هذا الأمر سيسبب لكم مشاكل جمة وأرق لا يعلم به إلا الله، وقبل أن أتعرف على كاترين صديقتي التي لي منها ولدًا أشقر اسمه نديم قلبت إحدى غرف شقتي إلى ورشة لصياغة الحلي، خاصة الفضية منها، الشباب الألماني بشكل عام مولعين بالأشياء الغريبة، يجدون لذة لا تضاهي بإرتداءها، الحلي المصنوعة باليد يعتبرونها شيئًا منزلاً، يعبدونه، يدفعون لقاءه مالاً كثيرًا، مازلت أعمل في هذا المجال، ثم انتبه على أنهر وجدها تخزره، عرف بأن موضوع كاترين لابد من الوقوف عنده، سيعرفون أمره عاجلاً أم آجلا، وقبل أن تباغته بالسؤال نوَّه مندفعًا:

- أحبتي، كنت قد عرفت في حياتي الماضية نساء كثيرات، ما وجدت مثل كاترين امرأة، تحبني أكثر مما تحب نفسها، تود في قرارة نفسها أن تسكن خطواتي، تعيش اليوم مع أبننا لوحدها، رفضت ان تنضم معي في شقتي رغم حبها الذي وصفته لكم، حريتها رغم الظروف التي تحيط بنا لا تفرط بها، تقول عن اجتماعنا في بيت واحد بسقف شيء فائض لا تحتاجه، مازلت لم أتزوجها، مثل هذه الأمور لا يقفون عندها الأوربيون كثيرًا، لا يعتقدون مثلنا بالأوراق، لا أريد هنا أن أكون مثالاً صالحًا لكم، بل لي ظروفي الخاصة، قلة تواجد عائلات من طائفتنا أو بالأحرى ندرتها تجعل الواحد منا يضطر لعمل صداقات من هذا النوع، وكما قلت، نحن لم

نتزوج رسميًا، لكن هذا لا يمنع من تمتعنا بالحياة المشتركة كأي اثنين متزوجين آخرين، انظروا، للألمان طبائع غريبة، فمثلاً يحبون ممارسة هواية الأكل ببطء يهلك أعصاب من يجالسهم من ملتنا، يظلون يلوكون اللقمة على مهل مقيت ممل يزهق الروح قبل بلعها بفم مغلق مطبق تمامًا ويقولون بأن هذا صحي جدًا. لا تضحكوا لو قلت بأن الألمان خليط عجيب يمكنني وصفهم بالتالي: هدوء على ذكاء، خبث على وقاحة، استعلاء على إيمان، تقاعس على دقة، أنفه على كذب، هذيان على اقتضاب، خوف على شجاعة وصبر وتأني بلا حدود، ثم بعد تأمل قصير أضاف غامزًا:

- سأترك لكم حرية التعامل معهم على أساس هذه النفسية الغريبة، هذا هو صميم عملكم في المستقبل لو أردتم النجاح وطلبتم الفلاح، لذلك كانت كاترين ترفض الإقامة معي في بيت واحد وتحبني حبًا جمًا في ذات الوقت، لا تستغربوا مما أقوله ولا تأخذونه نموذجًا حسنًا خاصة لكمال، صوب عينيه في عيني أخيه، شرع:

هل سمعتني؟ لا تقلد تصرفاتي، ظروفي ستكون غير ظروفك، الأيام ستثبت لك ذلك، وكما سمعنا من سامح، بأن الأمور في شرقنا ستتدهور سريعًا، هذا يعني ستكون هناك هجرة جماعية خاطفة، هذا منطق، يساعدون الطاعون في الانتشار ليجنوا الأرباح من ورائه حتى نرى الهاربين بالملايين يودعون أوطانهم بغير رضاهم، ثم سأله مباغتًا:

- فهمت ما ذهبت إليه؟

وهو يحدق به ملتهبًا كمن لا يسعى إلا لتبرئة ذمته، قال:

- فهمت يا أخي، لا تقلق، لن أفعل إلا ما يرضيكم.

- عظيم، ثم استمر مسترسلاً، وآدم مبهور بما يسمع: كاترين تعمل في محل لبيع الزهور. نديم مازال صغيرًا في الحضانة، ما متأكد منه هو أني لن أعيش لكم طويلاً، عليكم أن تعتمدوا على أنفسكم ما أن تصلون، تعلم اللغة أولى المهام، لا تثقون بأحد بسرعة، الحذر واجب، لا تجعلوا طيبتكم تكون غالبة على تصرفاتكم، أعلم بأنكم بلا خبرة، أقصد، قلوبكم نظيفة لا تحمل الخبث أو الضغينة، لذلك خوفي عليكم كبير، حاولت أنهر مقاطعته، فأشار لها بيده أن تنتظر حتى يكمل كلامه، واصل بلا أدنى توقف:

ما أعرفه ومتأكد منه هو أنكم ستفوزون بالحياة التي تسعون إليها، شخصيتكم ستساعدكم، جديتكم وحبكم لبعض أهم أسباب النجاح. لا تفترقوا مهما حصل بينكم.
ثم همس لأخته:
- أنتِ ستكونين المسؤولة أمامي، عديني بأنك ستوحدين الصفوف كما يقال، ثم أردف: ها. ماذا أردتِ أن تقولي؟
سكتت. لم تستطع أن تنطق، اختنقت الكلمات في حلقها، عمّدها الصمت، شعرت بأن داخلها يشتعل وينهار، يذوب ويصبح رمادًا، انتبه لها آدم، تدخل فائرًا شارحًا ما صعب عليها تفسيره كأنه يعرف تمامًا ما في سويداء قلبها:
- اسمح لي يا كريم أن أتدخل، من بين كلامك قلت جملة هزتنا جميعًا بعنف من الأعماق، كيف طاوعك لسانك أن تذكر مثل هذا الأمر أمامنا هكذا؟، لماذا نوهت على أنك لن تعيش طويلاً؟ هل تتوقع أن قلوبنا من حجر؟، لم أعد أفهم عليك، قلبت جلستنا فجأة إلى شيء أقرب إلى الذعر، لماذا؟، هل أنت مريض لا سمح الله؟ فسر لنا قولك، مازلت في منتصف الحلقة الثالثة، ما الذي يجعلك تفكر بهذه الطريقة الغريبة المرعبة؟، انظر لي، أرتجف هلعًا وأنا أحدثك، أنت لا تعرف ما حصل معنا قبل هروبنا من بلد الطاعون بأيام قليلة؛. لقد صادفنا عراف قرأ كفي بالغصب عندما كنا نحن الثلاثة أنا وكمال وأنهر نجلس في مقهى على كورنيش أبو نؤاس نتباحث في أمر هروبنا وإذا برجل يقف فوق رؤوسنا كغراب البين يطلب دون أذن مني أن يقرأ لي كفي، ذكر لنا من بين ما ذكره بأن هناك قريبًا من كمال سيموت في سن الشباب، يدفنه كمال بنفسه ثم يلحق قريبه الشاب ذاك أمه وأبيه!. أرجوك، أنت تؤكد ما قاله المشعوذ بالحرف دون أن تعرف شيئًا عن جلستنا تلك التي قرأ فيها لي مقصوف الرقبة كفي، ثم أكتفى بقوله: تصريحك هذا يا كريم يوصلنا إلى بر القلق وليس الأمان.
ضحك كريم بتوتر ملحوظ، أطلق لنفسه العنان في الترفيه عن نفسه من خلال ضحكه، بعد أن تعب تفرسهم، أنعم النظر فيهم، همَّ قائلاً:
- أحبتي، يقول الكاتب العالمي دوستوفيسكي "لطالما باركت القدر الذي وهب لي أن أعاني هذه التجربة" يقصد، تجربة اعتقاله ودخوله السجن لمدة خمس سنوات، عاش من خلالها آلام غيره، فقال فيما قاله بعد ذلك "لعل الإله العليّ القدير شاء أن

يرسلني إلى هناك حتى أتعلم جوهر الأشياء فأنقل علمي إلى غيري وأبلغه الناس".
صفوة الكلام، هو أن الغربة في اعتقادي سجن بلا أسوار على شكل من الأشكال. لها قوانينها، أخلاقها، زيها؛ عالم خاص بها لا يشبهه أي عالم آخر غير عالمها هي. لن تجدوا في الكون مثيلاً لها، فهي كما قلت عالم متفرد لا شبيه له سوى نفسه. اسمعوا، ببساطة شديدة، فيها يكون الإنسان حي وميت معًا. لم أعثر على مكان يكون فيه الإنسان بهذه الثنائية الغريبة سوى في الغربة. قد تقولون وطن الطاعون كان كذلك، نعم، أوافقكم الرأي، لكن الفرق كبير بين أن يجازف المرء في كل شيء ويهرب إلى عالم الغربة ثم يلقي المصير نفسه!. مهزلة لو صحت نظريتنا، بل هو الجنون بعينه أليس كذلك؟. المهم، دعوني أصف لكم ما أشعر به دون إخافتكم طبعًا، آه. يا أصدقائي، تعودنا أن نخاف الحياة أكثر من الموت. ليس هناك حدود في الغربة تحدكم، وفي نفس الوقت تجدون قيود كثيرة تقيدكم، تشعرون بأن الغناء الذي تسمعون بكاء، ويتوهم لكم البكاء غناء، النوم يقظة والحياة موت سريري، روتين قاتل كالفناء والعدم، الضحك كرقص المذبوح لا يحدث إلا نتيجة الألم، والألم مصاحبًا للذة، ومن هنا تبدأ الآثام، صراع بين الخجل والضمير، بين ما تحب أن يكون وما تقدر عليه أن يكون، وكما يقال، متى يستطيع الإنسان أن يصنع ما لا يقدر عليه؟!

ستعرفون بأني رجل صريح جدًا، لا أحب الخداع والتمويه. مباشر إلى حدود اللعنة. الغربة علمتني الكثير، أشعر بأن عمري قصير، سأعيد عليكم ما ذكرته للتو، لن أتجاوز الخمسين، هناك إحساس قوي في داخلي يردد بأنني لن أعمر كثيرًا على الأرض، أقول لكم هذا كي تعتمدوا على أنفسكم منذ البداية حتى لو كان كلامي فيه الكثير من القسوة كما ذكرت يا آدم، ليكن، سوف ترون في غربتكم أقسى وأعذب وأمر مما سمعتوه لتوكم، ومع ذلك أعتذرعن تصريحي. أنهر لم تعد السيطرة على نفسها، شهقت بزفرة مسموعة جفلوا منها، نهض آدم وأحاط كتفها، أمسكه بقوة، جعلها لا تستطيع أن تتحرك، كمال أرعبه الموقف، بكى دون صوت، غزته الدموع بعفوية مسحوقة، همهم كريم معتذرًا وهو يقول:

- اسمعوا، لكل واحد منا أسراره، هناك حيز في كل إنسان خاص لا يحب التطرق إليه أمام كائن من يكون، قد يكون هناك استثناء في هذا، إذ يقال بأن المرء لابد أن

يفشي أسراره أمام طبيبه النفساني ومحاميه، بعض الأسرار تشكل جزءًا من شخصية الإنسان. غالبًا ما يكون الطيب، الصادق ومن على استقامته أقل عمقًا في إخفاء أسراره، بمعنى، يكون كالمرآة المصقولة، ما أن تنظر فيها حتى ترى كل شيء واضحًا جليًا. لا يحتاج المرء إلى أدنى جهد لمعرفة ما يكنّه الطيب الصدوق. أعدكم بأن تقفوا على حافة سور بئر أسراري دون أن أحدثكم عنها، سأجعلكم تنظرون لها بأنفسكم، يقال، من غيّر وطنه سيضطر إلى تغير حياته، وحياتي في هانوفر لم تتغير فحسب بل أصبحت مكشوفة غير غامضة، ستعرفون كل شيء في حينها، أعدكم، كل شيء، والآن وبعد أن قهرتكم أدعوكم للخروج، لنذهب إلى أي مقهى قريبة، سنشرب نخب الأخوة والمصالحة، ثم واصل بنبرة وقعت بين الجد والهزل:

- لن أقبل أن يدفع أحدكم الحساب الليلة، هذه دعوتي تعبيرًا عن اعتذاري لتصريحي الخطير الذي أدليت به. ما رأيكم؟، استأنف بعد أن صمت لحظة: لا تجعلوني أكرِّر طلبي، هيا.

أنهر كانت منفعلة جدًا، صدرها يصعد ويهبط بقوة خيالية. آدم يحاول تهدئتها بكل ما أوتي من حيلة، تمسك يده كعاشقة دون أن تعرف سببًا لذلك، ترتعش وهي مطرقة على الأرض. نهض كريم بتراخٍ، اقترب من أخته، انحنى عليها برفق، قبّل رأسها وهو يسقط كلماته همسًا على مسامعها:

- سامحيني يا ملاكي، قسوت عليكِ كثيرًا، لم أقصد ذلك.

كمال أراد مشاركتهم، قال بعد تردد وفترة صمت طال أمدها نابصًا:

- أنا موافق على الدعوة، وكأن قوله هذا أفشى فيه أسرار الكون الغامضة كلها وكشفها لهم دفعة واحدة!. نزلوا من الشقة بعد أن أطفأوا إنارتها، ترجلوا نحو المقهى سائرين وريح المساء العذب تشيعهم.

(١٢)

الأمور الصغيرة هي التي تميَز المرء وتعطيه الصفة التي بها يشتهر، وكما يقول الكاتب الروسي العظيم "دوستويفسكي" يكفي أن يشعر الأبله أنه أبله حتى لا يكون أبلهًا.

بعد رجوعهم من المقهى ليلاً حدث أمر غريب لآدم لم يكن في الحسبان كاد يفسد عليهم اتفاقهم مع المهربين تؤخر هربوهم وتمنعهم من الرحيل. فما تعرض له كان فظيعًا، مرعبًا، وحالته أقرب بمن تجرع السم غفلة. ظل يرتعش، يرفع رأسه ويخفضها بحركة آليه أليمة، لم تكن له الطاقة، أو القدرة على الوقوف، وفي كل محاولة منه لفعل ذلك كانت تكلفه الكثير من الجهد وكميات من الهواء على قلتها كان هو في أشد الحاجة لكل ذرة منها يحاول إيصالها إلى رئتيه بدلاً من أن يفقدها في حركة لا طائل منها. يرفس السرير، ينبشه، يتمرغت فوقه، يدور حول نفسه، يمسك برقبته، يفور في مكانه. تعلم من خلال طبيبه الخاص في لحظات كهذه أن يقفل شفتيه بانقباض مدروس تاركًا شقًا نحو اليسار للزفير بعد أن يكون قد عب من الهواء قدر ما يستطيع. هذه الطريقة تجعله أكثر اتزانا وهدوءًا، أقل حركة وعنف وتجعل ضربات قلبه لحدود معينة منتظمة تبقيه على قيد الحياة حتى يتم إسعافه.

فقد انتابته موجة حادة من السعال قطعت عليه أنفاسه، شعر بالاختناق يقبض صدره، بات لا يستطيع التنفس إلا بالكاد مطلقًا أصواتًا حادة تشبه العواء. قلبه يدق بقوة، يسمع عن بعد، شحب وجه، أصفر اصفرارًا رهيبًا، لم يحدث له مثل هذا من قبل. نوبات الربو التي صاحبته كلها لم تكن بهذه الخطورة مطلقًا، مواظبته على أدويته بشكل منتظم ودقيق، تناوله لحبات الكورتيزون في مواعيدها يوميًا، ما بين السادسة صباحًا والثامنة، نسبتها لم تتغير ١٠ ميكروغرام منذ سنوات، ومع ذلك فاجأته النوبة الحادة بعد رجوعهم من المقهى فجأة لم تكن تخطر على البال حدوثها. الصفير الذي كان يطلقه مرعبًا كأنه زفير شيخ مصدور في التسعين. تناول

بمساعدة زوجته جرعتين من جهاز النفاذ اليدوي الذي يستعمله مرتين كل يومين، عبَّ منه بصعوبة بالغة عبوتين متتاليتين، لم يستفد من الدواء البخاري النفاذ لحظتها كثيرًا بسبب توتره وارتعاشه.

أنهر جنَّ جنونها؛ خوفها على زوجها بلغ أقسى درجة يعجز القلم من وصفه، أو شرحه. كانت أقرب إلى الموت منها إلى الحياة. لونها امتقع، ازرق واحمر وبات كلون الأرجوان. هبَّ كريم من فوره ما أن سمع سعال آدم المتصل، اتجه إلى غرفة نومهما، وجد أخته في حالة ذعر رهيبة تفطر القلب، تحيط بآدم بذراعيها، مرة تسنده وأخرى تطوقه، لحظة تفرك له صدره، ولحظة تنفخ في وجهه وهي ترتعش بعد أن فتحت أزرار قميص نومه والأخير يحاول النهوض من على السرير ولم يقدر فتقهقر متخاذلاً على السرير، ساعلاً يشير بيده، يحرِّكها تعبيرًا عن حاجته للهواء. كمال أصبح فوقهم بعد أن فز من نومه، فتح النافذة الصغيرة المطلة على الحديقة الغناء المقابلة للبناية، دخلت نسائم عذبة، باردة كان آدم بأشد الحاجة لها، دموع أنهر كانت لغة صامته، تعبير أخرس عما يحدث لها، ولم يسترجع آدم تنفسه الطبيعي إلا بعد أن حملوه متوجهين به نحو الغرفة التي كان كمال يستحلها، أخرجوه إلى الشرفة وهناك عب من الهواء ما شاء الله له أن يعب. تدريجيًا انتظمت دقات قلبه بعد أن استرد صفاء عقله. بدأ يضحك دون أن يجهد نفسه بتفسير ضحكته؟ لحظتها فقط، استعادت أنهر نشاطها، بدأ قلبها يخفق وكأنها هي التي كانت تعاني ضيق التنفس ونوبة السعال. كانت تلك النوبة هي أول عوارض تطور مرض الربو الذي أصيب به آدم منذ سنوات ثماني، سيلازمه دون انقطاع مثل ظله وصوته، هذا الحدث كان بمثابة إعلان صريح عن تدهور حالته الصحية بشكل مخيف ملفت للأنظار جعل زوجته تعد نفسها بأن تراقبه باحتراس وحذر وتسهر على راحته محاول جاهدة منها لتوفير الأجواء الملائمة له قدر ما تستطيع ما أن تطأ أقدمهما أرض ألمانيا الموعودة.

• • • •

حانت ساعة الرحيل. هل كتب على العراقي هذا الوعد بالرحيل؟ متى ينتهي منه؟! تركوا كل أغراضهم التي أتوا بها. وعدهم كريم بأنه سيشحنها قبل رجوعه حيث مقر أقامته. أنهر لم تستطع أن تقاوم شعورها بالخوف وساعة الافتراق مع أخيها من جديد. الحق، هي لا تعرف ماذا سيحصل لهم في الطريق؛. سائق غريب، يقودهم نحو مجهول رهيب لا يعلم من سره غير الله. لكن، تصرفاتها كانت غير ما ينطق به داخلها؛ ترص على يد أخيها كمال، تشجعه، تقترب من آدم، تسقط في أذنه كلمات تجعله يقوى بها، تذيب فيه كل هواجس التردد التي شاهدتها واضحة عليه، قررت مع نفسها من تحمل المسؤولية، أن تواجه القدر بشجاعة، بإصرار ربما لا يعرفه غير البحر. كريم يرنوا لها بطرف خفي ويبتسم، عرف بأن أنهر ستكون محور رحيلهم، بل العمود الذي عليه يتكئون، عرف ذلك بفطنته، بخبرته، بإحساسه الذي صقلته تجارب الغربة، قال:

- الساعة قاربت الخامسة والنصف، استعدوا، سيكونون في أي لحظة هنا. دفع آدم لنسيبه قيمة إيجار الشقة بالاتفاق مع كمال. أنهر تحدثت بشكل منفرد مع أخيها كريم في الشرفة بخصوص البطانية الناعمة الملساء المطرزة بالزهور التي كانت تلتحف بها مع زوجها في بغداد، بصوت خفيض عذب كأنها تشدو:

- لا أستطيع التخلي عنها؛ سآخذها معي أينما حليت.

ضحك كريم وتفاجأ من الموضوع الذي طرحته أخته، اعتبره سخيفًا لقاء سلامتهم. أجابها بكلمة طيش متعجلاً:

- وما قيمتها كي لا تستطيعين التخلي عنها؟، ثم أردف مرتبكًا بعد أن شعر بأنه لا يستطيع أن يخدع أنهر بسهولة منوهًا: سأجلبها معي كما وعدتكم. قال ذلك وهو يخفض بصره نحو الأرض.

- أنت لن تحضر معك شيئًا، أنا أعرف هذا؛ حقائبنا خمسة، أحجامها كبيرة، ملابسنا كثيرة، وأغراضنا لا تعد، عندما حضرنا واجهنا مشكلة كبيرة في حملها ونقلها، لن تستطيع تحريك أيًا منها بسهولة، وإذا كان الحال هكذا فكيف ستأتي بالبطانية؟. ثم أخذت كلماتها ترق أكثر وتتهاوى:

- لا أريدك أن تحضر شيئًا معك، يكفي ما فعلته من أجلنا، تذهب أشياؤنا إلى الجحيم، أعطها لسامح أو جورج وهما سيعرفان كيف يتصرفان بها، لا تتعب حالك.

لذلك أردت أخذ البطانية معي لأنها تعني لي الكثير، ليس من ناحية قيمتها المادية، بل المعنوية. كانت غطاءنا أنا وآدم، سماءنا التي تحت ظلها ننام، بها نتدثر، شاركتنا سعادتنا، ضحكتنا وشهدت على حبنا. ضمتنا بين حناياها، دافئة كانت دائمًا كأنها تشعر بنا. لها عطر ساحر يسكرنا، يكفي أنها من بغداد، هي آخر ذكرى ستبقى بحوزتي من بلدي، لا تقلق، سأضعها تحتنا على المقعد الخلفي عندما نكون في السيارة، لن أجعل أحدًا ينتبه عليها، أعدك. طبطب على كتفها خجلاً، قال:

- حسنًا. افعلي ما يريحك.

وما هي إلا دقائق حتى رنَّ جرس الباب معلنًا عن قدوم المهربين بصحبة السائق.

• • • •

بقي السائق المجري قصير الجثة كقصر الحلم المحروث وجهه بالخدوش ذات الرنة الصوتية الناعمة التي تغرد بها حنجرته يروح ويجيء في الطريق محمولاً على ساقين مقوسين كأنه عاش وترعرع على ظهور الخيل بجانب سيارته المرسيدس السوداء حجم ٢٣٠ موديل ١٩٨١ بانتظارهم. تستريحان يديه المصلوبتين على صدره خافض العينين كشخص متمرس على سرد الحكايات والأحداث التي لا يصدقها العقل أو هكذا كان يبدو للناظر من الوهلة الأولى بوقفته بجانب سيارته؛ مرتديًا بذلة رصاصية رسمية بلا ربطة عنق، تحتها قميص أبيض نظيف وحذاءين أسودين يلمعان، لا تظهر عليه أي آثار لارتباك أو توتر كأنه مدعو لحفلة.

نزلت المجموعة كلها من الشقة. المهربين وكريم والذين ودّعوا وطن الطاعون يسيرون بخطى وئيدة كخطى الأسرى، تنظر أنهر إلى أخيها كريم نظرة مستعطفه، رحيمة، لا تريد أن تفارقه كأنها لن تراه بعد ذلك. عناق طويل كطول العذاب الإنساني، التمعت الدموع في عيونهم، ساعة الرحيل والوداع لن تتغير، لابد وأن تكون مرة وقاسية كلحظات الاحتضار.

بعد أن تحرر كريم من أحضانهم اتجه نحو السائق، مد يده في جيبه، أخرج ورقة ألمانية نقدية من فئة خمسين ماركًا صفراء:

- خذ، هذه لك. أعتني بهؤلاء، احجز لهم تذاكر القطار الذي يتجه إلى مدينة هانوفر عندما تصلون محطة قطارات مدينة ميونخ، لا تجعلهم يغيرون القطار، ليكن مباشرًا، هم يملكون المال الكافي لذلك، ولا تنسى كما أخبرناك بخصوص آدم عندما تصلون إلى نقطة التفتيش على الحدود. هذا كل ما أطلبه منك، سأطير عائدًا إلى ألمانيا غدًا في الثانية عشر ظهرًا بعد أن أتأكد من سلامة وصولهم. أشار السائق برأسه بلطف زائد، بلغة ألمانية ملتوية:

- لا تقلق عليهم. في الصباح الباكر سيكونون في ميونخ، ثم تابع بعد برهة كأنه يحسب شيئًا: وعند المساءً يشاركونك عشاءك إن شاء الرب.

- هذا أملي.

انحشروا في السيارة. كمال استحل المقعد الأمامي بجانب السائق. أنهر وآدم في المقعد الخلفي بعد أن بسطوا البطانية التي لم تستغن عنها أنهر، أحضرتها معها من بغداد، هي لا تريد التفريط بها، أقنعت أخاها بكل وسيلة وجدتها ممكنة، حتى قالت له من بين ما قالت، سنحتاجها للطريق للتلحف بها اتقاءً للبرد أثناء الليل. وافقها على مضض بعد أن لم ير بدًا من الرضوخ لرغبتها ولم يجد خطرًا حقيقيًا يمكن أن تسببها لهم. انطلق السائق وسط شعور استعمر ركابه جميعًا، شعور بالغربة القاتلة كأنهم نحو المنفى سائرون.

اندفعت السيارة تهدر، محركها يهتز ويعرعر كأنه يلعن الأيام، تحركت مندفعة وعجلاتها تصرخ، تلطم أسفلت الشارع بحنق تاركتًا كريم وزمرة المهربين ورائها بوقفتهم على رصيف الشارع حتى غابت عن أنظارهم كأنها تبخرت كما يتبخر الدخان.

في الطريق السريع بدأ السائق بتلطيف الأجواء التي شعر بأنها متوترة قد تفسد عليه وعليهم عملية التهريب برمتها؛. وضع شريط كاسيت في المسجلة، صدح المطرب العربي صباح فخري يشدو بأغنية مطلعها "ابعتلي جواب وطمني، ولو إنه عتاب لا تحرمني، ابعتلي جواب". تغيرت ملامحهم فجأة، ألتفت كمال إلى آدم يسأله:

- هه. هذا صوت صباح فخري.

- نعم، السائق أحسَّ بارتباكنا وخوفنا وأراد أن يكسرهما فوضع لنا كاسيت يتحدث العربية ولمطرب عربي معروف، هذه شغلته، تراه يفعل الأمر ذاته لجميع زبائنه، بل أؤكد بأنه يحتفظ لكثير من الكاسيتات لمطربين متعددين وبلغات كثيرة، دعنا نستمتع بالأغنية أجلّك الله. أنهر أمسكت يده، استعمرتها كما في كل مرة، فركتها برفق، جعلته يشعر بحرارة حبها من خلال لمسها ليده، هي حكيمة تعرف بالضبط متى تذيب مشاعر الخوف لو لمحتها في حبيبها، لديها طرق عديدة تعلمتها بالفطرة التي وهبها الرب لها كجمالها، تستطيع أن تحول ملامح الحزن برمشة عين إلى شيء يشبه التأمل أو الحلم الذي ما أن يبدأ حتى ينتهي بسرعة البرق. مالت نحو كتفه، أرتاح رأسها الصغير على كتفه، اقترب منها بجلسته، أصبح لصيقًا بها حد التلاحم، لم يعد للهواء من منفذ بينهما، شعرت بسعادة لهذه اللغة الرومانسية الصامتة التي تعبر عن خلجاتها بلا كلمات، أنهر تحب هذه الطريقة حد الهيام، تعشقها، تذوب كالشمعة لو مارستها رغم بساطتها وبراءتها. السائق يهز رأسه مترنمًا للحن الأغنية وصوت فخري الرنان. الظلام ينتشر، بسط جناحية بترنيمة معتادة كطقوس دينية في عهد ما قبل التاريخ، جميلة. النجوم من مكانها تغمز الأرض كحبات الماس، والطريق السريع شبه خالٍ. أول مرة يشاهدون طريقًا سريعًا بهذه النظام والنظافة، ليست هناك مطبات أو عوائق أو حفر كما موجودة على طرق الشرق السريعة التي عاث بها الطاعون وخرّبها.

بعد ساعتين ونصف من القيادة خفَّض السائق صوت المسجلة، أشار لهم باللغة الإنجليزية أن يردِّدوا على مسامعه أسماءهم الجديدة الموجودة على جوازاتهم كما حفظوها. تابعهم بدقة، انتبه كثيرًا لأسم آدم الجديد، كان فعلاً أسمًا صعبًا، ردد آدم بحرص كأنه يتهجا "فا رتيكو ليتا نبو ست" ثم أعاد المحاولة، وهكذا حتى نطق اسمه كاملاً بسرعة دون توقف. ضحك السائق، طلب منه أن يجرب ينفخ وجهه، قال، لا أريد أن أذكرك بهذا، عندما نصل الحدود أجعل شفتيك ضخمتين كما حنكك، مد لسانك تحتهما، لقد رأيت صورة الشاب الغجري الذي تمثل دوره الليلة، أنه أسمن منك، عليك أن تكون مثله، واضح؟، ثم أضاف بحزم:

- سنكون بعد دقائق على الحدود الهنكارية النمساوية، خذوا بالكم، تصرفوا بأريحية، بشكل طبيعي جدًا، لا داعي للقلق أو التوتر، وأنت، وهو يشير لآدم، ضع

يدك خلف كتف زوجتك كأنك تسامرها في لحظة غرام، يجب أن يبدو منظركم وكأنكم في رحلة للسياحة والاستجمام، لا تنسى ما أوصيتك به.

شاهدوا من بعيد لوحات السرعة على جانبي الطريق السريع قد انخفضت وهي تشير إلى ٧٠ كيلومتر، ثم ٥٠ و٣٠ ثم ١٠ وقتها كانت تمر السيارة بين حاجز حديدي مفتوح مطلي بالأبيض والأحمر وشاهدوا عسكريين اثنين وخلفهما غرفة حديدية زجاجها سميك بإنارة ساطعة نتيجة المصباح الكبير الذي يعلوها، السائق يسير بخطى وئيدة دون أن يعترضا سيره، استمر بالسير. أنهر تمسك بيد زوجها بقوة، كمال ظل للحظات مقبوض الأنفاس كأنه ميت، وبعد مسيرة مئه متر تقريبًا واجهتم نقطة حدودية أخرى تعلن عن اسمها، جمهورية النمسا، وكما حدث معهم قبل لحظات تكرر الموقف ذاته ولم يسألهم أحد ولم يطالبونهم بإظهار جوازاتهم، مرت العملية بسلام وهدوء قل نظيره وكأنهم بالفعل كانوا يقومون برحلة استجمام.

انطلقوا مجددًا بسرعة، هدرت السيارة تشق الريح الباردة وعجلاتها تصرّ وتئن والشارع الإسفلتي يفرّ من وراءها هاربًا. نصحهم بالنوم، كمال غط بالنوم قبل أن يشير له السائق، طفل كبير ككمال لا يحتاج لمن يقل له نم، هو ينام متى ما يشعر بالتعب. بدأ يشخر كأنه يصفر. السائق ضاحكًا شرع يسأل آدم:

- ما هذا؟. وهو يشير بيده اليمنى نحو كمال الغائط في نومه بجانبه.

- إنه يردد ما سمعه قبل قليل، مقطع من أغنية صباح فخري ليس إلا.

ضحكوا، والمجري القصير يدق على كرشه وأحيانًا يضرب وجهه كي لا يغفو هو الآخر، أو ينام.

• • • •

أثناء الطريق ولكي يبعد السائق عنه النعاس رفع درجة صوت المسجلة. رنَّ فخري يصدح كأنه لا يريد أن يهجع "غيابك طال وباستنى، وقلبك مال وتتهنى، ان كنت هويت ونسيتنى، وعلي جنيت ما رعيتنى، ابعتلي جواب، ابعتلي جواب وطمني".

حاول آدم وسط هذه الضجة أن يختلي قليلاً بأنهر يحكي لها ما صادفه من موقف ظل عالقًا في ذهنه لا يريد أن يبرحه عندما كان مع أهله وأبناء أخيه نصير في حفل

لقطع مهر أحد أقاربهم قبل أكثر من ثماني أعوام في معبدهم المطل على نهر دجلة بمنطقة القادسية:

- اسمعي، كنت شابًا غريرًا لا يفقه من أبجدية الحياة غير سطور قليلة، لم أتجاوز حينها الرابعة عشر بصحبة أولاد أخي وأهلي. شاهدت في الممر المؤدي إلى حوض التعميد سيارة بيضاء جميلة نظيفة تلمع كأنها معروضة للبيع من نوع "فولكس واكن" برازيلية المنشأ، أعجبت بها كثيرًا، أثارت اهتمامي وفضولي فسألت نوري المدلل ابن أخي نصير عنها:

- لمن هذه السيارة؟

لم يتردد لحظة كأنه يعرف سؤالي قبل أن أنطق به. الحق، استغربت سرعة بديهيته، هو لم يثبت لنا يومًا بأنه يتمتع بهذه الموهبة، أعني، موهبة ردة الفعل السريعة، المهم، أجابني كالطلقة لابكًا:

- أنها لكبير شيوخ الطائفة.

لا أعرف إن كان بالفعل يعي ما قاله كنزوة من نزواته، أم كان متأكدًا؟ الخلاصة، اندهشت من إجابته فتعمدت الرد بصوتٍ عالٍ مستهجنًا مستنكرًا بجرأة كادت تفسد علينا متابعة حفل قطع المهر:

- ماذا تقول، لكبير شيوخ الطائفة؟ وهل رجل الدين يحتاج إلى متاع الدنيا حتى يملك سيارة؟ أم أنه يكرّس حياته من أجل الآخره؟، ثم أردفت متحرشًا بدافع أجهله كأن شيطان ما هو الذي يحفزني ويلقنني: والله عال، شيخ كبير يملك سيارة جميلة، لماذا؟ ما حاجته لها؟ هل من المفروض أن يفكر مثلنا نحن سواد الناس؟، وإذا هو كذلك، فما تبقى لنا؟. وأردت أن استطرد حتى تلقفنا لسان امرأة ملفوفة بعباءة سوداء لم يظهر غير رأسها تصيح وتزعق:

- ماذا تعتقدون، رجل الدين ليس من فصيلة البشر؟ إلا يحتاج إلى سيارة؟. تركناها تشتم وتسب ولذنا بالهرب كالقطط المذعورة، اختفينا بين الناس أصحاب العرس وقطع المهر ولم نشاهدها بعد ذلك. بعدما فرغنا مما نحن فيه ملتهون. سألت نوري من جديد عن هوية العجوز. فأجابني كمختار يعرف أبناء محلته جيدًا:

- إنها زوجة الشيخ صاحب السيارة!.

ضحكت أنهر من كل قلبها، قالت معقبة:

- لك يا آدم حكايات تستحق عليها مزيدًا من القُبل. شاركها الضحك وإذا بهم يسمعوا صوت مدوي من تحت السيارة كالانفجار أرعبهم، فزّ كمال من نومه مرعوبًا، مذعورًا، صاح بلا وعي كالمجنون:
- ماذا يحدث؟ ما هناك؟ ما هذا الصوت؟.

جعلهم الصوت المدوِ المفاجأ كصوت انفجار لغم بقربهم يتوقفون مجبرين والخوف يزلزل قلوبهم يأكل فيهم ويتغذى عليهم. خفف السائق السرعة، مال ببطء نحو رصيف الشارع السريع. وبعد أن توقف تمامًا فتح إشارات السيارة الأربعة. مبقيًا على محركها يدور، ترجل بعد أن طالبهم بالهدوء. انحنى تحتها لمعرفة سبب ومكان الصوت الذي أحدث الرعب في نفوسهم في وقت لم يكن على الإطلاق وقته.

عندما فتح السائق باب سيارته وترجل منها دخلت ريح باردة أثلجتهم. لم يتعودا على مثل هذه الريح ولم يتوقعوا أصلاً أن تكون برودة الليل هكذا وهم في الأسبوع الثاني من تموز. فجأة تذكرت أنهر البطانية، نظرت لآدم ففهم ما كانت ترنو إليه، أزاحوها من تحتهم، أعطتها لكمال، أخوها رفض مناورًا، قال:
- لنتلحف بها نحن الثلاثة، ألا ينفع؟!

- لا يا حبيبي. أجابته أنهر برقة معتادة، متأصلة في طبعها، تابعت:
لا تشغل بالك، نحن نعرف كيف ندفي أنفسنا. تناولها من يدها، غطى بها نفسها متدثرًا، أبقى رأسه فقط ظاهرًا. شاهدوا السائق يدور حول محور السيارة من جهة الشارع بعد أن تمدد تحتها من طرف الرصيف. دخل السيارة، أشار لهم بالصبر والروية، أضاف عابسًا بوجه منكمش متقلص نتيجة البرد الذي لفحه وهو يفرك يديه اللتين تلطختا بالسخام:
- هناك كسر في أسطوانة غاز العادم هو الذي أحدث هذا الصوت كله. لجهل كمال اللغة الإنجليزية جهلاً يكاد يكون مطبقًا كعلاقة الأعمى بالنور ناح ملتفتًا لأخته على وزن فصاحة اللسان وبلاغة البيان متمطقًا من بين شفتيه كمن لا عمل له غير جدل الحبال يرجوها الترجمة. شرحت له باقتضاب ما قاله السائق. واصل المجري حديثه برنة كرنة صليل الجلاجل:
المشكلة هي أننا لا يمكن أن نسير بهذه الضجة الصاخبة، سيلاحقنا البوليس بالتأكيد ما أن يسمعونه، سيطلبون منا التوجه إلى أقرب ورشة لتصليح العطب، دورياتهم

في كل مكان، في كل محطة لتعبئة الوقود تجدونهم. النمساويين يختلفون عن المجريين كثيرًا خاصة شرطتهم، لو حدث هذا ونحن مازلنا في هنگاريا لما كانت هناك صعوبة تذكر، أسلمكم جوازاتكم العراقية وفيها فيزكم الرسمية المرخصة للسياحة في بلدنا تجعلنا لا نهتم، لكنكم لا تملكون فيز النمسا وفي ذات الوقت لا أريد أن أجازف عند السؤال بإظهار الجوازات الأخرى، مازال أمامنا حوالي ثلاثين كيلومتر حتى نصل حدود ألمانيا. المسألة تعقدت، لا أعرف كيف أتصرف، صفق يدًا بيد بحنق وقوة متجهمنًا، متحسفًا وهو يغمغم متأثرًا بعد أن بان الخوف عليه:

- شيء لم يكن يخطر على البال مطلقًا.

استغربت أنهر تغير صوت السائق بهذا الشكل المفاجأ الغريب، خاطبت نفسها:

" كيف يمكن لتبدل المشاعر أن تغير طبقة ورنة الصوت لدى الإنسان؟ عند الفرح تختلف عما عليه عندما يشعر بالخطر، أو الحزن!، كان صوته مذ قليل أقرب إلى صوت النساء، فجأة أشتد وقوى وبات يطلق رنين متميز حاد كالتي تطلقها خرز الجلاجل عند ارتطامها ببعض أثناء الحركة، سبحان الخالق ".

(١٣)

قيل بأن الشقاء مرضٌ معدٍ، يجب على الأشقياء والمساكين أن يتجنب بعضهم بعضًا، يجب عليهم أن يتحاشوا أي اتصال بينهم حتى لا تزداد آلامهم بعدوى متبادلة. من المنصف أحيانًا أن يثني المرء على أعماله بنفسه بين الحين والآخر. وغالبًا ما يكون التعبير عن المآسي والمحن أشد إيلامًا من المصائب والمصاعب نفسها التي تحاول أن تعبّر عنها أو وصفها.

لم يبت كريم في الشقة بعد أن غادروه الهاربون. دعاه جورج إلى بيته لقضاء الليلة عنده كي يكون تحت أنظارهم ورقابتهم حتى يأتيهم خبر وصولهم اليقين.

كانت لهجة جورج ودودة جدًا، رنة صوته الرنانة صادحة تخللها الضحك وهو يشير إلى كريم وقتما ودعوا المجموعة واختفت السيارة عن مرمى أنظارهم. دعاه بالاتفاق مع زملائه الآخرين، متوددًا:

- يا أبا الكرم، لن نجعلك وحيدًا، لقد ذهبوا ودعواتنا الصادقة بسلامة وصولهم تتبعهم. لا تقلق، كل شيء سيكون على ما يرام. السائق خبرته كبيرة في هذا المجال. نحن نعمل معًا منذ أثنتا عشر سنة بنجاح ساحق. رنت ضحكته المجلجة، وهو مازال مكشرًا عن أسنانه، تابع:

جهز حالك، ستأتي معنا، أقصد، معي بالتحديد، لتحل عليّ ضيفًا معززًا، مكرمًا حتى الصباح، سنقضي سهرة ماتعة حلوة منذ زمان نتوق لممارستها، سيكونون الزملاء معنا طبعًا حتى ساعة متأخرة من الليل ثم يغادروننا، لا تنسى يا ابن عمي أن تجلب معك الأمانة. يسوع المسيح أكد على حفظ الأمانة وتسليمها لأصحابها، هز كتفه وأضاف: أنت تعرف ما أعني!.

جال كريم ببصره انحاء المكان الذي كانوا واقفين فيه على رصيف الشارع تحت شرفة غرفة كمال التي كان يستحلها قبل رحيلة مع أخته وآدم قبل لحظات. ظلالهم في ذلك الحين من المساء بدت أقصر من حقيقة طول أجسامهم. الشمس بدأت

بممارسة طقوسها الأزلية، تودعهم. تسحبت ببطء وصمت معهود يشار له بالرهبة والإجلال. أدار رأسه نحوهم، أمعن النظر فيهم، ثم خرج عن صمته كأنه تذكر ما يريد قوله:

- تسعدني دعوتك يا صديقي. انتظروني هنا، سأجهز نفسي، أغير ملابسي وآتي بالأمانة ثم نغادر منطلقين نحو بيتك معًا.

كان بيت جورج في قرية جميلة على رابية تلة خضراء لا تبعد كثيرًا عن العاصمة " بودابست " سوى خمسة وعشرين دقيقة بالسيارة. سوّر البيت بشجيرات قصيرة وقفت بانتظام مدروس حول البيت. توسطته باب حديدي مزخرف مريض بالصدأ كان أبيضًا وسرعان ما تحول لونه إلى رصاصي مصفر نتيجة القِدم، الاستعمال والصدأ. على جانبي الممر المفضي للبيت حديقة منزلية تقبع في طرفها الخلفي حديقة خضار واضحة المعالم يومية الحصد والقطف كما أخبرهم جورج بنفسه، مليئه بالخيار البلدي القصير والطماطم والباقلاء واللوبياء والكرفس والرشاد والفجل والبصل الأخضر وأنواع أخرى لم يذكرها لهم في حديثة جورج بعدما سكر.

دخلوا غرفة الضيوف الواسعة عالية السقف بزجاج نوافذها الكبيرة المشجرة الألوان المطلة على الحديقة فبدت الغرفة بهيئتها وأثاثها الخشبي الشامي المطعم بالزخارف البسيط كصحن كنسية من العهد القديم. هدوء ونظافة ومقاعد خشبية من الساج وجدران عارية إلا من صورة كبيرة للعذراء مريم تتوسط أحد جدرانها المقابلة للحديقة، حتى أن ضوء القمر المنعكس عليها كانت تضفي عليها نوع من السطوع والخشوع والإجلال. استقبلتهم صديقة جورج بترحاب منقطع النظير كأنهم أخوتها أو أقربائها. سألتهم أن يتعشوا أولاً أو يبدأوا بالشرب. كان الجواب حكيمًا وبالأغلبية، الشرب والسمر والطرب، ثم العشاء والنوم. الشرقيون يستطيعون أن يتخذوا قراراتهم الحاسمة بسرعة البرق إذا كانت تتعلق بالنزوات والشهوات. بل أثبت كل من، كريم العراقي، سامح المصري، جورج السوري، وكاسب التركي بليلتهم تلك بأنهم على قدر المسؤولية، يستطيعون أن يتحدوا في كلمتهم وأفعالهم. هكذا هم رجالنا. باركهم الله. نصبت العدة. طاولة خشبية رائعة الصنع، ملساء السطح، تحفة حقيقية، تجلس أقدامها المطعمة بالزخارف على أرض موزائيك

أبيض منقط بالأسود غاية في النظافة. انتشرت على سطح التحفة ما أمر جورج به، من مشروبات، ومزات، وسلطات، وزجاجات البيرة، والويسكي، والعرق، والشمبانيا، والنبيذ الأحمر والأصفر وما لذ وطاب لهم ولمن على شاكلتهم.

بدأت حفلتهم برص الكؤوس وطقطقتها. ارتفعت أصواتهم بالتدريج، ازداد لغطهم، مقتوا أيامهم، شتموا الدهر والقدر وقادة قاراتهم الشرقية سبب وجودهم وتغربهم وقهرهم. مضت عليهم فترة لم تتجاوز الساعتين وهم على هذا النحو يبكون حالهم حتى تسرب الخمر إلى أصغر مسامات جلدهم، تشبعت به، فاضت، ثم صعد الخيال إلى عقولهم بعد أن لحسها. للخمر سلطان لا يقهر يذلّ من يقربه، فقدوا رشدهم قبل أن يطير لبهم، نسوا أنفسهم والسائق صاحب المرسيدس السوداء بصحبة المجموعة الواقفة على قارعة الطريق بين النجاة والموت تنتظر رحمة الله، انتصب جورج وسطهم يدبك وهو يغني الميجانا، الآخرين يرددون خلفه، يصفقون بلا انتظام كيفما أتفق كالصبيان في حفلة عرس شعبي حتى بانت أولى تباشير الصباح، ثم ناموا كالقتلة في أماكنهم بلا عشاء.

• • • •

جلس السائق مهمومًا كحاسد يعاني من أزمة في مقعده بداخل السيارة خلف المقود الجلدي الأسود لسيارته المرسيدس، إشاراتها الأربعة مازالت تشتعل وتنطفئ، محركها يرن ويدور كما سخانها طلبًا في الدفء، والمجري القصير كقصر ليالي الصيف لا تكاد تكفي للنوم سارحًا لعله يجد طريقة تنقذه وتنقذ المجموعة التي معه. طال تأمله حتى قطعت عليه أنهر خيط أفكاره بسؤالها:

- أعذر لي تدخلي، كيف يمكن لنا مساعدك؟، ثم أردفت بحماس صادق: بماذا تفكر؟ أقصد، شاركنا، لعلنا نستطيع فعل شيء ما، فنحن كما ترى كلنا في مركب واحد، يعني، أما أن ننجو، أو أن نغرق جميعنا. أدار لها رأسه، رشقها بنظرة مستطلعة، أعجبته جرأتها وحديثها الحاسم الصادق، ملجلجاً موجزًا:

- لا أرى غير حل واحد.

رد عليه آدم متعجلاً:

- ماذا تنتظر، ما هو؟!

- أن نقص البطانية التي يتدثر بها صاحبكما الجالس بجانبي مقرفصًا، ثم نأخذ منها شريطًا على طولها نستعمله لربط الجزء المكسور من أسطوانة غاز العادم رغم خطورة المكان لارتفاع حرارته لكنني سأفصله بقطعة بلاستيكية أحتفظ بها في صندوق السيارة وأجعلها عازلاً بينها وبين الأسطوانة تفاديًا لاحتراقها حتى ندخل ألمانيا في أقل تقدير ولو أسعفنا الحظ واستمر الحال دون مشاكل كما شرحت لكم يمكننا أن نستمر في سيرنا بسرعة أقل مما قدنا بها حتى نصل ميونخ، وقبل أن يصمت، أضاف: ما رأيكم؟!

تفرست أنهر في وجه زوجها. صرخ داخلها يبكي ذكرياتها قبل أن تعيش غربتها الحقيقية المتأملة. قطبت جبينها، قربت ما بين عينيها، سألت آدم عن رأيه:

قال:

- أما تاريخنا وذكرياتنا، أو نجاتنا!. ثم أستأنف بعد لحظة صمت: أبيت أن أطرز قبلت بكسر الحجارة!.

كمال دون أن يُسأل، صرح نابرًا:

- ما تنتظران ؟ سأتي إليكم بعشر بطانيات عندما نصل، تذهب إلى الشيطان، أرجوكما، هه. المسألة لا تحتاج إلى جزء من ثانية تفكير، القرار محسوم، وأراد أن يشير للسائق على موافقتهم، نهرته أخته، قالت:

- لا تقل شيئًا من نفسك، ألتزم الصمت، ثم وجهت الكلام لآدم مرة أخرى، ها. ما قولك؟

- يعتقد المجرمون بعد يصرحوا عن توبتهم أصبحوا مؤمنين أبرياء. لا خيار آخر لدينا.

فرح السائق بعد أن أبلغته أنهر بقرارهما. اندفع نحو الخارج مسرعًا كالهر وبيده البطانية التي لم يتباطأ كمال بتسليمها له، فتح الصندوق، أخرج منها بعض الأشياء التي لم يتبينوا نوعها. انحنى من ناحية الرصيف تحت السيارة وهناك بدأ يشتغل، يقص ويدق ويطقطق. وما هي إلا دقائق حتى خرج فاردًا طوله، مسح يدية بما تبقى من البطانية الممزقة التي غدت فجأة خرقة بالية وسخة ملوثة بالسخام والدهان لا

معنى لها. دسَّ عدته وبقايا ما كانت تسمى بطانية تحمل العطر والتاريخ والذكريات في الصندوق. أخذ محله في مقعده، ضغط على دواسة البنزين بعد أن غير عتلة السرعة، اندفعت السيارة تلتهم الشارع الإسفلتي الذي يلمع في بعض مناطقه نتيجة إنارات السيارات القريبة المحاذية لهم دون قرقعة إعلانًا عن نجاح عملهم. تابعوا سيرهم باتجاه ألمانيا حيث رغبتهم، غربتهم التي قبل أن تبدأ، سحقت آخر تاريخ حلو أرادوا منه أن يتذكروه كواقع صار خيال ممزق لا طائل منه للمه أو رسمه أو إعادة تشكيله من جديد.

• • • •

بدأ الليل ينجلي والفجر يستيقظ. سارت السيارة ما بين النقطتين الحدوديتين بين النمسا وألمانيا دون مشاكل تذكر. الأمر المفرح، بل الملفت للنظر هو أن النقطة الحدودية الألمانية لم يكن فيها أحد، خلت من الحراسة في ذلك الفجر الباهي المشع الخلاب الذي يبدو عند الأفق كحريق بلا ألسنة حمراء صفراء مغرية للنظر والتأمل كحالة طبيعية استثنائية نادرة الحدوث. تلك الغرفة الحديدية المضاءة كانت خالية تمامًا من البشر. تمر السيارات بطيئة من أمامها تزحف زحفًا لا أحد يستوقفها. وهكذا دخلوا الأراضي الألمانية دون حاجتهم للتوقف لتصليح السيارة محاطين برعاية ورحمة إلهية تعكس طيبتهم وكرم نفوسهم.

السائق كان طائرًا من الفرح، ترك المقود وبدأ يصفق بخبل، قال وقلبه يكاد يخرج من صدره لقوة خفقانه:

- مثل هذه السفرة لم تتح لي من قبل. تعطل السيارة في مكان لا يتوقعه أحد، ثم أجد عندكم بالصدفة بطانية رغم الخطورة نتيجة الحرارة، جازفنا وغامرنا ونجحنا بقدرة لا تفسر. نجد بعدها نقطة الحدود الألمانية خالية لا حراس فيها، أمر لا يصدقه العقل، لم يحدث هذا من قبل، فالشرطة الألمانية حريصة جدًا على التفتيش والسؤال، لقد أحضرنا تلك الجوازات فقط لهم وبسببهم نتيجة دقتهم المعروفة، ثم ماذا؟ لا نجد أحدًا ينتظرنا. صاح بهبل كفاقد الصواب:

كيف يمكن أن يحدث كل هذا في ليلة واحدة ؟!. أمسك بالمقود عندما شعر بأن السيارة تميل شيئًا فشيئًا نحو حافة الرصيف ذي السياج الجانبي الحديدي الواقي الرصاصي اللون ونعق مجددًا:

- هدفنا كان واضحًا منذ البداية، الوصول إلى ميونخ وتفريغ شحنة السيارة والمتمثل بحضراتكم. بعدها أبحث عن أول ورشة تصليح أجدها في طريقي. قال ذلك وهو يتلمس بحثًا عن ضابط صوت المسجلة. رفعه إلى أعلى درجة كشخص فقد سمعه فجأة على غير توقع.

تنحنح آدم يسأله بعد أن ترجم لكمال ما أنعم عليهم به :

- أرجوك اخفض صوت المسجلة أولاً. خفضها. تابع آدم بعد أن سطعت عيناه ببريق يحسد عليه وبشرته بانت وكأنها بلون ظل غيمة على حافة قمة جبل في نهار ساطع:

- هل يعني نحن الآن في أمان؟

- طبعًا. ما من شك في ذلك، تستطيعون الآن أن تنزلوا من السيارة، تتسوقوا وتشتروا ما تريدون ثم ترجعوا حتى نكمل سيرنا، لا خوف عليكم بعد الآن، لكنكم أمانة في رقبتي والهدف هو ميونخ وليس السوق، قال هذا وهو يبتسم ابتسامة المنتصر بشموخ عظيم وجده يستحقه.

ما أن سمع آدم هذا الكلام حتى اقترب من أنهر وقبَّلها قبلة ساخنة طويلة عبَّر فيها عن فرحته وقرب تحقيق آمالهم الموعودة. زوجته تجاوبت معه بنفس الحرارة، يعجبها جدًا التعامل الفطري غير المحسوب أو المدروس، غرقت معه في عالم سحري تخجل الكلمات من وصفه.

كمال ظل يلوب في مقعده، فهم من تصرف آدم على أنهم أصبحوا أحرارًا لا يقلقون ولا يرتعبون، أحمر وأصفر وأزرق وهو يتلفت إلى أخته ونسيبه بين لحظة وأخرى خجلاً وجلاً والدموع تترقرق من مقلتيه مدرارة دون إرادة وكلمات أنهر ترن في أذنيه قبل عامين عندما كانوا في منتجع الحبانية يحتفلون بعيد الخليقة الخاص بملتهم ليلة كانوا لوحدهما يحضران عدة الشاي في باحة الشقة الخضراء المسورة بالآس

"إذا شاء الفرد منا أن يسجن نفسه برغبته في غرفته أيامًا وأشهر قد لا نجده يملّ أو ينزعج، في حين لو أجبر على أن يبقى يومين كارهًا تحت نير الجبر والأمر نراه يطق وقد ينفجر". وعى كمال على نفسه، ضرب بيده مقدمة واجهة السيارة الداخلي كسفاح كاسر مبتهجًا لا يعرف ماذا يقول:

- اللعنة. سنعيش، لكن ليس في وطننا حيثما ولدنا. ولم يتوقف سيل دموعه حتى نهرته أخته طالبه منه برجاء متوسلة أن يكف. وصلوا مركز مدينة ميونخ، محطة قطاراتها الرئيسية. توقف السائق في الجراج الخاص لسيارات التاكسي طالبًا منهم الترجل بعد أن سلّم كمال جوازاتهم العراقية التي كانت تتمتع بدفء وحرارة عجيزته تحت جلدة مقعده.

obeikan.com

(١٤)

لا شيء أصعب من كسب ثقة الناس. عمل واحد غير جدير باستطاعته أن يهدم ثلاث سنين من الطيبة والتفاني. الإنسان بطبيعته الصعبة المتناقضة ينسى بسرعة رهيبة كل ما حصل عليه وما وجده وما تمتع به وخصّه في تلك الفترة المنعشة التي عاشها في كنف الطيبة والحب والأعمال الجليلة، لكنه يبقى يتذكر بقوة ذلك العمل اليتيم الذي يراه من زاويته ويعتبره غير جدير به ولا يرتقي إلى مجده، يظل يردده مثل الأغنية أمام الجميع وأينما يكون.

قاربت الساعة الثامنة والنصف صباحًا. دخلت أشعة الشمس تهتز مترنحة عبر الشباك المطل على الحديقة في بيت جورج والجماعة يغطون في نومهم كالقتلى بعد سهرة ماتعة مجلجلة فقد فيها كل مشترك رطلاً من الشحم في أقل تقدير ما بين ردح ودبك.

دخلت عليهم صاحبة البيت المجرية تحاول إيقاظ صديقها جورج. لحظات من التثاؤب، يفتح ويغلق فمه كأسد في عرينه وهو يهز رأسه يمينًا وشمالا مباعدًا يديه ثم يقربهما على صدره كأنثى الغورلا، نهض من على الأرض خجلاً من صديقته قبّلها بتراخٍ وسألها عن الوقت مباشرةً. ما أن أجابته حتى بدأ بإيقاظ الآخرين زملاء السهرة يحثهم على النهوض لتناول الفطور. وقبل أن يذهب كريم لغسل وجهه سأل جورج إن كان قد تلقى اتصال منهم، أجابه الأخير بهزة من رأسه كحصان هرم بعد جولة مسائية متعبة علامة النفي.

• • • •

عندما سلّم السائق جوازاتهم لكمال طلب منهم أن يذهب أحدهم معه لإجراء اتصال يطمئن المهربين على سلامة وصولهم كي يستلموا حقهم من كريم. أجابه آدم بلهجة ظهرت بين الرجاء والطلب:

- لماذا لا تكمل جميلك معنا وتوصلنا إلى هانوفر ونعطيك ما ترغبه؟. أنهر أعجبتها الفكرة، ضغطت على يد زوجها بحنية إشارة منها على موافقتها، كمال طرب للاقتراح، حاول أن يتحدث مع السائق خانته إنجليزيته، أحسّ بالمذلة، توسل بنسيبه أن يترجم له مشاعره، قائلاً:

- أرجوك آدم بلّغه بأنني سأعطيه مكافأة قيمتها مائتا مارك غير ما سيطلبه، قل له بأننا نجهل النظام واللغة ولا نعرف كيف نتصرف، أنها خدمة إنسانية أكثر منها مادية.

ترجم آدم ما سمعه، أنصت السائق له بشكل جيد، وبعد أن كفى آدم كلامه، انهمر فم المجري بالكلام كما ينهمر المطر غزيرًا والعرق بدأ يتفصد على جبينه لامعًا يزرهم بعينيه الصغيرتين اللتين تشبهان عيني خنزير حديث الولادة:

- لا. لا يمكن، لن أفعل، لا أستطيع صدقوني، السيارة كما رأيتم بالكاد أوصلتنا إلى هنا، لابد من تصليحها. عملي انتهى بتوصيلكم محطة قطارات ميونخ، وها أنتم تقرأون اليافتة الكبيرة التي تعلوا بوابة المحطة تشير لما أقول. السلامة والأمان أهم من المال، التجربة علمتني ذلك، لا أريد المجازفة في أمر غير محسوب العواقب، لا تنزعجوا من رأيي، لن أتحرك معكم خطوة واحدة بالسيارة أكثر. ما وعدت به كريم أنفذه بالحرف الواحد، فبعد أن نجري الاتصال بهم ونطمئنهم أقطع لكم تذاكر القطار وأقول مع ألف ألف سلامة، ثم أضاف حاسما مجددًا طلبه: من سيذهب معي للاتصال وقطع التذاكر؟. رد عليه كمال نابرًا كطفل أتلفه الدلال:

- أنا.

ردت عليه أخته بنبره حاسمة:

- كيف تذهب معه وأنت لا تعرف التحدث بالإنجليزية؟ كيف ستغازل السائق؟ بأي إشارة؟ ليذهب آدم معه وننتظر نحن في السيارة، هذا أأمن لنا وأسلم.

لم يدم غيابهما أكثر من خمسة عشر دقيقة ثم رجعا. سألت أنهر زوجها:

- ما الذي حصل؟

- كل شيء تمام، وأضاف: هيا لابد من التحرك الآن، سيأتي القطار بعد ثلاثة وثلاثون دقيقة في رصيف رقم ٦ حجزنا حتى مقاعد الجلوس، لنودع السائق ونتجه

للرصيف بانتظار القطار. ترجل كمال من السيارة، واجه السائق وجهًا لوجه، حضنه بقوة كأنه أخوه. أنهر وقفت بجانب زوجها، مدت للمجري يدها، شكرته على كل ما فعله من أجلهم، ثم ساروا في الممر الذي يؤدي إلى أرصفة القطارات التي كانت كثيرة كشوارع ممتدة أمامهم يصعب عدّها. كان الانبهار مسيطرًا عليهم، واجهات المحال التجارية المضيئة، مطعم الأكلات السريعة الذي يطل عليهم متلصلصًا من الطابق الأول برواده من مختلف الأقوام والجنسيات، الساحة الداخلية للمحطة كانت أرضيتها تلمع كأنها لبيت من بيوت المسؤولين الكبار المحافظين على النظام والنظافة، إلى يسارهم كانت تطل سينما يدخلها المرء بعد ارتقاء سلمات قليلة لا ترهق القلب عند صعودها يعلوها يافتة كبيرة ملصوق عليها صورة إعلان لفلم جنسي. كمال ركز نظراته على الملصق الفاضح، شعر برجفة تسري في بدنه كالتيار الكهربائي، آدم أحسَّ به، قال متهكمًا غامزًا:

- ستشبع حتى تمل!. ضحك نسبيه دون أن يعقب.

تابعوا سيرهم باتجاه أرصفة القطارات، كانت إلى يمينهم مجموعة من الشبابيك المطلة على باحة المحطة الداخلية يبيع أصحابها تذاكر القطارات، بجانبهم يقبع ركن مليء بالزبائن لتغير العملة يقابله كشك مشرع الأبواب لبيع الزهور ثم يليه في الوسط كشك آخر يبيع صاحبه نوع من الكعك المضفور لم يتعرفوا على ماهيته يدعى بالألمانية " برتسه " كانت تقريبًا نصف دائرية لا يتعدى حجمها كف اليد يعلوها الملح حنطية اللون. وهم ملتهون بالنظر والسير قدمًا نحو هدفهم حتى اقترب منهم ضابطان من الشرطة الألمانية، رجل وامرأة، كان الضابط أزغب البوز مصعر الوجه، والتي معه معتدلة القوام تشبه الرجال في وقفتها ومشيتها، أحاطا بهم، تركوا مسافة متر تفصلهما عنهم. طلب منهم الضابط الذي أنّ صوته كشخص يعذب أوتار آله موسيقية واقعة تحت رحمة أصابعه باستكانة تشبه استكانة أسير في ثكنة منتصرين بوقار كاذب كمن لا يؤمن بصدق نواياه وصحة أقواله رؤية جوازاتهم، وكانت الكارثة.

(١٥)

ليست السلاسل وحدها أغلالاً؛ هنالك ما له نفس القوة توصل المرء إلى الإذلال كالأغلال دون أن نسمع لها الصرير الذي تطلقه السلاسل. والاعتراف بالخطيئة لا تجعل مقترفيها يبرؤون تمامًا، عليهم بقبول العقاب أولاً ثم العلاج الذي طريقة حتمًا أقسى وأطول من اعترافهم النظري بالذنب، وكما تقول العامة، فرط الشحم يبطر.

لم يعرف كريم ما حدث لهم بعد اتصالهم وتبشيرهم بسلامة وصولهم وما آل إليه وضعهم داخل المحطة مع الضابطين الذين نطا في وجوههم يسألونهم عن جوازتهم.

طار من الفرح وهو يسمع من نسيبه آدم عبر الهاتف خبر وصولهم ميونخ بالسلامة دون معوقات كبيرة تذكر. عانق كريم المهربين بحرارة، شكرهم من كل قلبه، عاد فحضن جورج واسمعه كلامًا أخويًا صادقًا مثنيًا على حسن ضيافته ومساعدته كما فعل مع سامح الشيء ذاته بعد أن دس في يده إيجار الشقة المتفق عليه، ثم قام بعدّ النقود أمامهم وسلمها إلى كاسب بيده وهو يردد كلمات الشكر والعرفان طالبًا من سامح أن يتبعه إلى الشقة لأمر لم يصرح به أمامهم.

دخلا الشقة. همهس كريم بصوت ناعم:

- عزيزي سامح، اخترتك بالذات لسبب تعرفه، أنت جدير بالتقدير، ساعدت أهلي بتواضع دون طمع، منذ البداية لم تحاول أن تخدعهم، وقفت بجانبهم، علمتهم قدر ما يسمح به وقتك على الأشياء المهمة التي ينبغي اتباعها لأشخاص لم يجربوا السفر من قبل، شعرت بهم، عاملتهم كأخوة لك، هم قالوا لي ذلك. الحق، نحن نفتقد لمثل هذه العلاقات الصادقة البريئة في غربتنا، كنت أعتقد بأنها انقرضت، لكنك جددت في الآمال بوجودها وبقوة. قاطعه سامح بضحكة وادعة رقيقة خفيفة منوهًا:

- لا تقل مثل هذا الكلام يا كريم، كنت في تعاملك أيضًا مثالاً رائعًا للجدية والصدق.

ـ لذلك، أردت مكافأتك بأشياء عينية ربما تحصل من وراءها على بعض المال، ما رأيك ؟، ثم تابع وكأنه تلقى جوابه : كما ترى أنا لا أستطيع أن أحمل كل هذه الأغراض التي أتوا بها الشباب، شحنها إلى ألمانيا ستكلفنا ضعف أسعارها، وعليه قررت أهداءها وأنت حر فيما تفعله، تبيعها، تهديها، تلبسها، تعيرها. مسؤوليتي تنتهي بإعطاءها لك. ما أن أتم كريم كلامه حتى طوقه سامح حاضنًا يقبله ويطبطب على كتفيه بطريقة بدت مبكية لما فيها من إحساس بالشكر. حزم كريم أمتعته وتوجه إلى مطار بودابست بغية اللحاق بطائرته التي تقلع عند الثانية عشر ظهرًا متوجه إلى هانوفر حيث يقيم.

عند الرابعة إلا خمسة عشر دقيقة كان كريم في بيته. كاترين صديقته أول من استقبله، قبل وصوله كانت قد هيأت شقته لاستقبال الزائرين الجدد. رغبتها لا يمكن وصفها في التعرف على أخته أنهر. كريم حدثها عنها قبل وصوله، قال فيها شعرًا مقفى جعل كاترين تشتاق لرؤيتها، هو يعرف بأن صديقته تحب الناس، هذه صفة عامة عند الألمان، عطفهم غالب على تصرفاتهم، وما أن سمعت كاترين بيوم وساعة وصولهم حتى حضرت منذ الساعات الأولى من الصباح تنظف وترتب وتهيأ لهم المكان والطعام قبل أن تلتحق بعملها.

لم يحدث لأحد من يعرف كاترين عن قرب أن رآها منفعلة، أو في حالة هيجان عصبي من النوع الشائع المألوف الذي نراه في شعوب شرقنا الغائب عن الوعي بإرادته!. متماسكة، تعرف ما عليها وما لها، تذهب إلى غايتها بسهولة لا يتصورها العقل، ولا يهمها إن كانت ستصل هدفها أم لا. الخبرة تأتي بالتجربة، هي تؤمن بهذا كإيمانها بربها. لها من العند يفوق على ما يتحلى به البغل من عناد. في بداية حلقة سن اليأس، أجمل ما فيها إنصاتها للآخرين عندما يتحدثون، يهتز رأسها الصغير كلما همّت في الكلام. شعرها متموج، قصير بلون سنابل القمح الناضجة، وجهها له جاذبية لا يعرف الرائي ما هي، لا يستطيع أن يحددها بالضبط، يبقى مبهورًا برؤيتها وطلعتها يحدث نفسه بأنها ليست جميلة لكن شيئًا ما يردد غير ذلك فيبقى في حيرة من أمره لا يقدر على أن يبت في أمر جمالها. عينان صغيرتان براقتان مدورتان تعكسان طيبة ورحمة صاحبتهما، تنطقان بالشفقة والعطف على كل كائن يدب على الأرض حتى الصراصير الهائمة على وجهها. طويلة كعمود النور

وراحتي كفيها بسبب عملها في بيع الزهور قشّر جلدهما، أعطاهما خشونة ملحوظة لا تخطئها العين السليمة حتى لو لم يلامسها. في صوتها رنة متميزة تشعرك بطيبة صاحبها أقرب إلى رنة النحاس، تعشق السفر والتجوال ولا تفرط بحريتها التي تعتبرها كل عالمها بعد ابنها نديم الذي يشبهها شبهًا رهيبًا، لم يأخذ من ابيه غير عينيه، وها هي الآن تستقبل كريم أحسن استقبال بلهفة تلاغيه وتسأله:

- آه يا حبيبي كم اشتقت إليك. طمئنني كيف سارت معكم الأمور؟ ما أخبار أنهر وأخيها كمال؟ ماذا عن آدم، لماذا أنت ساكت؟ ها. هل تجرب إغاظتي؟!، تكلم.

قاطعها بقبلة طويلة روى من خلالها ظمأه لها طوال مدة غيابه عنها، قال بعد أن أبعدته بحنية بغية سماع ما ترغب سماعه:

- المفروض هم الآن في القطار الذي يقلهم إلى هنا. صاحت بأدب مبالغ فيه:

- رائع.

- أين نديم؟ اشتقت له كثيرًا.

- مازال في الحضانة، سأذهب وأجلبه، لن نتأخر عليك، كل شيء جاهز، سنتغدى معًا، ما أن تكون قد أخذت دشًا وتغير ملابسك حتى ترانا هنا من جديد.

خطفت منه قبله سريعة وغادرته من فورها.

- هذه هي إحدى عادات الشعب الألماني، قال ذلك كريم مغمغًا مبتسمًا وهو يتجه نحو الحمام مطرق الرأس كأنه في حالة انسجام مع الروح.

• • • •

طال انتظارهم ولم يحضروا. الساعة قاربت التاسعة مساءً. عشعش الظلام مبكرًا، لا شيء في شقة كريم يعلن عن الوقت. لا يحب أن يتقلد ساعة، لا يملك جهاز تلفاز كل ما عنده فونوغراف قديم مع مجموعة من اسطوانات لعبد الوهاب والسيدة أم كلثوم وفائزة أحمد وفيروز وبعض السيمفونيات لباخ وبيتهوفن وموزارت. خاطب صديقته التي كانت تتهيأ، تنوي العودة إلى بيتها بصحبة ابنها:

- إلى أين؟!

- إلى بيتي طبعًا يا كريم، الوقت قد تأخر جدًا، الساعة الآن التاسعة إلا أربع دقائق، نديم لابد له أن يغتسل وينام، لقد تأخر عن موعد نومه، ما كان لي أن أقبل بهذا الوضع، أنا كما تعرف عندي شغل منذ الصباح الباكر، وجودي لا داعٍ منه، عندما يصلون بالسلامة أعمل معهم الواجب حتى الغد، سأتصل بك من مكان عملي للاطمئنان عليهم، أرجو أن يكونوا بخير.

نهضت، لملمت أغراض ابنها، وضعته في عربته الصغيرة وقبل أن تغادره استوقفها سائلاً:

- ماذا تعتقدين، ما الذي جرى لهم؟، ما الذي أخرهم؟ المفروض أن يكونوا هنا قبل الثامنة!، وإذا لم يجيئوا بماذا تنصحيني؟

- اتصل بمكتب الخدمات السريعة للقطارات، أسألهم عن القطار المباشر القادم من ميونخ، هل وصل؟، أو أن تتصل بالجماعة الذين ساعدوك في المجر!.

تجهم وجه كريم عندما سمع كلمة الجماعة في المجر، شعر بأن هناك ربما كانت خيانة من نوع ما، تفجر قلقه عن تساؤل:

- هل تقصدين بأن هناك خدعة ما قد حصلت؟

- أنا لا أفهم في هذه الأمور كثيرًا، لكن، المهربون في كل زمان ومكان لا يمكن ائتمانهم، قد أوصلوهم إلى محطة قطارات فيينا وقال لهم السائق كاذبًا مخادعًا إنها محطة قطارات ميونخ، لا أعرف كما قلت لك، أنا لا أثق بمثل هؤلاء الناس، المال هو كل هدفهم. لم يكذب خبرًا، تناول الهاتف وأدار أرقامه طالبًا سامح:

- مساء الخير يا سامح.

- منْ، كريم؟. مساء النور، أهلاً وأسهلاً، ثم أردف مندفعًا بحب الاستطلاع: ها. ما هي الأخبار؟ هل الجماعة عندك؟ بلغهم تحياتي، خاصة إلى صديقي العتيد كمال، وأراد أن يستمر قاطعته كلمات كريم الهجومية:

- اسمع. الأخبار عندك، لم يصلوا حتى هذه الساعة!، ترى ما السبب؟!

- هل تشك فينا يا كريم؟

- استغفر الله، لم أقل هذا، تابع بنبرة ودودة أخف حدة: أنت تعرف يا سامح ليس لهم في أوروبا غيري، يجهلون أبسط قواعد الأنظمة ناهيك اللغة، ماذا تطلب من

شخص مثلي في ظرف كهذا؟ أكاد أفقد عقلي. قل لي، بماذا تنصحني؟ ماذا أفعل؟ لا أعرف أين هم الآن.

- السائق المجري الذي أوصلهم أكد لي بالتحديد بأنه قطع لهم تذاكر القطار بنفسه بصحبة نسيبك آدم، ثم عانقهم وأعطى جوازاتهم العراقية لأخيك ثم غادرهم مسرعًا بسبب عطل أصاب سيارتهم عندما كانوا على الطريق السريع في النمسا. معرفتي بالسائق أكثر من جيدة وثقتي به لن تتزعزع، فهو لم يكذب عليّ يومًا قط. بعد وقفة قصيرة بانت لكريم دهرًا ردد:

- أتوقع أن تكون الشرطة قد أمسكتهم في مكان ما أثناء التوجه إليك؛ قد يكون ذلك المكان ميونخ قبل صعودهم القطار، أو في القطار أو في مدينتك نفسها. هذا أجده التفسير المنطقي الوحيد لتأخرهم، انتظر يومًا آخر لتتوضح الأمور لنا جميعًا. لا تقلق، آدم رجل حكيم، متزن كما أنهر، لا تخف عليهم.

ما أن ودَّعته كاترين حتى غير ملابسه وقرر الذهاب بنفسه إلى مكتب استعلامات المحطة للتأكد والاستفسار. الجواب كان مخيبًا لآماله، جعل قلقه يزداد وعذابه يتورم، القطار القادم من مدينة ميونخ وصل في وقته لم يتأخر.

ظلَّ كريم يلوب طوال الليل كماءٍ يفور في قدر على النار ولم تغمض عيناه في تلك الليلة قبيل دخول الكايزر الكويت بأسبوعين فقط.

(١٦)

قيل، الدماغ الفارغ يخلق العفاريت. دوستوفسكي في لحظة حساب عسيرة مع الذات يهدهد "لقد تجاوزت كل الحدود في كل شيء، في كل شيء". وما أن تدق ساعة الطبل في شرقنا المبتلي بالطاعون حتى نراهم في الساحة يرقصون. هل من حقنا أن نقول للشمس تأخري لا تشرقي لأننا مازلنا لم نحلم ؟ الأمنيات لا تكتب بالدموع، ويبقى مذاق اللذات عذب

سؤال الضابط عن جوازاتهم أرعبهم؛ المفاجأة كانت أكبر من أن يستوعبها إدراكهم، لم يتوقعوا حدوثها بهذا الشكل وبهذه السرعة وهم مازالوا داخل باحة محطة ميونخ للقطارات. تبادلوا النظرات الخرساء، عقدت ألسنتهم، لم يأتوا بأي حركة، أعاد الضابط سؤاله معبرًا عن رغبته التي لن يتزعزع عنها، كان هذا واضحًا من طلبه الحاسم:

- جوازاتكم. تدخلت أنهر بذكاء وبسرعة بديهية كسرت بذلك صمتهم الذي طال بلغة إنجليزية مقبولة:

- لا نملك جوازات!.

- من أين أنتم؟

لا جواب. صمت ساحق كصمت القبور. فقررت الضابطة التي تشبه في مشيتها الرجال حاسمة أمرهم:

- إذن عليكم أن تأتوا معنا للتحقيق.

آدم حاول أن يجيب أو يقول شيئًا غمزته أنهر علامة السكوت. ساروا ببطء سير الأسرى يتقدمهم الضابط وخلفهم الضابطة التي حسمت أمرهم نحو مركز للشرطة داخل المحطة يدخله المرء من خلال ممر ضيق ثم يرتفع البناء تدريجيًا حتى يصل إلى فناء باهت الإنارة تطل شبابيكه الزجاجية على جراج التاكسيات القريب من الباب الرئيسي للمحطة.

هناك في إحدى الغرف عارية الجدران دخلوا بتردد مصحوب بالحذر والخوف والرهبة تتغذى على قلوبهم لا يعرفون بالضبط ما ينتظرهم. سلموهم إلى ضابط آخر كان يجلس وراء طاولة تبنية مقشرة باهته اللون بأخاديد تشبه الخطوط الناعمة الدقيقة عالية الواجهة. غادرهم الضابطان بعد أن أنجزا عملهما على أتم شكل، ثم بدأت حملة تفتيشهم بشكل دقيق جدًا كل شخص على انفراد.

توجهت ضابطة في متوسط الحلقة الثلاثين شقراء نشيطة الحركة رشيقة الجسم نحو أنهر تطلب منها اصطحابها وهي تنظر لها نظرة متفرسة، متوجسة فسرتها أنهر على أنها قاسية متحرشة تعبر عن لؤم غير معلن. أمر توقيفهم أحدث فيهم أثرًا بالغًا أليمًا. لا أحد منهم كان قد جرب حياة السجن من قبل؛ تجربتهم كانت مرة، منقعة بالعذاب لم ينسوها طوال حياتهم القادمة. توجهتا نحو زاوية تقبع في إحدى أركان ممر يفصل الغرفة التي دخلوا فيها وسجن يحوي على أربعة غرف منفصلة الواحدة عن الأخرى بجدران متراصة، صغيرة جدًا كغرف كهنة الاعتراف بقضبان حديدية سميكة، يبدو من منظرها الإقامة فيها مؤقتة لخلوها التام من كل شيء ماعدا مرحاض مركون في الزاوية اليسرى من كل غرفة. الأرضية عارية صماء صلبة صنعت من الأسمنت البارد كجدرانها. جوها خانق رطب يبعث على التقيؤ يثير رعب الحشرات لكنه نظيفًا وهذا أمر لا غبار عليه الشهادة لله والحق يقال. أشارت الضابطة لأنهر بأنها تود تفتيشها. استجابت الأخيرة لطلبها، مررت الضابطة يدها بين طيات ثيابها صاعدة نازلة، بين ساقيها، ثم طلبت منها أن تخلع ملابسها الخارجية وتبقي على الداخلية منها. هذا ما فعله بالضبط ضابط آخر لا يمتاز بشيء يلفت النظر سوى طبعه البارد كطبع الثلج المحايد، أخذ على عاتقه مسؤولية نبش وتفتيش كل من كمال وآدم في ركن آخر مخفي عن الأنظار.

بعد نهاية جولتهم التفتيشية عثروا على قصصات ورقية صغيرة فيها بعض الأرقام وعناوين مكتوبة باللغة العربية والألمانية، فيز لبعض دول أوروبا الشرقية إضافة إلى فيزة دولة الكويت بعد أن صمم آدم الحصول عليها تحسبًا لأي طارئ يمكن أن يحدث يعرقل مسألة سحب نقودهم من هناك "الشيك" الذي معهم عندما حولوا أموالهم إلى ذهب خالص وتم تهريبه عن طريق هشام زوج فضاء أخت مقبولة إلى الكويت قبل هروبهم من بلد الطاعون، هناك تم بيع الذهب وتحويلة إلى دولارات

يمكن سحبها من أي بنك وفي أي دولة من العالم، نقودهم التي سحبوها من بودابست بعد وصولهم بأيام قليلة معدودة، الحق كانت هذه هدية، منّه منّها الله عليهم وأكرمهم بها في وقت كانت أرض الخليج تغلي، تتهيأ لكارثة سيقودها الكايزر بنفسه راعي الطاعون، كما وجدوا في جيوبهم الداخلية على أوراق نقدية منها ماركات ومنها دولارات وقليل من الدنانير العراقية الورقية والحديدية سويسرية الصنع، لكن الجزء الأكبر من النقود لم يعثروا عليها، كانت بحوزة أنهر، خبأتها في مخبأ سري لا تصله يد الشيطان.

أودعت أنهر في غرفة لوحدها؛ الغرفة التي بجانبها كانت من حصة آدم وكمال. بعد أن استقروا في سجنهم بدأوا بتبادل المعلومات وسرد ما حصل مع كل واحد منهم. أنهر طمأنتهم بأنها مازالت تحتفظ بالنقود. كمال محبطًا كمريض ميئوس من شفائه، قال:

- أخذوا مني جوازاتنا والفيز ونقودي كلها.

أجابه آدم متعثرًا خافض الصوت:

- لم يعثروا على كل نقودي؛ كنت قد وضعتها في جيب سروالي الداخلي وهذا لم ينبشوه كما نبشوا باقي ثيابي. في هذه الأثناء فُتح باب الممر الفاصل بين غرفة الضباط الرئيسية وغرف السجن، أطل منها ضابط أحمر الوجه لم يكن وقتما جاءوا موجودًا، ألقى نظرة خاطفة على السجناء القادمين من بلد الطاعون دون أن يكلمهم، أدار لهم ظهره، غادرهم بعد أن صفق الباب ومن ورائه وأحكم إغلاق قفلها.

نبر كمال مسرعًا مدركا كأنه تذكر شيئًا غاب عن ذهنه:

- عندما يطلبون منا أن ندلي بأقوالنا نقول بأننا أكراد جئنا من شمال العراق!.

ارتعبت أنهر عندما سمعت أخيها يردد تلك الكلمات التي وجدتها تفتقد للعقلانية خالية من أي منطق، نهرته مستاءة:

- ما هذا الذي تقوله؟، أرجوك لا تفعل شيئًا من عندك، دع الأمور تسير كما يجب أن تسير، لا تتدخل فيها، ثم رددت: أكراد قال.

آدم اقترب من كمال وسأله مستفسرًا:

- ما العبرة يا كمال من تغير قوميتنا وما سيترتب عليه فيما بعد من تغير لديننا؟، أنا لا أجد فائدة تذكر، بل لسنا مضطرين لفعل ذلك.

غندب نسيبه وبرطم(•)، خفض رأسه نحو الأرض، ناح مبررًا:
- سمعت كريم يتحدث مع جورج عندما كنا في المطعم وهو يحدثه عن تفاصيل كهذه، ومادام هو قدم نفسه على أنه كردي ونحن أهله فقلت لنفسي لابد من أن نكون مثله، أين الخطأ في هذا؟، توقف لبرهة قصيرة ثم أردف بعد أن رفع رأسه نحو آدم كالند مبربرًا: أهذا ذنبي لأنني أردت لكما السلامة؟
- اسمع، أجابه آدم مستطردًا: حتى لو كان الأمر كذلك، أبقى أنا في منئى عن هذا كله، لأنني ببساطة أحمل أسمًا آخر ومن عائلة أخرى. تدخلت أنهر من غرفتها المحبوسة فيها تمسك قضبان سجنها بكلتا يديها الصغيرتين البيضاويتين ذات الأصابع الدقيقة وهي تصوب نظرها نحوهما:
- انس يا كمال ما تفكر به، حتى لو كان كريم قد قدّم نفسه مثلما تقول، نحن لن نغير قوميتنا ولا ديننا، لا أسمح لك بتوريطنا، ثم رفعت درجة صوتها وبدت عيناها واسعتين كبيرتين تجدحان شررًا لا يطرف لها رمش مكررة استياءها بغضب:
- هل سمعت؟ لا تتصرف من عقلك، لا تقل لهم عند الاستجواب غير الحقيقة.

دردم(•) بصوت خفيض كأنه يكلم نفسه:
- حسنًا، لن أفعل شيئًا، قلت ما عندي وحذرتكما، سأقول الحقيقة فقط، لا تغضبي، وضعنا لا يساعد على أن نفقد أعصابنا، فأنا أقصد، أكاد أبكي، الحسرة تأكلني، تذكرت أمي يا أنهر، أعني، أهلي جميعهم، ماذا يقولون عنا الآن ونحن في السجن ؟، هذا لم نحسب له حسابه، ثم تذكر عاداته الطفولية التي أعتاد عليها، أنا جائع يا أنهر، أريد أن أخرج وأذهب إلى حيث كريم يقيم، لا أريد البقاء هنا في هذه المدينة، لم أرتح لها، لا أحبها، بدايتها كانت شؤمًا علينا. ثم بدأ ينتحب وينشج كطفل يتيم غارقًا في دموعه.

عند العصر زعقت باب السجن وصرّت تعلن عن أحدهم كان قد فتح قفلها، دخلت عليهم الضابطة التي فتشت أنهر تطلب منهم اصطحابها.

(•) غندب وبرطم : زعل ، استاء وزمَّ شفتيه

(•) دردم : دمدم وغمغم

(١٧)

الأفعى السامة المرقطة كثيراً ما نجدها تحت الأزهار مختبئة.
إذا دُعي الخنزير لطعام وضع قدميه في الطبق.
هناك من تعود أن يجلد بالسياط كي يستقيم لسانه.
وكما يقال، منْ يخاف العفاريت تخرج له، أرسطو يقول : لو أردت أن تتجنب النقد لا تقل شيئًا، لا تفعل شيئًا، وكن لا شيء!

تم ترحيلهم إلى سجن آخر بصحبة ضابطين في حافلة صغيرة تابعة لشرطة المدينة مثلهم مثل أي مجرم يقاد إلى سجنه.

الخيبة كانت أكبر من كل أمنياتهم وكأن ما حلموا به كان مجرد وهم لا غير، وها هو الواقع يعبر عن نفسه. يجلسون متقهقرين كأسرى الحرب بصحبة الشرطة يتجهون نحو سجن لا يعرفون ما ينتظرهم هناك. أنهر تغير لون وجهها، امتقع، أصبح أكثر حدة وتجهم، لم تجد من الكلمات ما تواسي بها زوجها، حبيبها الذي طالما وهبت نفسها له محاولة جهد امكانها أن تمضي مثل السحر في حياته، تلبي حاجاته، تجعله سعيدًا قدر استطاعتها وكأن آدم كل غايتها في الحياة. كمال ظل الوقت كله كشخص طاش لبه، فقد صوابه وتبخر رشده، صامتًا يجتر عذابه.

آدم كان خليقًا بالرأفة والشفقة، ينظر إلى زوجته والألم يحز قلبه، يجعله ينزف، همس يخاطب نفسه مكسور الخاطر "اللعنة على الكايزر خالق الطاعون، للبذلة العسكرية أحيانًا قيمة ما أن يتقلدها بعض الساقطين من سجلات الإنسانية وإحصاءاتها حتى نراهم يفقدون ذاكرتهم ويصدقون بأن قيمتهم تفوق قيمة عظماء الإنسانية الحقيقيين قاطبةً. وها نحن ندفع ثمن جرائمه"، سأل زوجته بروح منطفئة ونفس مظلمة كمن ينتظر النجاة نافد الصبر :

- ماذا تتوقعين، كيف ستسير بنا الأمور ؟، ثم أضاف مركزًا على كل حرف ينطق به : بالي عند كريم، هو لا يعلم ما آلت إليه ظروفنا، ترينه الآن قلق جدًا على

مصيرنا، لا يستحق منا ما يحصل له، كانت حياته قبل أن نظهر أكثر أمان واستقرار. قاطعته وهي تمسك بيده:

- حقيقةً لا أعرف. تجربة جديدة لم نمر بها من قبل، هذا ما يقلقني، كل ما أشعر به هو أن المجهول ينتظرنا. نظرت إليه بحب منقطع النظير، أحسّ بها من أعماقه، شدّ على يدها وهي مازالت تستعمرها، تابعت أنهر:

كريم لا تقلق بشأنه، صاحب خبرة، غربته علمته كيف يكون رابط الجأش، يحسن التعامل مع مثل هذه المواقف، لا تخف عليه، الوقت كفيل بأن يحل كل مشاكلنا، هذا ما أراه.

رحل معهم رجل روماني من أصول غجرية كان يشغل الغرفة الثالثة في سجن المحطة المؤقت. جلس متقابلاً مع كمال الذي كان الأخير بجانب آدم وأنهر من ناحية نافذة الحافلة المطلة على الشوارع. عرّف عن نفسه أثناء الطريق، سألهم أيضًا عن منبعهم. للغجري وجه يشبه إلى حدٍ ما وجه قرد هرم، أنف أفطس، بشفتين عريضتين متينتين منتفختين، عينين على شكل حفرتين عميقتين داخل جمجمته، كان قد دخل الأراضي الألمانية بشكل غير قانوني مثل أصدقائنا الذين يشاركونه سفرته وهم متوجهين نحو سجنهم فتساوى بذلك حق العراقي مع الغجري وكلاهما يجتران حزنهما ويعترفان بجرمهما المشهود. نبر آدم يخاطب زوجته مهضوما:

- انظري إليه يا أنهر.

- إلى منْ؟

- إلى هذا العجوز الغجري المتشرد الذي تساوى حظه مع حظوظنا نحن أبناء الرافدين، أصحاب الحضارة الأولى، صانعي ومسني القانون، مكتشفي الكتابة، منظمي التاريخ ومبدعين الأديان. قرّب ما بين حاجبيه، تابع متصدع الرأس منقبض القلب:

ها هو مصيرنا لا يختلف عن مصير أي متشرد يضرب الأرض سعيًا للنجاة والخلاص ويحضرني هنا قول باسكال الذي يصلح أن يكون السبب الذي أوصلنا لهذه النتيجة "القلب الإنساني ملئ بالقاذورات". انظري يا حبيبتي إلى حالنا، لم نعد شيئًا متميزًا كما كنا نحسب أنفسنا ونقدرها ونرى ما يدور في دواخلنا. نحن

مخدوعون بالحقيقة، بالتاريخ، ذلك الذي لم يعد حيًا، تشبثنا به إلا من حلاوة الروح كما يتوقع!، يعني أموات في الحياة وفي رمقنا الأخير.

برنة أعادت له الروح:

- لا تكن متشائمًا يا نور عيني، لم أعهد فيك هذا طبعًا، توترك وتعبك وانشغالك وعدم معرفة ما ستؤول عليه ظروفنا يدفعك لقول ذلك، لكن، الأيام ستبرهن لك بأن الحياة أجمل مما وصفتها، نحن من سيسخرها، لا أن ننقاد لها كما هي تريد، مهمتنا الحقيقية هي هذي، بإرادتنا الحرة وإصرارنا نمضي قدمًا نحو حياة نختارها نحن بمحض رغبتنا. أرجوك، لا تفكر الآن بأي شيء، دع الأمور تسير كما ينبغي لها أن تسير، ثم نقرر بعدها ما سنفعله. كان كمال يسترق السمع، سمع كل شيء، نعق ناسيًا نفسه دون أذن للدخول في الحديث بين أخته وزوجها:

- أنهر عندها حق يا آدم؛ لا تزيد الطين بلّة. رفع آدم يد زوجته، قربها من فمه، قبلها بحرارة صامتًا وكأن الصمت أصبح فجأة لغتهم المشتركة!.

اهتزت السيارة بهم، ينظرون إلى الشوارع المبلطة النظيفة، البنايات المطلة على حافة نهر "إيزر" الذي يشق مدينة ميونخ نصفين، إلى يسارهم وهم بجلستهم رأوا سياجًا عاليًا مبنيًا بالطابوق الأحمر مطرز بالنباتات المتسلقة التي جعلت منه لا يشبع المرء من النظر إليه، تأكد لهم فيما بعد بأن خلف ذلك السياج مقبرة واسعة غزتها الزهور واستحلتها النباتات المتسلقة من كل صوب وحدب، إلى اليمين مرت السيارة بهم على بناية حمراء جميلة البناء كانت دائرة العمل الرئيسية للمدينة. استدارت الحافلة بهم نحو شارع عرضي هادئ قليل المارة بعد أن قطعت مسافة قاربت الفرسخ، توقفت على حافة رصيف أنظف من أي ممر لبيت معتنى بنظافته أمام بناية ضخمة قديمة لها باب خشبي واسعة عريضة يدخل منها حصان لكبر حجمها مشقوقة من الوسط وعلى جزءها اليمين نبت مزلاج حديدي يزن أكثر من رطلين، وكان هذا هو سجن المدينة الذي تم اقتيادهم إليه.

• • • •

دخلت أنهر أولاً بصحبة ضابطة شقراء بملابس عسكرية نظيفة تم كيُّها بحرص حتى بانت خطوط الكمين القصيرين لقميصها حادة كأنها حافة سكين كما خطي بنطالها المستقيمين كخط المسطرة إلى غرفة واسعة ذات سقف عالي كسقوف الكنائس. وقفت الضابطة قبالتها، فتشتها بسرعة، سألتها إن كانت لديها بعض الأشياء المهمة التي تود توديعها في خزانة أمانات للسجن. أشارت لها أنهر بصوت مخنوق بالحسرة بكلمة مقتضبة واحدة، كلا. ثم اقتيدت إلى سجن النساء. وحصل الأمر ذاته مع كل من آدم وكمال.

الغرفة التي تمَّ اقتياد كمال وآدم إليها كانت كبيرة، واسعة، عند أحد جدرانها العارية التي تعكس وحشة خرساء مذبوحة فتحة يقف خلفها مشبك حديدي لا تصله يد السجين إلا إذا وقف محمولاً على كتف سجين آخر وقتها فقط يستطيع أن يرى النور. من خشب اختفى طلاؤه بحكم العمر صنعت باب الغرفة التي وقفت حارسة عليهم تمنعهم من الهروب، في وسطها فتحه صغيرة كالحفرة بحجم الكف لها باب أصغر منها، تملأها عند سدها فتكون وقتها باب الغرفة محكمة الإغلاق كأنها قطعة واحدة. تستخدم تلك الفتحة وسيلة للتحدث بين السجان والسجين.

مدت أسرّه من خشب عارية من كل شيء تمامًا كهيكل عظمي يطقطق ما أن تحركه، يبدأ ارتفاع الواحدة منها من حيث القدم عن تسعين سنتمترًا وتبدأ بالارتفاع تدريجًا عند موضع الرأس لتصل إلى أكثر من متر تسوره حافة كأطر الصور تمنع انزلاق النائم عليها لانحداره، وفي نفس الوقت لا يحتاج مستخدمها إلى وسادة تحت رأسه. فظهرت الأسرة بشكلها الخاوي العاري كتوابيت بلا جدران أو سقف، صفّت الواحدة بجانب الأخرى كقضبان السجن على طول خط الجدران وبقي الوسط فارغًا كساحة للعب. وفي ركن منزوي زرع بناء ثلاثي الجدران بلا باب يستخدم كمرحاض.

دخل آدم مرتبكًا وكمال متعثرًا بخطواته الغرفة بصحبة عريف يرتدي بذلة سمائية اللون تختلف عن لون بذلة الضباط فقد كانت الأخيرة صفراء باهته تشبه لون التبن. أشار لهما العريف لأسرتهما، كانا جنب بعض، تركهما دون أن يتجرأ بالحديث معهما، أوصد الباب ورائه، صرّت المفاتيح، أحكم قفل القفل، رجع الهدوء والسكون كما كان، هدوء ميت، يسمع فيه بوضوح رفة جناح ذبابة طائرة تحوم.

عندما دخل آدم غرفة السجن. وقع نظره على رجل متين مربوع الصدر واضعًا طاقية فوق رأسه كتلك التي يستعملونها صيادو السمك الإسكندرانيين يجلس على حافة سريره وساقاه متدليتان باسترخاء ساهمًا، ناظرًا في أفق نحو نقطة لا يعلم من أمرها غير الله، ظل بجلسته الصامتة تلك ساعات طوال دون أن يطرف له رمش مما أثار فضول آدم في متابعته. كان السجناء الآخرون في هيئات وأشكال مختلفة، منهم الشباب ومنهم من تجاوز سن الكهولة. اقترب كمال من نسيبه دامع العينين يسأله بمسحة حزن وهو سابح في كآبته:

- ترى أين أنهر الآن؟

- لا أدري،

ثم أضاف مغمومًا كأن دموعًا في صوته:

- في مكان ما من هذا السجن اللعين الغارق في الصمت كقبر جماعي كبير.

- لم أتوقع أن تسوء الأمور هكذا وبهذه السرعة؟، اختنق بالعبرات، تابع: هل هذي هي الحياة التي كنا نبحث عنها، نركض وراءها ونريدها؟، أكاد أعتقد الآن بأن كلام جورج الذي صرح به عندما كنا في مطعمه في بودابست صحيحًا مائة بالمائة، الرجل لم يكذب، قال، الوهم ينتظركم، الغربة ليست حياة، بل موت داخل صندوق الحياة، وها نحن كما ترى، في صندوق كريه لا نعرف متى نخرج منه، أو ماذا ينتظرنا، ثم سكت وكأنه قد فارق الحياة.

مواسيًا بروح ضحوكة رغم القهر الذي هو فيه:

- لا تقل هذا يا كمال، كلها يوم أو يومان ونخرج، لا أعتقد بأن إقامتنا هنا ستدوم، نحن لسنا مجرمين، هم يعرفون ذلك، اللجوء السياسي كل مطلبنا، ما أن ينادونا لأخذ أقولنا حسب اعتقادي سنخرج، يرحلوننا إلى مكان دائم، أو شيء من هذا القبيل خاص للاجئين الجدد. ثق بما أقوله، عندما كنا في بودابست تحدثت في هذا الموضوع مع كريم على انفراد مستفسرًا، وضح لي ما ينتظرنا في حال امساكنا من قبل الشرطة، ما يحدث الآن إجراء روتيني لابد منه. وقف قبالته، أنهضه، طقطق السرير الذي كان كمال جالسًا عليه، حضنه بحنية أخوية خالصة شعر بها نسيبه حتى كاد يبكي من فرط التأثر.

حلّ المساء، تغلغل الظلام داخل غرفة السجن، فتح قفل الباب، رنت المفاتيح، زعقت بأصوات متشنجة كصرير سلسلة حديدية تُسحب على الأرض، دخل العريف طالبًا من السجناء الوقوف لاستلام أسرّتهم الأسفنجية وعشائهم المتكون من قطعة من الخبز الأسمر بداخلها شريحة واحدة من اللحم البارد.

مدَّ السجناء أسرّتهم على مقاعدهم الخشبية، أخذوا بتناول عشائهم بلا رغبة أو شهية، يلوكون قطعة الخبز وكأنها قطعة من البلاستيك، آدم لم ترق له شريحة اللحم، لم يجربها، أخرجها بغية رميها في صفيحة من المعدن كانت تُجمع فيها القاذورات بجانب المرحاض تحت حنفية الماء، أسرع إليه نسيبه لمنعه، كمال معروف بحبه للطعام، لا يعرف هو نفسه كيف استطاع أن يصبر هذا الوقت كله دون أن يطلب شيئًا يأكله أو يصرح عن رغبته في تناول الطعام أو يشكو من جوع:

- ما تريد أن تفعل بشريحة اللحم يا آدم؟

- كما ترى، أرميها، لا أطيق رؤيتها فكيف آكلها.

التقطها من بين يديه، وضعها داخل قطعة الخبز التي يمسكها بقوة. بشراهة التهمها دون أن يتقزز أو يشعر بالنفور وكأنها عاش حياته كلها لا يأكل غير هذا النوع من الطعام. آدم ينظر له باستغراب وهو يمضغ قطعة الخبز الحاف ببطء كقضاء مكتوب عليه.

• • • •

لم يستطع آدم النوم، كيف ينام وسريره مائلاً؟ لم يتعود على أمر كهذا، ما أن يرفع جسده نحو حافة الجدار ونهاية السرير محاولاً النوم حتى يتزحلق، يجد نفسه متكورًا في بداية السرير حيثما كان قبل لحظات. اختلف الأمر مع كمال، فما أن وضع رأسه على السرير الأسفنجي حتى غط في نومه، أرتفع شخيره وطاف في أرجاء غرفة السجن، الحق، لم يكن كمال وحده يشخر كالصفير، بل أغلب السجناء كانوا يتمتعون بهذه الموهبة، سيمفونياتهم لا يعزفونها ولا يطلقونها إلا عندما ينامون!. صرّت الباب من جديد، عاطت المفاتيح كلما ارتطمت بعضها ببعض، فتح السجان الباب وأدخل سجينًا شابًا طويلاً بملابس متواضعة ذا شعر طويل متروك

إلى الخلف يتسربل على كيفه مثل ذيل الحصان ضاحكًا يتمختر في مشيته، دلّه السجان على سريره، سلّمه الأسفنجة وقطعة الخبر وشريحة اللحم الباردة دون أن ينبس ببنت شفة، أعاد ما فعله من قبل، أحكم إغلاق القفل بعد أن أوصد الباب من ورائه.

فرش السجين الجديد فرشته على تخته، بحركتين أتى على ما بين يديه من خبز ولحم، صاح بلا خجل أو وجل كخريج سجون متمرس يعرف ما يفعله بالضبط بلهجة لبنانية قح:
- في زلمة عربي هون (•) ؟!. قال ذلك وهو يقف وسط باحة الغرفة يدور برأسه باحثًا عن رد يصله. كرر مناجاته اللعينة دون أن يأخذ بنظر الاعتبار نوم الآخرين:
- في زلمة عربي هون؟. اقترب من آدم الذي كان قد نهض نتيجة الأرق ما أن دخل الشاب عليهم آخذًا وضع القرفصة ككاهن مصري قديم يمارس تعبده في منتصف الليل ساهدا، سأله الطويل الضاحك كعراف يعرف أسرار الناس:
- من أين أنت؟ أرى في شرايينك دماءً عربية تسري، قل من أي بلد أنت؟

مترددًا:
- من العراق، وأردف متواصلاً: من بغداد، بصحبة نسيبي هذا الذي تراه بجانبي يشخر، وهو يشير له بيده نحوه. بعد وقفة قصيرة، أضاف: زوجتي في ركن ما من هنا في هذا السجن، جئنا معًا، لكنهم أخذوها إلى قسم النساء حسب ما أعتقد. قاطعه اللبناني:
- آه. كنت أعلم بأني سأجد عربي هنا، في كل مكان ذهبت إليه، توقف للحظة، فرك فروة رأسه، تابع: أقصد، في كل سجن زرته وجدت عربيًا قابعًا فيه. مد له يده، صافحه، سأله:
- ما أسمك؟
- آدم.
دون تباطؤ:

(•) هل منكم أحدٌ عربي هنا ؟

- جاك، وأضاف بسن ضاحك: من بيروت.
- من أين جئت؟، أعني، كيف كان طريقك؟. سأله آدم وهو يشعر برغبة للتحدث معه بعد أن رأه ضحوكًا غير مبالي.

- كنت في النمسا، سجنت أربعة شهور متواصلة دون تحقيق، بعدها أطلقوا سراحي، همت على وجهي كشاعر كافر لا أعرف أين أذهب، قررت أن أجرب حظي هنا في ألمانيا بعد أن فشلت في الاستقرار في سويسرا قبل أن أهرب إلى النمسا وفشلت، اسمع:
حظنا تعيس، أعني، نحن العرب سكنة بلاد الطاعون مكتوب علينا التشرد محكومون بالبؤس من قبل أن نولد، تراني أضحك كأني في بيتي، لا عليك، أضرب الأرض كلها، أرض الله لن تكون ملكًا لأحد، ليكن ما يكون، المهم أن نعيش كما نريد، في لبنان الحياة لا تتوقعها، تجد الحب والدمار في مكان واحد، ومع ذلك تجد الناس يضحكون، يمارسون حياتهم وكأن الشقاء رخاء، انصت لي رعاك الرب:
أنصحك بأن لا تتأثر كثيرًا بالأشياء التي من حولك، أحببتك ما أن رأيتك، خذ بنصيحتي، أعتبرها حكمة يطلقها مجنون، عادي، لن أتأثر إذا وصفتني بمجنون لا عقل له، ما عليك، كلما خفَّف الإنسان من اعتقاده وقلل إيمانه كلما أزاح عن قلبه بعض الهموم، وقتها سيشعر بالراحة، كما ترى، تجدني أمرح وأفرح وأنا في السجن، ماذا يعني؟ ألست معي؟ أقصد، أنا لا أعرف ظروفك، أجهل تحصيلك العلمي أو الأدبي، أو حتى ما تمتلك من مواهب زرعها الله فيك ومع ذلك أجد نفسي معك في زنزانة واحدة، ما الفرق بيننا أذن؟ مصيرنا واحد، انظر حولك، تجد من المساجين من منهم السارق والمخادع ومن عمل عملاً مشينًا، تساوت حظوظنا وكأنها قاسم مشترك حتى ولو لحين، الغبي هو من يأخذ الأمور بجدية ويحملها أكثر من طاقتها، من يفعل ذلك معتوه لابد وأن يطق له عرق، سيموت نافقًا، متحسرًا، ناقص عمر كما يقال، قليلاً من الوعي يكفي، بل أجده، هذا ما يحتاجه الناس في أكثر تقدير، لو أدركت الحقائق لجننت، لخرجت إلى الشارع عاريًا لا تعرف يمينك من شمالك، ولماذا تريد أن تصل إلى نخاع الحقائق؟ الرب خلقنا على قدر من الذكاء، لهذا حكمة، جعلنا نبحث وندور في فضاء رسمه لنا، لا يسمح لنا من

تجاوزه، كل شيء محسوب، له زمن محدود ومكان معلوم. هدأ قليلاً، استطرد طافقًا منطلقًا على سجيته:

- لا تكن سريع التأثر كقزم يأخذ على نفسه بسبب آفته، قد تقول عني بأنني إنسان ردئ، يحق لك أن تقول أكثر من هذا، كأن تقول، أي شيطان هذا الذي رماه في طريقي، أعني، وضعه معي في زنزانة واحدة؟. وقد تقول غير ذلك، مثلاً، هذا لا يعرف قيمة نفسه، حسنًا، أقول مغتبطًا سائلاً، هل تعرف حق نفسك حقًا؟، أرجوك، دع عنك كل هذه الخزعبلات، لا تفكر الآن إلا بأمر واحد، هل نستطيع النوم الليلة؟، نعم هذا هو المهم، هل يمكنك التكهن بما سيحدث غدًا؟، تابع كأنه تلقى الجواب، مستطردًا:

- ما دمت لا تعرف اِصرف ما في الجيب يأتيك ما في الغد، بلا، هكذا أحسن، صدقني، لا تحسبني شابًا غر، عمري يا زميلي هو نفسه عمر الإنسان على الأرض، أصطاد الأمل أينما يكون، ألتقط كل الموجات، هل تعرف كم لغة أتحدث؟ ثلاث مضافًا لها العربية، مشكلة البشر على وجه العموم هي مقدرتهم الفذة على اختراع المكائد، المصاعب والمصائب لأنفسهم بشكل لا يصدق!، هذه هي المسألة، المعادلة التي يعجز الناس الاعتراف بها، الإنسان لا يريد أن يقرّ على أن قلبه سبب كل الدناءات، به يكفر، يكره، يحقد، يبغض، يحسد ويمكنه أيضًا أن يكون النقيض، أن يحب ويسامح، أن يكون طيبًا، رحيمًا، هو ذات القلب، بل في نفس الوقت يمكنه أن يكون أجزاء ما أن ينقلب مزاجه، ألم أقل لك بأن المعادلة أبعد إلى التصديق أقرب إلى الخرافة!. هذا هو الإنسان بلا ألوان. قد تنعتني بأنني سفيه، مؤذي، لكنني وأنا هكذا أفضل ألف مرة من جاد شرير لا يحسن في حياته غير إيذاء الآخرين، النيل والتنكيل بهم وإيقاعهم في شر أعماله، هل تعرف، سأكون أسعد خلق الله لو صح نعتك عني، سفيه، وقتها أكون قد عرفت حق نفسي، هذا وحده يعد نصرًا كبير، وهل هذا قليل؟، من يعرف نفسه هو المبدع في الحياة، يحفظ كرامته، يرسم لنفسه حدودًا على قدر حجمه، الكارثة الحقيقية التي تواجه الإنسانية، هي أن فصيلة البشر لا يعرفون أنفسهم. هذا هو عالمنا، شئنا أم أبينا، والآن، تابع وكأنه لم يقل شيئًا خالي البال مرتاح الضمير:

- لنعد إلى قضيتنا، الإنسان بطبعه لا يحب السلام، أعني، ما أن يشعر أخينا في الإنسانية بالطمأنينة والأمان حتى ينفر منهما، يحس بالاختناق، ينقلب على رأسه، يرفض واقعه المسالم، ينشد الانسلاخ محاولاً التجربة، المصيبة هنا أين تكمن؟، أقول لك، تكمن في أنه لا يحسب أي حساب لعواقب تجربته قبل الشروع بها، وبعد أن يطلي وجهه بالسخام كنتيجة متوقعه لتهوره الساذج يرجع نادمًا ينشد الراحة، يطلب السلام الذي كان ينعم به ولا يجدهما، يظل يبكي ماضيه الفائت ويتمنى من كل قلبه أن يرجع ولكن هيهات له أن يعود، بهدوء أردف: الآن وبعد هذه الجولة الخطابية الرنانة يحق لي أن أطلق عليك صفة، زميل، ثم باغته رائًا طائًا بسؤاله:

- هل ترغب بأن تتحدث مع زوجتك؟!

سرت رعده في جسده كمن مسه تيار كهربائي ما أن سمع لفظ زوجته، استغرب آدم من طرحه، وجده أقرب إلى الكذب أو نوع من الهوس، خشخش:

- كيف؟. رد عليه وهو لا يكاد يصدق سمعه.

وهو يمط كل كلمة من كلماته متقصدًا:

- هل ترى تلك الفتحة في الجدار التي تعلو سريري؟

- نعم، ما بها؟

- انتظر لحظة، صعد على تخته الخشبي، طلب من آدم أن يصعد ثم يرتقي كتفه.

- وماذا بعد أن نفعل ذلك؟

كمحنك شرير يعرف ما تخبئه الزواغير رغم صغر سنّه:

- لا تسأل كثيرًا، ألا تريد أن تعرف أين زوجتك الآن وتتحدث معها؟

- بالتأكيد، قلبي يأكلني عليها، هي لا تعرف عنا شيئًا، وكذلك نحن.

- اتفقنا إذن، افعل ما أطلبه منه، أضاف: اصعد التخت، تسلق حتى تصل كتفي، قف عليه؛ سأمسك ساقيك جيدًا، لا تقلق.

- حسنًا. تسلق بحذر، قال: وماذا بعد؟

- أمسك بحافة الشباك الحديدي، ناد بأعلى صوتك دون خوف أو تردد باسم زوجتك، هيا ماذا تنتظر، العمى، أقول صح، عط، أزعق، قل ما تريده من زوجتك، ستسمعك بالتأكيد.

- يتلفت حول نفسه، ناح:
- وماذا عن السجناء النائمون؟

ضحك وهو يتشبث بساقي آدم ويمسكهما بقوة، نبر:
- أنت في السجن، يعني، هذه أقصى عقوبة يحاسب عليها القانون الألماني، ماذا تنتظر أكثر؟، لن يحدث لك أي شيء، السجناء لا يتضايقون من أفعال إنسانية كهذه، لقد جربوها من قبل، بل أكاد أجزم بأنهم فعلوا أكثر مما نفعله نحن الآن. هيا. ماذا تنتظر؟

شجعته كلمات الشاب اللبناني، وجدها بلسم لجراحه، لم يكذب خبرًا، عاط بخبل:
- أنهر. أنهر، هل تسمعينني؟ أنا آدم يا أنهر، أين أنتِ؟

تردد الصوت في الفضاء كالصدى، لا جواب، شعر آدم بالقهر، التجربة لم تنجح، طلب من الشاب أن ينزله، قال، لا فائدة تذكر من محاولتنا، لعلها في غرفة بعيدة من هذا السجن!، لكن اللبناني لم ييأس، رد عليه بخشونة:
- هل هي زوجتي أم زوجتك؟ اصبر قليلاً، عد المحاولة مرة أخرى، فإذا سمعتك تحتاج لوقت قد تفعل الأمر ذاته كما فعلنا، أن تجد سجينه تساعدها على ارتقاءها وصولاً للفتحة المغروزة بالحائط، فهي كما ترى عالية، انتظر بعض الوقت، ثم انطلق نشطًا متفلسفًا:
الإنسان ما هو إلا إرادة وعقل، ما لك، ألم يعلمونك في المدرسة هذا؟ ألم يخبرونك بأن الفرد منا يستطيع تجسيد الاثنين معًا في آنٍ واحد؟! خيبت ظني فيك يا رجل، هيا. ناد عليها مرة أخرى، هيا. وإذا بصوت أنهر ببحته الجميلة الرقيقة تجيبه وتناديه برنة كانت تخفق فيها ضربات قلبها الفائرة الوجلة المعذبة:
- آدم، أنا هنا، تحتكم تقريبًا، اسمعك جيدًا يا حبيبي، كيف حالكما؟ لا تقلق عليّ، أهتم بنفسك وبكمال من فضلك، وكلما احتجت لشيء ناديني كما تفعل الآن، ما دمنا قد وجدنا وسيلة للمخاطبة والتفاهم سوف لن يعوزنا شيء. تذكر، الإنسان قادر على فعل أشياء كثيرة، الحاجة أم الاختراع، أنت من قال لي ذلك، لا تحزن، أعتن بكمال، أحبك يا آدم كثيرًا، أكثر مما تتصور، أعبدك، سنكون معًا عما قريب، أشعر بذلك، سيفرج عنا. ثم اختفى الصوت.

نزل آدم من على كتف المتهكم الهازل، شكره بنظره، سأله:
- ماذا تعتقد حسب خبرتك، كم ستدوم إقامتنا هنا؟

- على حسب، كل شخص وله وضعه الخاص، البلد الذي جئت منه يلعب دورًا كبيرًا في تحديد المصير، حك حنكه بيده علامة التفكير والاستقراء، تابع: حسب علمي، وما دمتم من العراق سيكون لكم وضعًا مغايرًا، العراقي سوقه ماشي، أقصد، مطلوب، هذه حكمة السياسة، ستخرجون من هنا قريبًا، لكن، لو تعقدت الأمور وتملك مالاً يمكنك أن تطلب محاميًا.
- محاميًا!.

- طبعًا. أنت هنا في اوروبا، القانون فوق الجميع، من حقك ذلك، لكني أنصحك بالروية، الانتظار أولاً ولنرى ما ستؤول عليه أمور بلدكم!.

- ماذا تقصد، عن أي أمور تتحدث؟

- طبول الحرب التي تقرع الآن في منطقة الخليج، ألم تسمعها؟!

- أي طبول وأي حرب؟ أنا لم أسمع شيئًا.

- اترك الآن كل شيء، دعها وراء ظهرك، لنسلتقي قليلاً ونحاول النوم. في الصباح أعدك، سأجعلك تسمع فيروز لو أحببت.
تركه، ارتقى تخته الخشبي، غط في نومه بنشاط لا يوصف كمقاتل في جبهة لم ير النوم ولم يغمض له جفن منذ ثلاثة أيام. تقلب آدم على سريره، وصلت أنفه الرائحة الكريهة الصادرة من مرحاض السجن، تذكر فجأة بأن أدويته تركها مع زوجته، شعر بالرعب ما أن أكتشف سر ذلك، عض شفته السلفى، أحس بالاختناق يزحف نحو، يلتف حول رقبته كأفعى طويلة، انقبض قلبه، بات يتنفس بصعوبة بالغة، دعى الله أن لا تأتيه نوبة الربو، استغرب من تصرفه اللاشعوري وحالته الغريبة هذه، تساءل مع نفسه، منذ لحظات وقبل أن أكتشف بأن أدويتي عند أنهر تنفسي كان طبيعيًا، لم ينقصني شيء، عجبًا، كيف يحس الإنسان بالخطر ما أن يفكر فيه ويتبادر إلى ذهنه؟، سبحان الله، قال ذلك وكأنه يراهن على جلده. أدار في ذهنه شريط حديث زميله الشاب الساخر، المتهكم، غير المبالي، أعاد على نفسه كلماته، وجدها حقيقية، حدّث نفسه: فلسفته جميلة تسترعي الاهتمام، هو يبصق على كل

الهموم وآلام. آدم بوعيه النافذ أدرك بأن زميل زنزانته على حق، استمر بتأمله ينادي ذاته:

هذه تجربة رغم مساوئها ستكون مفيدة في حياتي المقبلة، الإنسان ليس قطارًا ولا الحياة سكتها، أرتاح للنتيجة، همس: ماذا يعني كل هذا؟، ألم نكن في بلد الطاعون بسجن كبير؟! ما الذي أختلف؟، لماذا الحزن إذن؟، هذي هي حياتنا على ما يبدو دون رتوش، علينا أن نحياها، نعيشها كما هي كالآخرين. غفا بعد كل الذي حصل دون أن يعلم متى وكيف.

عند الفجر عاطت باب السجن، انشقت، فتحها العريف، وقف وسط الباحة طالبًا منهم الاستيقاظ والنهوض لاستلام فطورهم.

• • • •

عند التاسعة صباحًا رنَّ الهاتف في شقة كريم. التقط السماعة بسرعة ويداه ترتجفان:

- نعم.

- أنا كاترين يا كريم، قلقت عليك، طمئنني، هل وصلوا؟

تراجع إلى الوراء حتى أرتطم ظهره بالحائط، قال:

- لا. لم يأتوا. ثم أضاف مرهقًا: ذهبت ليلاً للمحطة وسألت عن قطار الساعة الثامنة القادم من ميونخ، أجابوني بأن القطار وصل في ميعاده. هذا يعني أنهم مازالوا في ميونخ تحت رعاية الشرطة أو في منطقة ما من ألمانيا وكذلك تحت رعاية أصدقائنا!.

- هل اتصلت بالجماعة في بودابست؟

- نعم. وأكدوا لي بأن السائق أوصلهم محطة ميونخ للقطارات كما كان متفقًا، ثم غادرهم.

- إذن لم يبق غير احتمال واحد، هو ما ذكرته أنت، موجودون في مكان ما من ألمانيا لدخولهم غير القانوني الأراضي الألمانية وسرعان ما سيطلبون اللجوء، لا تخف عليهم، أنا لست قلقة عليهم بل عليك.

بوهن مستغربًا:

- عليّ!

- نعم، وتابعت: لأنني أعرف حنية قلبك. لكنني أقول، لا تقلق. سيكونون بخير، سيحتجزونهم وفق القانون ثم يرحلون إلى إحدى مواقع سكن اللاجئين، عندها سيحاولون الاتصال بنا، لذلك أقول لا تقلق، سيكون كل شيء على ما يرام.

مقهورًا:

- أتمنى ذلك.

obeikan.com

(١٨)

هناك منْ لا يصرَح عما تخبئه عواطفه من حُبٍ وشجن، يعتبر ذلك انتقاصًا من كرامته، فيتعلم كيف يخفيها ويخبئها حتى على أقرب الناس إليه، يموت وهو مغلق كالسر... وهناك من يغادر بلده والظن يخدعه، يوهمه بأنه لو وصل الغربة سيعوِّض ما فاته بسبب طاعون الشرق الذي أبتلي به؛ لكن، قلما نرى بأن هناك من يبقى يحمل جديته على ظهره بغية تحقيق أهدافه التي مات محاولاً تحقيقها في وطنه دون أن يفلح، وعندما يركن في وطن الغربة ينسى كل شيء كأنه ولد من أجل المتعة الخداعة باسم الحرية وضوئها المبهر الساطع الذي يعمي البصر والأكثرية هنا لا يدركون.

بعد أن أتموا فطورهم أرجعوا فرشهم إلى عريف السجن. التخوت الخشبية وهي عارية تعكس كآبه مزمنة تعاني منها. لم تمض إلا دقائق حتى طلب من آدم أن يذهب للاستجواب، حاول كمال أن يصاحبه لكنه منع من قبل العريف الخافر، قال له:

- ليس الآن. طلب الحضور والاستدعاء جاء فقد لآدم. تفاجأ آدم بوجود أنهر في غرفة ضابط السجن، الغرفة كانت في الطابق الأرضي، واسعة، فرهة، يدخل إليها الضوء من خلال شباكين كبيرين مطلين على الشارع. ركض آدم نحو زوجته بلا وعي، حضنها بقوه، بكت هي على صدره، خافقة:

- لم أستطع النوم البارحة. بدونك الحياة في عرفي موت خالص. قبّلها من جبينها، دمدم:

- لا تبكِ. جئت أنشد العزيمة عندك ألقاك منهارة!، ما هذا يا أنهر، ليس أنا من يقول لك مثل هذا الكلام، نوه مازحًا: كيف استطعت التحدث معي من سجنك؟.

ضحكت فجأة كطفلة، نست همها بسرعة، ببحة شجية:

- مثلما استطعت أنت، واصلت: كانت هناك سجينة ألمانية سمينة مربربة لها خبرة لا يستهان بها، أخبرتني قبل أن أسمع صوتك بدقائق بأن هناك طريقة أستطيع من خلالها التواصل معك، في البداية لم أصدقها، ترددت، لكن ما أن سمعتك حتى طفرت الدموع من عيني دون إرادة، توسلت بها راجية أن تحملني، الباقي أنت تعرفه.

تقدم منهما المترجم العربي، كان من أنطاكيا، يتحدث العربية والتركية والألمانية، أصبح ملاصقًا لهما، قال وهو يشير إلى ضابط السجن البدين الجالس خلف طاولة بنية اللون من الساج:

- هذا الضابط يعتبر بمثابة قاضي هنا، يريد أن يعرف قرابتكما، هل أنتما متزوجان؟ هل تقرَّان وتقسمان على ذلك؟، وبعد أن يحصل هذا ترجعان إلى سجنكما لحين استجوابكما عن سبب مجيئكما إلى ألمانيا بهذه الطريقة، ثم يتم ترحيلكما إلى مركز اللجوء الرئيسي للمدينة. الضابط كان ينظر لهما.

لم ينبس ببنت شفة، تفحصهما بدقة كأنه يود رسمهما، ظل بجلسته يراقبهما، همس آدم مخاطبًا المترجم بنبرة مسترحمة:

- نقسم بأننا متزوجان، كما نرجو أن تترجم للضابط وتنقل له رغبتنا بأن نخرج من هنا بأسرع وقت ممكن، حيث لم نعتد على هذه الحياة داخل السجن، أنا طبيب بيطري وزوجتي أكملت لتوها الإعدادية، جئنا من أجل الاستقرار والأمان، أرجوك، قل له هذا، نحن لا نستطيع أن نبقى هنا فترة أطول، أبلغه ذلك.

ترجم الإنطاكي ما سمعه، أنصت له الضابط بشكل رائع، كان الأخير من يراه يحبه رأسًا، لا تعليل لذلك، طبيعة الإنسان غالبًا ما تكون مضحكة، لا أحد يعرف لماذا يستطيع البشر في أوقات كثيرة أن يحبوا من النظرة الأولى وبنفس القوة نراهم يكرهون دون أن تكون هناك سابق معرفة بالآخر!، هل هو مزاج؟ غريب طبع الإنسان، يقتل نفسه تفكير وتخطيط، وما أن يصل هدفه سرعان ما يسأم منه، يصيبه الملل ينشد التغير وكأن ما وصله لم تكن غايته التي قتل فيها نفسه وحرق من أجلها أعصابه؟!.

بعد أن توقف المترجم عن الحديث أخذ الضابط زمام الأمور، قال:

- لن أجعلكما تبيتان هنا اليوم. سأطلب لكما الخروج من هنا فورًا.

قاطعته أنهر معتذرة برنة أخاذة تقهر:
- معنا أخي كمال، أرجوك، لا نستطيع أن نتركه لوحده هنا. ابتسم الضابط لتدخل أنهر الجريء، كانت ابتسامته وادعة تنشر السلام في كيان الإنسان دون أن يشعر كابتسامة نبي، طفق:
- هذا ما سيحصل يا.....
لم يكمل، نسى اسم عائلتها، نظر إلى الأوراق التي أمامه، قرأ اسم جد آدم، كان يدعى وليد، أكمل ما كان ينوي قوله:
- يا سيدة وليد...
ضحكت أنهر دون إرادتها، لم يسبق ولها أن نادها أحد باسم عائلة زوجها، سرقت من آدم نظره جانبية كما تنظر السمكة وهي تضع يدها على فمها خجلاً، نوهت للمترجم بأن ينقل كلامها:
- أعتذر منك سيدي، ضحكت غصبًا عني، فاجأني اسم عائلة زوجي، في البلد الذي جئت منه لا ينادون الفتاة المتزوجة إلا باسمها، وأسم عائلتها تبقى تحتفظ به حتى بعد زواجها.
- ها. هكذا إذن، عندكم حرية الاختيار. ثم لم يصبر، ضحك الضابط وهو يكمل:
أمزح معكِ يا ابنتي، من حقك أن تحتفظي باسم عائلتك طبعًا، لا يمكن لأحد هنا إجبارك على شيء قانوني أنت لا ترغبينه، إذن سأصحح اسمك.
ألقى نظرة خاطفة على الملف الذي أمامه، نادى وكأنه على خشبة مسرح:
- يا سيدة باسم، وتابع: سيخرج أخوك كمال معكما.
وما أن سمعت أنهر كلماته الأخيرة وهو يبشرهم بالخروج سويًا حتى دفنت وجهها بين يديها وأجهشت باكية من فرحتها.
انتهى اللقاء بأمر مغادرتهم السجن.

• • • •

أول شيء طلبه آدم من زوجته أدويته بوقفتهم على رصيف الشارع أمام بوابة السجن الكبيرة بعد أن أصبحوا أحرارًا وفي جيوبهم عنوان مركز اللجوء العام في المدينة وخارطة توضح لهم كيفية الوصول إليه.

التقط جهاز البخاخ الميكانيكي الصغير الأبيض الذي يشبه الفأره، سحب نفسين عميقين ردت إليه الروح، انتعش، شعر بالراحة، تناول حبة واحدة من الكورتيزون الناعمة الخارقة التي لولاها لما بقي على قيد الحياة، هو يعرف ذلك، أنهر كذلك، متفهمة لمرض زوجها، الربو مرض لعين ما أن يصاب به المرء حتى يلازمه طيلة حياته، التأقلم معه أحد أهم وسائل العلاج. نبر كمال بنبرة متلعثمة:

- لابد من أخباركما. نظرت له أنهر مستفسرة دون أن تنطق تنتظر منه أن يكمل. تابع أخوها بعد تردد ملحوظ:

- لم يرجعوا نقودي!. كما أنهم احتفظوا بجوازاتنا والفيز التي كانت بداخلها.

- هذا أمر طبيعي ومتوقع يا كمال. ردت عليه أنهر وأضافت مستطردة: أصبح لديهم ملف شخصي عنا، يحتفظون بكل ما يتعلق بحياتنا، الجوازات والفيز تعتبر أدلة، لكن من غير الطبيعي أن يسرقوا نقودك هكذا جهرًا. نعم، دخلنا أراضيهم بصفة غير قانونية، لكن هذا موضوع آخر لا يعطيهم الحق بالاحتفاظ بالنقود، ثم نوهت: لماذا لا نرجع إليهم ونطالبهم؟. نبر آدم مندفعًا:

- أنهر عندها حق يا كمال، تفسيرها منطقي جدًا. كان لابد من أن يأخذوا أوراقنا، لكن أن نرجع لهم ونطالبهم بالنقود لا أجده أمرًا هينًا أو مستساغًا، يكفي بأننا خرجنا من سردابهم الكريه. ثم واصل متخابثًا غامزا: اصدقني القول، ماذا تفضل لو خيروك بين نقودك أم جواز سفرك؟. تجهم كمال، شعر بالإحراج، صعد الدم إلى رأسه، احتقن وجهه الوسيم بحمرة قانية، قال وعيناه الزرقاوان تشع بريقًا ساحرًا:

- عندما هربت من بلد الطاعون كان لي همٌّ واحد، أن لا أرجع والطاعون ما زال على قيد الحياة هناك. سُرق مني أجمل سنوات عمري، تمرغت كرامتي، كنت لا أشعر بأني إنسان يدب على الأرض ساعيًا للحياة، لم أكن أحس بأني قادر على الحلم، هل تسمع يا آدم، قد تقول بينك وبين نفسك، بأني جاهل لا أعي على نفسي، من حقك، فأنا وبهذا العمر مازلت أتصرف كالأطفال، زهقت روحي، لم أعد اتحمل تلك الحياة، وعندما سمعت بأنكما ستغادران بلد الطاعون رقصت طربًا، قلت،

سأذهب معهما، تاركًا ورائي كل شيء حتى أمي التي أحبها أكثر من نفسي، وتقول لي الآن ماذا تختار؟، أختار النقود طبعًا، فهي لن تذكرني بمأساتي، أشعر بأن جواز سفري مثل العار لابد من التخلص منه بهدوء، بلا فضيحة. توقف برهة، تابع مبتسمًا بمرارة:

أصدقاؤنا الألمان سمعوا ندائي هذا الذي كان يرن بداخلي كناقوس دير للراهبات فقرروا مساعدتي، أنقذوني من عاري، احتفظوا بجواز سفري، أعتذر، أقصد، بفضيحتي دون أن ضجة، خلصوني منه كما كنت أخطط له، بلا شوشرة، لكنهم ملاعين في ذات الوقت، لأنهم سطوا على نقودي. لم يشأ آدم الرد عليه ولا أنهر، تجملوا بالصمت والصبر، شعروا بأن كمال قد كبر وكأن ليلة واحدة في السجن قد علمته ما عجزت عليه السنون من قبل!.

اقترح آدم عليهما بأن يجلسوا قليلاً في المقهى المقابل لبناية السجن يتناولون فيه فطورهم ويشربون شيئًا يبلّ ريقهم. وافقاه الرأي، اتخذوا مجلسهم نحو طاولة صغيرة مستديرة كانت تؤنس وحده بعض أخواتها من الطاولات التي لم تشغل بعد على رصيف الشارع أمام المقهى. وقفت النادلة الرفيعة كراقصة البالية فوق رؤوسهم تأخذ طلباتهم، كمال حاول النطق ولم ينطق، تلكأ، خانته لغته الإنجليزية التي لا تذكر بالطيبة، أشار لأخته بأن تساعده في الترجمة، سأل إن كانوا يقدمون فطورًا، أجابت النادلة بنعم، تشجع فطلب لنفسه بكرم منقطع النظير ما ترجمت له أخته وما توفر عندهم من شرائح الجبن الأصفر واللحم البارد والزبدة، في حين أكتفت أنهر بزجاجة من الماء المعدني، وطلب آدم لنفسه قهوة المحلاة بالحليب المركز. نوهت لهما أنهر بلهفة:

- يتوجب علينا الاتصال بكريم. سأطلب من النادلة مساعدتنا، ما رأيكما؟.

وافقاها الرأي دون تردد، آدم أضاف بهزة من رأسه علامة القبول، قال:

- آه يا عزيزتي لا تنسين شيئًا.

بعذوبة:

- خوش.

قامت من مكانها متوجه إلى داخل المقهى، تحدثت مع النادلة ببضع كلمات لم يتعرف زوجها ونسيبه عن ماهيتها شيئًا، رجعت إليهما وهي تشير بأن يتبعانها.

توجهوا نحو الداخل، وجدوا النادلة منهمكة في حديث باللغة الألمانية مع أحدهم عبر الهاتف، بعد ثوانٍ سلمت سماعة الهاتف لأنهر قائلة:

- خذي من فضلك، كريم أخوك على الخط. شكرتها أنهر بنظره وادعة، تحدثت بشغف لا يوصف مع أخيها، ترقرقت الدموع من عينيها دون شعور، ألتقط كمال سماعة الهاتف من يديها دون أذن، ناح جائرًا بصوت أجش فيه حشرجة الموت كحمار في حالة شبق:

- منْ، كريم؟ ثم جمجم مستمرًا: كنا في السجن، انقذنا، تعال إلينا، نحن لا نعرف شيئًا، أرجوك لا تتركنا لوحدنا. قاطعه آدم بنبرة حاسمة:

- ماذا تفعل يا كمال؟، ما هذا الذي تقوله وتنقله لأخيك؟، أعطني السماعة، أود التحدث معه. جاء دوره، بهدوء واتزان رحب به وشرح له ظروفهم وما حصل معهم ونوه بأنهم سيتوجهون من فورهم نحو مركز اللجوء الرئيسي في المدينة، وأضاف: سأعطيك النادلة مرة أخرى لتملي عليك عنوان مركز اللجوء، فعل ما قاله. كريم أراد التحدث مع أنهر مرة أخرى، قال لها:

- مسافة الطريق سأكون عندكم. لا تخرجوا إلى مكان بعيد عن مركز اللجوء. سنلتقي عند المساء، لا تقلقي، أعتمد عليك يا حلوتي، يا ملاكي.

ردت عليه ضاحكة:

- أعدك. تصل بالسلامة.

عادوا إلى طاولتهم وشعور طاغٍ بالراحة يستعمرهم.

أرادوا دفع الحساب وسعر المكالمة الهاتفية بعد أن أنهوا فطورهم بالدولار الذي معهم، رفضت النادلة، قالت، نحن لا نأخذ إلا العملة المحلية، المارك الألماني، سألها آدم بلطف عن الحل، أشارت له بيدها البيضاء المصقولة بأن في نهاية الشارع نحو اليمين يوجد بنك يمكنه تحويل الدولار فيه. ذهب بمفرده، دقائق حتى عاد لهما، دفعوا الحساب.

انتظروا تاكسي يقلهم إلى العنوان الذي بحوزتهم، مركز اللجوء العام في المدينة، أول شيء استغربوا منه سيارات الأجرة الصفراء التي أغلبها من نوع مرسيدس. تمر من أمامهم فارغة دون ركاب، يشيرون لسائقيها بأن يتوقفوا لكنهم لا يتوقفون،

يمضون مسرعين وكأنهم غير معنيين، طال بهم الزمن لا يعرفون كيف يتصرفون، لاحظتهم النادلة، تقدمت نحو أنهر ناصحة بعد أن عرفت بحدسها بأنهم غرباء:
- سيارات الأجرة في ألمانيا لا تتوقف إلا في أماكنها المخصصة لها.
لم تفهم أنهر كثيرًا، طلبت منها مزيدًا من التوضيح.
تابعت النادلة: بعد شارعين فرعيين وعند المنعطف على يدك اليسرى يوجد موقف خاص للتاكسيات، من هناك تستطيعون أن تستقلوا أول سيارة في الصف.
صفق كمال يد بيد مذهولاً وهو يدمدم:
- سبحان الله. أخي كريم لم يخطئ في وصفه عندما تحدث عن ألمانيا، كل شيء مدروس بدقة ومحسوب كعمل الساعات السويسرية.
اتجهوا نحو مكان تواجد سيارات الأجرة كما وصفت لهم النادلة بالضبط، استقلوا واحدة، بعد دقائق كانوا أمام مبنى كبير لا تدل عليه علامات الصحة موبوء بالأجانب من كل الألوان والأصناف، الفوضى تعم المكان والأصوات المتداخلة تسمع عن بعد كزفة هنود حمر في غابة.
وكان هذا أول سكن لهم على أرض ألمانيا الموعودة.

• • • •

ارتبكوا ثلاثتهم مما رأوا. استحلوا جانبًا من الرصيف مشدوهين لا يعرفون ما يفعلون. المفاجأة أذهلتهم، البناية كانت توحي وكأنها مركز للشقاء وسجن للتعذيب. متكونة من ستة طوابق رصاصية اللون، لها مدخل زجاجي قذر يقف إلى جانبه حارسان يرتديان أزياء موحدة زرقاء توحي للناظر بأنهم من الحراسات الأهلية الخاصة التي تؤجر، يحملان أجهزة لاسلكية لا تنقطع عن الدردشة والوشوشة، أحدهم كان أبيضًا بياض الأوربي بدينا وكرشه مندلق كقربة اللبن أمامه، يزين وجهه أنف مفلطح مرعب، هيئته تدل على أنه صنع ونشأ وتكون في الست والثلاثين السنة الأخيرة. والآخر يبدو من أصول آسيوية شرقية وجهه مقزز مقرف مليء بالبثور حليق الرأس والوجه رفيع، ضعيف البنية، هزيل مهيأ للمرض في أي لحظة ويكاد لا يقوى على الوقوف، منحي الظهر كأحدب لا تظهر عليه سيماء الرحمة. نوافذ البناية كانت أغلبها مشرعة وزجاج أكثرها محطم أو مرقع بشرائط

لاصقة شفافة، تخرج منها الأصوات مندمجة مع ألحان موسيقية متنوعة حسب أقوام السكان القاطنين، لا يستطيع المرء من الوهلة الأولى تميز مصدرها، منبعها، جذرها أو مكان ولادتها!. فيتنامي على صيني على أفريقي على هندي على عربي على فارسي على يوغسلافي على روماني على تركي والقائمة تطول. كل شيء كان منفرًا، مزعجًا، متلاصقًا، متمردًا، قذرًا، مقززًا، متنوعًا تتلقاه كارهًا شئت أم أبيت. هذا ما جعل أصدقاءنا- كمال وآدم وأنهر - يقفون مأخوذين لا يعرفون كيف أو من أين يبدأون، حالتهم النفسية مهدمة، اختنقت أصواتهم في حلوقهم مثبطي الهمة خائبي الأمل. بعد لحظات من الذهول أفاق آدم من غيبوبته على انفجار موهبته الخطابية فجأة كاسرًا بذلك طوق الرهبة الذي ألتف حول نفوسهم من هول ما رأوه:

- ما بكما؟، كنا منذ قليل لا نطمح إلا بالخروج من السجن، والآن وبعد أن أصبحنا أحرارًا تتململون لا ترغبون أن تستمروا، هيا. ما تنتظران؟ لندخل ونقدم أنفسنا ونأخذ دورنا في الحياة، ألم نأتِ من أجلها؟! أمسك بيد زوجته وتقدما كمال، الأخير تبعهما متكدرًا وعلى عينيه سحابة قاتمة كغيمة حبلى بالرعد والمطر تعاني المخاض تحلم بالولادة في أي لحظة، ساروا ببطء جنائزي نحو البوابة، ألتقوا بالحارس البدين الذي كان نشاطه طاغيًا على كل تصرفاته، يعتز ويعتد بنفسه، يعتبرها شيئًا ذا قيمة نفيسة، مغرور كغرور الإسكندر المقدوني، نعق بغيض مسعور غير مبرر، وبصوت متحشرج كمن يعاني الذبحة الصدرية:

- أوراقكم؟. ثم أضاف مقتضبًا: من أين أنتم قادمون؟.

لم يفهموا شيئًا، حدثهم بالألمانية متمرسًا متعمدًا. كرر طلبه بعد أن رفع درجة صوته منوهًا هذه المرة باللغة الإنجليزية التي كان الوغد يجيدها بشكل جيد.

أخرج آدم من جيب بنطاله الورقة التي كان قد استلمها من إدارة السجن عند خروجهم دون أن يتأتأ أو يثأثأ أو يضيف شيئًا. كان هذا رد فعله. لم يرتح لتصرف الحارس مسحوق النفس، كرهه ما أن رآه، عثر فيه على بئر من غرور طائش لا يتناسب وأمكانياته ومواهبة، وجده يثير الاشمئزاز يبعث على التقزز فقرر أن يكون ندًا بصمت دون سابق معرفة به. همس لأنهر موشوشًا وهو يقرّب فمه من أذنها:

- يبدو أن هذا البدين الفظ لا يعرف بأن قيمته لا تساوي فلسًا أحمر مثقوبًا منقرضًا بطل التعامل به منذ عصور ودهور، بل أكاد أجزم بأنه من أصول أوربية شرقية ليس إلا، يحاول التشوف أمامنا لإبراز مهاراته المستهترة التي يحسبها شجاعة، وما هو في نظري غير هر قصاب، سفاح ابن كلب، يهيننا بنظراته، يحاول إخافتنا بنبرات صوته المجلجلة، مسكين، لا يعلم أن أبناء بلد الطاعون لديهم مناعة ضد هكذا أمراض فجائية.

ضحكت أنهر من وصفه، لكنها تأثرت لتأثره، قالت:

- دعك منه، لن يهمنا أمره، أرجوك يا آدم، لا تجعله يسكن عقلك، اتركه.

أشار لهم الفظ الغليظ المتين الأحمر كما تعود كمال فيما بعد أن يسميه إلى أن يذهبوا إلى الدور الرابع لاستلام عدتهم ومفاتيح غرفهم بعد أن كتب على قصاصة ورق رقم الغرفة المفروض التوجه إليها.

هناك وجدوا امرأة جميلة في الأربعين سورية الأصل مترجمة، كانت لبقة، ضحوكة، تتحرك بشكل ملفت للنظر، طلبت منهم الانتظار خارج الغرفة حتى يتم مناداتهم. لم يكن في الممر المقابل للغرفة أي مكان للجلوس، كانت مجرد فسحة عارية من أي قطعة أثاث، ماعدا نافذة مطلة على الشارع بلا ستائر والأرضية مرصعة بموزائيك أبيض وأسود كثير البقع. قرفص آدم كما يجلس الرهبان المصريون القدماء ساندًا ظهره على الحائط، كمال كان يلوب، يذرع الممر بخطواته المتشنجة القلقة، أنهر واجهت زوجها واقفة تلعب بشعر رأسه بحنية خافقة بالحب، بعد أكثر من ساعة فتحت الباب، خرج ثلاثة شباب وامرأة من أفريقيا يصفقون الأرض بأحذيتهم وأصواتهم ترج أساسات البناية من جذورها، مشيتهم مرعبة تشبه مشية صبيان مشاكسين في حي شعبي موبوء بالجريمة، خرجت بعدها المترجمة الجميلة تترنح بمشيتها، تهتز ملتوية كأفعى ترقص، تستأذنهم بالدخول.

قدموا بياناتهم الشخصية كلها. عرفوا بأن هذا المكان مؤقت، سرعان ما يتحولون منه إلى مكان آخر يستقرون فيه. ترجمت لهم بأن نظام الأكل والشرب منظم على شكل بطاقات يومية يستلمونها من إدارة المركز كل صباح، ثم ينتظمون في طابور لإستلام أكلهم وشربهم المعلب في كارتون كبير يوميًا لحد الساعة الحادية عشر، مضافًا لذلك يستلمون راتبًا شهريًا قيمته للفرد الواحد ثمانون ماركًا. أعطتهم

مفتاحين لغرفتين منفصلتين، رفضت أنهر عرضها، توسلت بها أن يسكنوا في غرفة واحدة خوفًا على أخيها. استغرب الموظف الألماني المسؤول عن الفرز طلبها، كان طويلاً، أحمر الوجه بذقن نابت، تجلس أمام عينية الزرقاوين نظارة طبية ذات إطار ذهبي رفيع، شبكت جناحيها سلسلة مذهبة أحاطت بأناقة رقبته، قال:

- لا يجوز.

- أرجوك. بل الغرفة الأخرى قد تفيدكم لإعطائها إلى عائلة أخرى.

- ومن قال لكِ بأننا سنعطي أخاك غرفة لوحدة. أنه مجرد سرير في غرفة بثمانية أسرّة. لكما، أنتِ وزوجك غرفة تضم أربعة أسرّة، لكننا لن نجعل أحدًا يشارككما بها. توجهت للمترجمة، رجتها متضرعة بطريقة مهذبة:

- أفعلي من أجلنا شيئًا، لا أريد أن يسكن أخي مع آخرين.

في هذه اللحظة تقدم منها آدم سارًا:

- لا تزعجي نفسك يا أنهر، كريم سيكون هنا عند المساء، بقاؤنا هنا محسوب بالساعات، لا نفع فيما تطلبينه، دعيهم يفصلوننا كما يريدون، لن يؤثر هذا على وضعنا. تذكرت وعد أخيها لهم، تفتحت أساريرها فجأة، نوهت مبتسمة:

- سنقبل بما تأمروننا به.

غرفة أنهر وزوجها كانت في الطابق الرابع من الجهة الشرقية للمبنى، كانت عارية الجدران، غير نظيفة، صغيرة الحجم، لا يتجاوز طولها أربعة أمتار وعرضها مترين، بابها من حديد أبيض وسخ، مريض بالصدأ، الأسرّة كانت أربعة كل اثنين فوق بعض متقابلين، ونافذة مطلة على الحديقة الخلفية للمركز كانت تجمع فيها النفايات في حاويات خضراء اللون كبيرة. نصيب كمال كان في غرفة بالطابق الخامس مطلة على الشارع مع شباب من جنسيات مختلفة، أحدهم كان مغربيًا وقحًا مدمنًا على التدخين بشكل مرضي لا يطاق.

لم يعجبهم الطابور الطويل الذي يبدأ بالممر الخارجي وينتهي بالمطبخ في الطابق تحت الأرضي توزع فيه حصص الطعام بصناديق كارتونية سمراء اللون وعليها

علامات الدول المانحة لها. قرروا عدم تضيع وقتهم في الانتظار. طلبت منهما أنهر أن يذهبوا للتفتيش عن دكان يبيع ما كانت تفتقده منذ فترة "الخضار والفاكهة".

رحَّب آدم وكمال بالفكرة، ناح الأخير: علينا أن نبحث عن مطعم كذلك، لابد من أن نعثر عليه قريبًا من هنا!.

خرجوا من المبنى، استداروا بعد السير بضعة أمتار نحو اليسار وإذا بهم يلتقوا بمحل لبيع الخضار والفاكهة الطازوجة التي كانت أنهر تتوق لأكلها، كانت البضاعة معروضة بشكل تجعل المرء يشتهيها حتى لو كان شبعانًا، وقفت أنهر أمام العنب الأصفر الذي تحبه، وجدت حباته كبيرة أكبر مما رأته من قبل، ألتقطت حبة لتجريبه، وجدته طيبًا، خرج صاحب الدكان العريض الطويل كعملاق من سالف الأزمان من أصول إغريقية متشنجًا مقطب الجبين، عابس الوجه، متحفز للعراك لفعل أنهر، زاعقًا ناعقا كتنين صيني في حالة هيجان داخل مهرجان:

- ماذا تفعلين عندك؟، واستطرد والشرر يتطاير من عينيه: هذا لايجوز، سأتصل بالشرطة حالاً، فعلكِ هذا يعتبر سرقة. وظل يرغد ويزبد. أنهر تراجعت خطوة إلى الوراء، آدم مبهوتًا، وكمال انخطف لونه وهم لم يفهموا كلمة واحدة مما زعق ونعق به العملاق في وجوههم ورذاذ لعابه يتسربل أمامهم. بعد أقل من لحظة استعادت أنهر وعيها، اقتربت من صاحب المحل تسأله إن كان يتحدث الإنجليزية. أجابها بالنفي رغم أنه بدأ ينطق بها دون شعور، فعرفت أنهر ما اقترفت، نوهت بهدوء ورزانة:

- لا داعي لكل ما قلته، نحن هنا غرباء تمامًا، لم نصل إلا منذ يوم واحد، أعذر لي جهلي بقوانينكم، ثم لاطفته والدمعة تتحير في مقلتيها ولم تنزلق:

أعطني لو سمحت من هذا العنب الطيب نصف كيلو.

تدخل آدم بعد أن سمع زوجته وهي تطلب الكمية التي وجدها كبيرة لمجرد تجريب حبه منه، حسب ذلك استغلال غير مبرر، قال متوجهًا لصاحب الدكان يخاطبه وهو يرشقه بنظرات حارقة كأنها خارجة من فرن متقد النيران:

- هل يرضيك هذا ؟. لم ينبس العريض الطويل ببنت شفة، التقط كيسًا أسمر من الورق كان معلقًا على إحدى جوانب دكانه، الأكياس كانت تبدو كأرانب مذبوحة

معلقة من أرجلها، وأخذ يزن لها ما طلبته. تحركوا خطوتين حتى عثروا على مطعم تركي يبيع " الشاورما" صاح كمال متزلفًا بدافع الجوع:

- عز الطلب، هذا ما كنت أتمناه. دعونا ندخل لنرعى فيه!.

ضحكت أخته لوصفه الفطير، آدم لم يعر لكلماته أدنى اهتمام كأنه لم يسمعها، اتخذوا مجلسهم حول طاولة بعيدة عن مكان سيخ اللحم المحمر الذي تشط منه رائحة معجونة بالزفرة لا تتبخر لو تعلقت بالثياب حتى بعد غسلها. لم تطلب أنهر لنفسها شيئًا سوى الاكتفاء بالعنب الذي اشترته مضافًا له خيارتان صغيرتان بفاريتان تنتشر على سطحهما بثور كالحبوب يطلق على هذا النوع اسم، الخيار البلدي.

ظلوا يذرعون الطريق رواحًا ومجيئا بانتظار كريم نافدي الصبر حتى رأوه مقبلاً عليهم في ساعة متأخرة من المساء وعلى كتفه حقيبة سوداء صغيرة ترفرف في الهواء كلما أهتز بدنه أو تحرك. عانقهم بقوة، حضنهم بعاطفة كادت تبكي أنهر، صاح متورم العينين لأرقه وسهاده:

- آه. اشتقت لكم كثيرًا يا أولاد، قلقي عليكم كان أكبر مما يتحمله قلبي الضعيف.

كمال بكى على كتفه دون أن يسيطر على نفسه، تركها على فطرتها، عبّر عما كان داخله يشعر به، ارتجفت أطرافه، همهم متناغمًا مع الحدث كطفل رجع إلى حضن أمه بعد غياب:

- لا تتركنا بعد يا كريم.

ثم أضاف بشكل مضحك يثير السخرية: لماذا تأخرت علينا؟!.

انفجرت ضحكاتهم في الطريق لقول كمال. لم يجعلهم يتأخرون، طلب منهم كريم اصطحابهم نحو محطة القطارات بعد أن أظهر لهم تذاكر القطار التي كان قد اقتناها قبل مجيئه.

توجهوا إلى مدينة هانوفر محل إقامته يستبشرهم خيرًا.

(١٩)

يتشابه البشر في طباعهم تشابُه الخِراف في أشكالها. كثيراً ما يقرَر الإنسان أشياء لا يجرؤ على فعلها أو تطبيقها. إلى متى نبقى نخاف الخوف، نهرب من الهروب، نختبئ عند المواجهة ونهاب الحياة ؟!

لأول مرة في حياتهم يصعدون قطارًا فاخرًا بهذا الشكل ويسير بهذه السرعة الوادعة الهادئة غير الواضحة لا تهتز له خاصرة كأنه لا يتحرك. حجز لهم كريم ثلاثة مقاعد في "كابينة" من حسن حظهم لم يشاركهم فيها أحد، استثمرت أنهر أحد تلك المقاعد الشاغرة التي أمامها، مدَّت ساقيها، وما أن رآها كمال حتى فعل مثلها ثم غطَّ في نوم ثقيل كالقتيل. فتح آدم باب الحوار مع نسيبه كريم مستوضحًا منه ما ينتظرهم بعد أن شرح له ما صادفهم في الطريق عندما تعطلت السيارة على الطريق السريع بين النمسا وألمانيا وكيف أنقذتكم البطانية التي أصرَّت أنهر على إحضارها معها، ضحك كريم من الموقف، كان يجلس قرب باب "الكابينة" مستندًا بكتفه على زجاجها، قال:

- رحلتي كانت كذلك متعبة لرجل بمثل سني، ومما زاد همي هو قلقي عليكم، لكني أعدكم بأنني لن أتخلى عنكم بعد اليوم، يعني، لن أجعلكم تهربون مني ثانيةً، قهقه، ردد متابعًا وهو يغمز أنهر: لقد رهنت أغراضكم، أقصد، سلمتها إلى سامح وهو سيتصرف بها، خولته عليها، لا تقلقوا، لم أجلب معي شيئًا، تركتها كلها هناك واضعًا سامح حارسًا عليها، ارتفعت قهقهاته مجددًا، كان يشعر بالإرهاق والسعادة في نفس الوقت، كان منهكًا حقًا، ففي نفس اليوم عليه أن يقطع مسافة ألف وثلاثمائة كيلومتر جالسًا في القطار، هي المسافة بين ميونخ وهاوفر ذهابًا وإيابًا، لكن رؤيته لهم جعله يشعر بالاعتزاز والغبطة، حدّث نفسه: لا يمكن لي أن أتخلى عنهم مهما حصل. لو تركتهم لضاعوا، نوه لآدم بأنه بعد أن يستريحوا من المشوار لبضعة أيام سيكلف محامٍ يستلم قضيتهم ويطلب لهم اللجوء السياسي. ارتاح آدم لقوله رغم عدم

دقته أو وضوحه بالنسبة له، تجاوبت أنهر مع أخيها بعد أن رأت التعب في عينيه ناطقًا:

- تذهب أغراضنا إلى الجحيم يا أخي. لا تحمل همًّا، يكفي ما تفعله من أجلنا.

آدم أطرا وأثنى على كلام زوجته، قال:

- هذا صحيح يا كريم، ما تفعله من أجلنا أكثر بكثير مما كنا نحلم به ونتمناه، ثم أضاف: نحن من يدك هذه إلى يدك تلك، ما تقوله نفعله، نرتاح كم يوم كما قلت ثم نبدأ بالعمل.

لحظات من الصمت والتأمل غلبتهم، كسرها آدم بقوله:

- المساحات الشائعة الخضراء المتجددة على الجهتين كما أرى لا تبدو لها من نهاية، انظري لها يا أنهر، مناظر خلابة تلهم، لها القدرة لجماليتها وروعتها على أن تجعل كل الناس شعراء!. ثم سأل نسيبه مازحًا:

- ما للألمان يخشخشون من صدورهم بخاءات لا تنتهي ؟!، أعني، يستخدمون حرف الخاء كثيرًا، بل أكاد أعتقد بأن كل كلمة لابد وأن تحتوي عليه!، ما العلة هنا يا كريم؟ ما هذا العشق الخاخائي إن صح التعبير، ما هذه اللغة المترعة السكرى المولعة بحرف الخاء؟.

ضحك كريم لتنويه آدم، وجده ذا حاسة سمع جيدة، بل أوعزها إلى أن أذنه موسيقية تستطيع أن تلتقط الذبذبات الصوتية وتفرزها وتزنها جيدًا، أجاب بسخرية لاذعة لم يتعودوا على سماعها من قبل:

- هذا لأنهم يستعملون كلمة خراء كثيرًا. ستسمعها ما أن تعرفها بين كلمة وأخرى استهزاءً بالحياة ومن فيها.

ثم نهض من مكانه، قال: سأكون هنا بعد لحظة، غادرهم بعد أن أحكم إغلاق باب "الكابينة" من ورائه.

أحضر لهم طعامًا جاهزًا من مطعم القطار، استيقظ كمال على الطقطقات والهمهمات، ناح ضاحكًا بزهو كزهو عريف في الجيش منبع رزقه الرشوة:

- يا رب السماء، أين حصتي من الأكل؟، قلّب الطعام بين يديه، شرع غير مصدق ما تراه عينيه: من أين أتيت بهذا الطعام؟.

- من مطعم القطار طبعًا، وأردف: من أين لي أن أحضره ونحن هنا في صندوق يتحرك بسرعة تتجاوز المائتي كيلومتر بالساعة!، ها. حرك عقلك يا كمال، أرني ذكاءك، قل لي أنت من أين أتيت به؟. برطم كمال كالعادة، شعر بإهانة مسّت رجولته، لكن حبه لأخيه جعله ينسى بسرعة، تجاوز ما سمعه، نوه بصبيانية لا تتناسب مع سنّه:

- آه. ما أجمل ألمانيا وما أروعها.

بدأوا يلوكون طعامهم، يتمازحون، يضحكون، ينشرون النكات التي ود كريم سماعها منهم عن بلد الطاعون وكايزرهم، كمال كان له السبق، سرد لهم الكثير مما كان يحفظه، سادت أجواء " الكابينة " روح أخوية حميمية جميلة كانوا في أشد الحاجة لها.

فزّ آدم من محله مخاطبًا زوجته دون سابق أنذار:

- ناوليني ورقة وقلما وقبلهما أدويتي لتناولها!. ضحكت أنهر لطلبه، تعودت على مفاجأته الكتابية، قالت متجه بالكلام لأخيها كمال:

- انظر، كما فعلها عندما كنا في القطار المتجه إلى بودابست، وتابعت بلطف هائم سابح كالدعاء: من الظاهر بأن القطارات ومناظر الطبيعة من حولها تلهمه، تجعله كما قال قبل قليل، من الشعراء. أعطته ورقة مطوية موضوعة بجيب داخلي من حقيبتها اليدوية وقلم تحتفظ به منذ أيام دراستها الاعدادية وأدويته، عب منها، شعر بأرتياح، بدأ يتنفس بسهولة، انتظمت نبضات قلبه، ألتقط حقيبتها، وضعها على ركبتيه، انحنى فوقها، هام في رحاب لا يعلم بها إلا الله، كتب:

من داخل الزنزانة...

يخال أن الإنسان الطيب اليوم ممقوت من الآخرين، وعليه فوق ذلك أن يدفع ثمن طيبته وبساطته ورقته وهدوئه للناس الذين يحيطون به لأن الله جبله على هذه الطباع الجميلة الوادعة المحبوبة سمعته وحريته ويحارب حتى في رزقه ويودع السجن إن تطلب الأمر ذلك!.

خلع ضمير مخسوف الخدين غائر العينين بأيدي مرتجفة بجلسته المقرفصة في زنزانته الباردة التي تشبه كهف في بطن الجبل قميصه المدعوك فاقد اللون بسبب استهلاكه ناقص الأزرار من كثرة ارتدائه، عض ياقة قميصه بأسنانه ليفصل قماشها عن الورق

المقوى الأسمر الذي يغلفها، نجح بعد جهد كلفه اللهاث وسيل من اللعاب المر، أخرج القصاصة الورقية منه، لبس قميصه الممزق الياقة مجددًا، زرَّر الأزرار المتبقية اتقاء البرد الذي كان قد حل في عظامه لا يريد أن يفارقه، هو لم يشعر بان ارتداء القميص سيقيه برودة ورطوبة الزنزانة، بل فعلها بشكل روتيني لم يع إليه، أخرج من فتحة بنطاله الجانبية الممزقة المثقوبة قطعة من الخشب بحجم عود الثقاب كانت بقايا من قلم رصاص أحتفظ به وقت الضرورة، بلل قمته الخاوية الجرادء السوداء وكتب على ورق المقوى الذي أخرجه من ياقة قميصه منحنياً كأنه يعاني قصر النظر بسبب الإنارة الخافتة التي تشبه ضوءاً يشعه سراج يحتضر :

"كنت شريفًا قبل أن أودع السجن، فترة لا أستطيع الآن حساب أو تقدير وقتها بسبب النسيان، ضاع مني التاريخ الذي كنت أتغنى به كرجل شريف، أقصد هنا بالتحديد، كنت أعمل كمصير مشترك بين الشرفاء قبل أن أصبح عاطلاً محبوساً في زنزانة باردة كسرداب تذبح وتقصب فيه الكباش، كانت في وقت ما لم أعد أذكره أعمالنا الحسنة، الطيبة، الجميلة، السخية هي نفسها آثامنا في نظر الآخرين من أبناء نسلنا الذين كنا نظن بأنهم من صنفنا، وشوا بنا أصحاب العمل، قالوا عنا ما لا يقال، سخطوا علينا، أمروا بمعاقبتنا على ما اقترفنا من فضيلة أصبحت في زمنهم حائلة اللون من طيبة وبساطة وتواضع وحب الناس ومساعدتهم، طردنا من رزقنا، أودعنا السجن، وها أنا أكتب إليكم أطلب الرحمة من الله والعفو منكم على ما اقترفت يدي من شرور وسوء يخل بنظام المجتمع، أكتب إليكم وأنا أشعر بأنني أموت في مكاني".

ضمير

بعد أن شلَّه التعب توقف عن الكتابة، طوى ورقته السمراء التي انتزعها من ياقة قميصه بحرص، تسربل في مشيته حتى باب الزنزانة، طرقها بيد مرتجفة راعشة، فتح الحارس الغليظ الطويل كأحد العمالقة السالفين الفتحة الوحيدة التي تمتلكها الزنزانة وسط الباب كعين وحش منها غذائهم وشربهم كما شتيمتهم وسبابهم يتلقفون، صاح بصوت كريه يشبه صرير الحديد على الحجر :

- ماذا تريد يا سجين ؟

- اغفر لي عملي، سامحني على جرأتي، كل ما أطلبه أن ترسل هذه الرسالة إليهم!.

- رسالة!، إليهم!، ممن يكونون ؟

بصوت واهن كمن حانت ساعته :

- كل شيء مكتوب فيها ومدون، لن أجعلك تتحير، خذها وحقق لي رغبتي الأخيرة في الحياة، أرجوك.

دون أن ينبس العملاق، تلقفها بخشونة، دعكها بقوة، طواها في يده كأنه يحطم عصفور صغير، أغلق الفتحة، عاد النور الباهت الأقرب إلى الظلمة يغلف المكان ويمتصه.

تراجع الحارس خطوتين، ارتجت الأرض من تحته، أسند الورقة على يده، بدت كراحة كفه، أو كورقة خس صفراء ذابلة نساها الزمن، قرأ ما جاء فيها، ضحك من خيبة ضمير، كانت بالنسبة له هذيانًا محمومًا أو مجنونًا، دقَّق النظر فيها فلم يجد كما توقع أي عنوان، تدحرج في مشيته نحو مشبك حديدي مغروس في جدار الممر وفتحاته تطل عن علو على شارع المدينة الكبيرة الواسعة الصاخبة بالحياة، أمسك ياقة قميص ضمير وبدأ بتقطيعها إلى أجزاء صغيرة، يقذف بها في الهواء عبر فتحات المشبك الحديدي وهو ينظر لها مغتبطًا بعمله بعد أن شعر بزهو كبير ونظره لم ينزل عن قصصات الورق التي بدأت تنتشر في الهواء وتسقط على الأشجار ورؤوس الناس وإسفلت الشوارع كالمناشير. في حين ظل ضمير يردد حتى أخر نفس من عمره بجلسته المقرفصة داخل زنزانته الباردة قول الكاتب الروسي العالمي خالد الذكر دوستوفسكي "كل شيء يتم في هذا الزمان على نحو عجيب حتى البر والإحسان".

رفع القلم من على الورقة، عرفت أنهر بأنه تجاوز النوبة بسلام، ابتسم نسيبه متسائلاً:

- ها. ماذا كتبت؟ طمئننا!.

- ما خطر على بالي يوم كنا في السجن.

قاطعته أنهر متلهفة:

- قصها لنا. أرجوك.

- حسنًا. قرأها بروح متمردة رافضه لواقعها.

بعد أن انتهى من سردها قبلته زوجته بخفر خافضة الطرف وهي تهمس بعذوبة كأنها أخت لنبي:

- قطعة تجريدية رائعة تعري فيها واقعنا المريض بشكل فاضح لا يقبل المساومة أو التخاذل. كما أجد فيها تنويه قوي المعنى، مسبوك الفعل بشكل فني جميل جدًا يحاكي

فيه سياسات الكايزر الرعناء وبلد الطاعون الذي هربنا منه، ناهيك عن تصوراتك المستقبلية الأقرب إلى الواقع وما سيؤول عنه بحكم التشرذم، الهجرة القسرية، التشكيلة الغريبة لعلم المفروض، أعني، المنطق الذي سيحورونه، يغيرونه حسب هوائهم ويجعلونه أقاويل لا تخدم إلا مصالحهم الشخصية، نزواتهم وشهواتهم كأن يكون تعاويذ أقرب إلى السحر والشعوذة. الحقيقة المؤلمة كالمرض والقاسية كالموت يا آدم هي البرنامج الذي أراه ماثلاً أمامي رغم من أنه لم يبدأ بعد، أقصد، ما سيكون عليه حالنا بعد بضعة سنوات من التهجير القسري، التهميش وقلع جذورنا من أساساتها بشكل مبرمج خبيث، وقتها سنختزل، نذوب، نتطشر، نتشرذم، نعاني شهقات الموت ولا نلوحه، نتمناه ولا نصله، سننقرض يا آدم، هل تعرف ما تعني هذه الكلمة وما لها من عمق؟، سننقرض إن لم نقاوم ونساهم في نشر الوعي بين أهلنا وناسنا، نحن ملة عدد أصحابها الذين يؤمنون بدينها ونبيها لا يتجاوزن المائة ألف على سطح كوكبنا، نسبة تكاد تكون معدومة، لا يمكن تذكرها أو الاعتراف بها وسط هذه المليارات من نفوس العالم وتعداده، خاصة لو قارناها ببقية الملل والطوائف، وقتها نكون كمن لا وجود له، هذا وحده سببًا كافيًا لتخوفي، شكي وريبتي، بجدية صارمة:

- انظر، لكل حي جذر؛ القمة عصير تلك الجذور بعد أن تكون قد تشربت بماء ملح الحياة. نتاج تلك القمة وثمارها لها نسيج جذرها الذي لا يشذ عنها، يأخذ منها لونها، صفاءها، عبقريتها، سلامها، لغتها وحتى مسامات جلدها، وديانتنا أدق مثال على كل ما تقدم كونها جذر ديانات التوحيد التي عرفتها البشرية. فجاءت نصوصها وتعاليمها، أسلوبها وخطابها، فلسفتها ونبوغها، مفاهيمها التي تقطر وئام وتنشر السلام في أصقاع الأرض بالتزام لم يسبق له مثيل، لم يأت بعدها ما هو مكنون في داخلها من عصير ذلك الجذر الأول الذي تشربت به أرضها، أرض الرافدين، عليه نما زرعها، أخصبت ثمارها، نضجت فأعطت، عاشت واستمرت كل هذه العصور والدهور محافظة على جوهرها وقوامها دون أن يصيبها تغير أو تعن من أي تأثير. أكاد أجزم يا عزيزي بأن الهيئات الدولية وساساتها بمكر ذليل وخداع كبير على علم بما سيحدث في تفكيك هذا الكيان، بل هم أنفسهم مشتركين في هذا المخطط الموجود على مكاتبهم اليوم، ألم يقولوا بأن طبول الحرب تقرع من جديد؟ متى

انتهت الحرب لتعود من جديد؟! ارتجفت شفتاها، احتقن الدم في وجهها، استمرت كمن يهذي تحت رحمة الحمى:

العملية تكاد تكون مقصودة، لها أهدافها غير المعلنة الآن، الأيام ستثبت صحة ما أقول وتكشف لكم نوع وحجم المؤامرة، سترون بأنفسكم، ما أذكره هو الحاضر وليس المستقبل، وعليه يا زوجي العزيز تقع عليك المسؤولية كما ستقع على أقرانك ممن يملكون الموهبة، قالت ذلك وهي تنظر له بحنية كادت تبكيه، أصحاب الفكر النير الذين بهم المجتمعات تتغير، تنمو وتنضج وتزدهر. التقطت أنفاسها لبرهة ثم واصلت متحمسة كأنها تدافع عن حياتها:

أجد مخاطبتك للعلاقات الإنسانية صادقة جدًا تمس شغاف القلوب تلك التي ستتحول بحكم ما ذكرته إلى ممارسات يومية لا إنسانية غير ملتزمة عارية من الأخلاق والقيم، أتوقع أن تظهر بشاعة الناس بشكل مروع في الشهور والسنوات القادمة، أسباب ذلك كثيرة، أولها انتشار الجهل، غسل الأدمغة، تشويه الحقائق وقلبها، تدخل دعاوى الدين، الفتاوى، مما سيجعل حياة العلاقات الإنسانية غير طبيعية، لا جار يعرف جاره، ولا أخ يعترف بأخيه، ولا صديق صدوق، قد يقول من يسمعني الآن بأنني متشتائمة، لكنني بإدراك خفي ضامر وشعور يوخزني هو الذي يملي علىّ ما أقوله. قاطعها آدم بقوله:

- رحماك يا أنهر، نقدكِ لقصتي تجاوز معنى القصة ذاتها، عبّرتِ عما لم أكتبه، بل أفضل مما كتبته وذهبت إليه، قلت من قبل وسأعيد تكرار قولي، أنهر ناقدة أدبية رائعة تجيد الصنعة بالفطرة الربانية، وها أنتِ تثبتين لنا ذلك. لكن، هذا لا يمنع بأنكِ تخيفينني بحدسك هذا، ولو صح ما تتنبأين به سنكون في كارثة إنسانية لا يعلم بها الشيطان، سنعيش في فراغ مروع مثل فراغ الكون قبل النشوء، أو مثل ظلام كوكب مجهول غير مسكون. لكن، اسمحي لي أن أقول ما شعرت به بصراحة ودقة:

هناك نبرة تحيز، أو لنقل حب لكياننا أكثر من حده الطبيعي، باغتها مسترسلاً: هل صدق حدسي؟. أخفت ضحكتها، أو حاولت جاهدة أن تخفيها ولم تفلح، رنت في "الكابينة" بعذوبة مثل رنة النحاس، قالت:

- لا أخفي حبي لكياني. هذا ما موجود في داخلي، لم أقل إلا ما أحسّ به.

- الآخرون يقولون عن كياناتهم الشيء نفسه، قال لها آدم ذلك وتابع: ربما هذه هي مشكلة الإنسان منذ ألفي سنة تقريبًا، لا يستطيع أن يلتقي مع أخيه الإنسان اعتقادًا منه بأنه الأصح والأجدر بالتصديق فضاعت علينا الحقيقة وسط دوامة هذا الصراع الذي لا أرى له نهاية قريبة!.

بإيمان حقيقي موقن راسخ مثل إيمان الأطفال بما يعتقدون:

- قد يكون ما تقوله صحيحًا، وقد تكون تلك الصراعات التي عاشتها البشرية منذ عهد بعيد ما هي إلا مظهر من مظاهر الترسيخ، أعني، التركيز لإثبات الذات، الإعلان على أن هذا الكيان أو ذاك هو الأنقى والأصفى والأقدم، ولهذه الأسباب تحاربت البشرية واختفت تدريجيًا فكرة الأخوة الإنسانية، أو بمعنى آخر أصح، ضمرت وانحسرت، لكن هذا لا يمنع من أن أدافع عن وجهة نظري بحرية دون أن أجبر أحدهم بتصديق ما أقول أو جعله تحت ضغط التهديد، مطرقة الخوف والترهيب ليؤمن بما أحبه أنا، فلو فعلنا ذلك عن عمد لفقدنا أعز ما نملك، رضى النفس وراحة الضمير، هذا لا يمنع من أن تستمر بمشوارك الذي بدأته، على العكس، ليكون كلامي حافزًا ودافعًا تنطلق منه كي ننبذ العنف، التطرف، الإجبار تحت نير القوة، الاضطهاد العنصري، أو التطهير العرقي، كل هذه الأمور نحن بعيدون عنها، لا نقربها، بل لا نؤمن بوجودها، وعليه أقول، لا تخف ولا تتراجع، عليك أن تكافح، تخرج الناس من خدرهم وكسلهم وخمولهم، توقظهم من سباتهم، أنت صاحب موهبة، يمكن للمرء منا أن يصبح طبيبًا لو أصرّ بعناد وكافح من أجل حلمه، لكنه لا يمكن أن يكون موهوبًا بالإصرار أو الإرادة، المسألة هنا تختلف، الله سبحانه يكون هنا صاحب الحسم والقرار، يعطي من يشاء بإرادته، الإنسان وقتها يكون أسيرًا لتلك الإرادة الإلهية، لا حكم علينا فيها، تولد العبقرية والموهبة مع الإنسان لحظة ولاته، فهي أما أن تكون أو لا تكون، الخلاصة، لا تكتسب الموهبة بالتعلم، لأنها هبة الخالق لبعض من خلقه، لذلك، عليك تركيزها وتكريسها من أجل أهداف سامية، هذا دورك في الحياة، مهما حصل أو سيحصل، انظر، لقد تقولوا على بوشكين هذا الشاعر العظيم رغم فنه ومقدرته الشاعرية الفذة "في نظمه اسرافًا في السهولة، تعوزه الرفعة وينقصه السمو" هل سمعت؟، هذا ما قالوه عن بوشكين، فلا تتأثر بأحكام سيطلقونها عليك جزافًا، هذا عرفهم، محور شريعتهم

وبها يتغنون، فالنيل من الآخرين أصحاب المواهب والمواقف كل ما يفكرون به ومن أجله يعملون.

- لو سمعتِ عما حدث لأحد أفراد كياننا لأعدتِ النظر فيما عنكِ صَدر. باستغراب ردت أنهر على زوجها:

- عن أي قصة تتحدث ؟، ومن يكون ذلك الفرد الذي لو عرفت قصته لغيرت رأيي؟. كريم يستمع لهما مأخوذًا، مسرورًا لرقي الكلمة ورفعة الحديث الذي يدار، لكنه ظل صامتًا كبوذي يتعبد في محرابه مع أنه ازداد تشوقًا لمعرفة القصة التي أشار لها نسيبه. رد عليها آدم ساردًا قصة ذلك الرجل الذي ضحى بنفسه من أجل أطفال جاره.

- هذه قصة حقيقية وقعت قبل فترة وجيزة لشخص - حسب قولك - من كياننا يسكن جنوب العراق، كنت أعتقد بأنك قد سمعتِها، حدثت قبل أن نهرب بأيام قليلة، تضحيته بنفسه يؤكد عكس أقولك، أعتذر لو لم أتفق معك هذه المرة فيما طرحتيه بحق الأخوة الإنسانية وما آلت أو ستؤول إليه، قد تكون النتائج التي توصلتِ لها صحيحة لحدٍ ما لكنها ليست عامة، لا يمكن أخذها على أنها القاعدة، الدليل ما سأقصه عليكم، ما أعتقد بأنه الواقع، لو فرغ الكون لهلك، لأصبح عدمًا، مكررًا ونكرًا لا يطاق. لكننا مازلنا نحلم، نطمح، نحاول على أقل تقدير أن نرسم للحاضر صورة بهيجة رغم وجود كابوس الطاعون المخيم علينا منذ عقود، ربما نستطيع أن نرَ ابتسامة طفل برئية، أو نظرة حمل وديعة، في عالم نحسبة شر كبداية طوفان، لكني مازلت أؤمن بأن روح الله مغروسة في قلب الإنسان لن تخرج منه، وعليه ستبقى الأخوة الإنسانية رغم ما نجده ونحسه عليها من ضعف وهزال، ستبقى فينا كأصواتنا وظلالنا. حرك بدنه بجلسته، نظر إلى قدميه خافظًا رأسه يستحضر ما وقع لذلك الرجل الإنسان، مستطردًا، قال:

كان ناجي جمعة سرحان من برج القوس، رمز الطيبة والحنية، رمز السلام والأمان كطبيعة حبيبتي أنهر. أب لولدين، معين لأخوين، مات أبوه وهو في الثامنة، ثم رحلت أمه ليكون وحيدًا يعاني الأمرين، اليتم وقسوة العيش وتحمل المسؤولية تحت ظروف بالغة الصعوبة، في حياة لا ترحم الفقير، كافح وناضل من أجل ما تبقى له، وفي يوم سمع فيه صراخ أطفال جيرانه والنيران تهددهم، تحاصرهم وهم

لا يعرفون كيف يتصرفون. هبَّ ناجي ناسيًا ذاته، بل أكاد أعتقد بأنه أراد أن يحقق ذاته، يوحنا المعمدان والحسين فعلا ذلك وقبلهما سقراط، تبعهم لوثر، ثم روسو وغاندي والقائمة تطول، هذا يعني أن الروح الإنسانية الحقة متغلغلة في أعماقنا، تخرج ساعة الجد، عندما ينسى الإنسان أنانيته، يتغلب فيها شعوره وإحساسه بالمسؤولية التي زرعها الله فيه وعليه أن يستخرجها وقت اللزوم، ناجي لم يفعل إلا ذلك، جسّد بالفطرة الربانية ما كان يشعر به لحظتها، دفعته الحمية الخالصة في إنقاذ أطفال جاره دون أن يفكر في الأخطار أو العواقب التي يمكن أن تصيبه، تجرد من الأنا، وقتها كان قلب وروح، إنسان بحق، وبعد أن انقذ آخر طفل من عائلة جاره اشتعلت في ظهره النيران، رقد في المستشفى أربعة أيام، ثم فارق الحياة متأثرًا بالحروق البليغة التي أصابته تاركًا زوجته، ولديه أنور وأزهر وأخواه ومصيرهم للمجهول. في رأيي يستحق أن نقول عليه شهيدًا بكل معنى الكلمة، فمن مثله وعلى شاكلته شهداء بلا ريب، هو لم يفكر بأن جاره على غير دينه، لم يخطر في باله التميز الطائفي أو العنصري، كان يعرف بأن ألسنة النيران ستلتهم أطفال كانوا يلعبون مع ولديه، حياتهم له نفس القيمة وخوفه عليهم كخوفه على طفليه، شخص مثل ناجي رحمه الله عبر لنا وأثبت على ان الإنسانية والأخوة مازالت بقوة موجودة في دواخلنا، جسد لنا بأصدق فعل وتعبير وأجاب على أسئلتنا التي تؤرقنا بشأن الروح والنفس البشرية إن كانت قد تغيرت أو أُعدمت، ناجي قال لنا كلمته بالفعل، الإنسان مازال حيًا.

ذرفت أنهر دموع لم يكن باستطاعتها كبح مشاعرها، شهقت بقوة، أخفت وجهها وهي غارقة في دموعها ناحبة تنشج، تحرك آدم نحوها، ضمها إليه، جعلها تشعر بأنها ليست لوحدها تعاني، رفعت رأسها، حملقت فيهم، صلبت نظراتها، قالت:

- يستحق هذا الشهم الشهيد بحق كلمات الشاعر الذي قال:

أرثيك يا رجلاً توارى ذكره بين الأنان، وهل يفيد بيان؟
حقٌ ولن يجد الزمان بمثله شهمٌ شريف طيب الأردان(•)

(•) بيتان من الشعر للمهندس كامل جودة ابن خالة الشهيد ناجي جمعة سرحان

ثم زفرت شهقة من داخلها كأن روحها تخرج من فمها من وراء دموعها، قائلة:
- نستطيع أن نطلق على ناجي وأمثاله شهداء الإنسانية الذين لهم أجرٌ أعظم من شهداء الحروب آلاف المرات، انتظرت لحظة، سرحت فيها حيث لا يعلمون أين، استطردت بوجد فاقت حرقة دموع الفراق بين حبيبين:
الحروب لا إنسانية حتى لو كانت أسبابها إنسانية. أما إذا جئنا إلى بقية الحروب غير المنطقية نجدها ظالمة، محرمة، لا يخرج منها أحدا فائزًا، المنتصر يكون فيها أيضًا خسرانا، تابعت وأطرافها باردة ترتعش من شدة الانفعال والتأثر:
شهداء الحروب غالبًا ما يموتون مجبرين من أجل أن يبقى الكايزر حيًا مستمرا، لا دخل لجولات وصولات وشعارات الوطن الكاذبة داخل برامج تلك الحروب المعلنة المتعدية، كلا طرفي النزاع المتحاربين، المتصارعين يقولان بعنجهية مهدمة أن الله معهما، كل كايزر يصرخ بهبل كاذبًا، الحق معنا، النصر حليفنا والله بجانبنا، المصيبة، أن العدو أو الطرف الآخر في الضفة الأخرى يقول الكلام ذاته، يردد نفس الإدعاءات، لا يذهب بعيدًا ولا قريبا، ثم يوصم غريمه بأنه ليس عدوه فقط بل عدو الله كذلك ككرامات لوجه سبحانه صاحب العزة الذي هو أرفع وأسمى وأعظم وأنقى من أن يكون حوار بين كايزرين لا يعرفانه في كل الأحوال والظروف. في حين ناجي وأمثاله الذين ضحوا ويضحوا بحياتهم من أجل انقاذ أخيهم الإنسان لا تساورهم الشكوك في إقدامهم على فعلهم، بل لحظتها لا يفكرون إلا بحياة الآخرين وكيف ينقذوهم حتى لو أصبحوا هم أنفسهم ضحية، أفعال هؤلاء لا يمكن وصفها أو شرحها، لم يخلق شاعر أو فنان يستطيع أن يجسد عمل هؤلاء أو رسم صورة الفداء الذي قاموا به، تضحيتهم خالصة كتضحية الأنبياء من أجل رسائلهم التي أوصاهم بها الله، هكذا هم، لذلك، نستطيع أن نطلق عليهم شهداء بحق.
- أنا من رأيك يا عزيزتي، قال ذلك آدم وهو يمسح دموعها، قبلها من جبينها، متوسلاً بها، يرجوها أن تهدأ.

• • • •

بعد أن هدأت ابتسمت بحزن، طفلة بعمر وطبيعة أنهر لا تستطيع إلا أن تفعل ذلك!. قلبها الرحيم الطيب لم يتحمل مأساة ما حدث لناجي الذي هو من طائفتها، ضحى بنفسه من أجل أطفال جيرانه وهو يعرف بأنهم ليسوا من ملته، الموضوع أربكها، عصرها، جعلها تعيد النظر بأمر الأخوة، إذن هي موجودة، حالة متأصلة بذات الإنسان لا يمكن لها أن تختفي أو تزول لأن العالم متعدد الأديان ويتطور، أو يتجه نحو العلم أكثر من الدين، وإن اتجه نحو الدين فأسلوبه المتخذ خاطئ، الدين أخلاق قبل أن يكون اعتقاد، أو عرف، أو تقليد. الشكل، أو الهيئة لا دخل لهما في جوهر الدين، حب الله غير أن الله هو الذي يختار من يحب. لا يمكن أن تكون أنت راضيًا على عز الجلالة، المهم أن يكون هو راضيًا على أفعالك وتصرفاتك، وقتها تكون مؤمن بحق، وما فعله ناجي يدخل ضمن هذه المعادلة دون جدل، لذلك بكت أنهر بحرقة، تألمت من ضلوعها. التقطت يد زوجها، رفعتها إلى شفتيها، قبلتها بصمت، قبله دافئة، أفرغت فيها شحنة حزنها المفاجئ على ما سمعته. تجددت طاقتها بسرعة خاطفة مذهلة، شخصيتها تساعدها على فعل ذلك ببراعة وبراءة، خطفت نظرة من أخيها تسأله بحماسة غير متوقعة محاولة منها أن تغير مسار الحديث وترجعه إلى أصله الذي بدأه آدم بسرد قصته القصيرة. كريم ساكنًا، سارحًا كأنه في كوكب آخر، معجبًا بأخته وهي تدافع عن كتابات زوجها بشجاعة، استغرب لها ولطاقتها وحبها الصادق غير المحدود له:

- ما رأيك أنت يا كريم بما سمعته؟ ألست على صواب في تفسيري للقصة وما ذهبت إليه؟

هز كتفه، ابتسم، همهم مثنيًا على كلام أخته:

- على رسلك، لقد أفحمتِ الرجل بكلامك الحاسم القاصم الصميمي، تحسر للحظة، أردف بعدها منطلقًا في الحديث:

طبعًا عندكِ حق، صحيح رغم هول الواقع، لكن للمسألة عدة شقوق، مستقبل مخيف علينا أن نعي له ومجابهة أخطاره، ستقع كارثة إنسانية محتملة الحدوث، ولو حصلت لانقرضت طائفة بكل ما لها من دين وتاريخ وتراث وأصول وجذور وتأثير، الأجيال القادمة إن لم يتداركوا الموقف ويحسنوا التعامل معه بعقل ودراية لانتهوا وانقطعت أنفاسهم دون أن يسمعهم، أو يولي اهتمام إليهم أحد، كما يقال، لا

يحك ظهرك غير أظفرك. ما نطق به آدم رائع جدًا بكل المقاييس الأدبية الحياتية، قصة ذات قيمة إنسانية عالية الجودة. أرى فيها البلاغة، التكثيف، الاختصار والذهاب إلى الهدف دون اعوجاج. توقف لبرهة كأنه يجس وقع كلماته وتأثيرها على آدم، تابع بحماس منقطع النظير:

لقد تحسنت كثيرًا كما أرى، هناك تقدم ملحوظ في كتابة القصة القصيرة، أتوقع أن يكون لك في المستقبل شأنٌ، مكانٌ مرموقٌ محمودٌ في الأدب العربي، اسمع: ما يحتاجه المجتمع الإنساني اليوم هو هذا ما تكتبه بالضبط. دعك من الغزل والشعر والكلام المنمق المزوق، الناس بحاجة إلى توعية مباشرة، اللغز والرمز سيحل وقتهما مجددًا ربما، مشاكلنا الآنية كلها من الوزن الثقيل كوزن الفيلة، لا تنفع ولا تشفع معها الإشارة والتنويه، اليوم نحن بحاجة إلى إعصار، هزة عصبية، شحنة كهربائية ترجنا من مكاننا، تجعلنا نستفيق مما نحن فيه، هذا في نظري ما عليك أن تركز فيه وتتخذه أساسًا في عملك الكتابي وأنا أضمن لك نجاحك وستكون من الفالحين. عليك أن تضع يدك على مقدار ونسبة تطورنا، وتسأل نفسك، هل هذا هو ما نحتاجه؟، هل ما نفعله صحيح؟، بعبارة أوضح، هل هذا التطور هو المرجو؟ هل هو غايتنا؟ ما مقدار الحق فيه؟ فكر ثم أجب على كل هذه الأسئلة بأدب محكم لا يسعى إلا إلى التغير الجذري الذي يقلب موازين القوى، قد تسألني أن أكون أكثر تحديدًا ووضوحًا، أذكر لك مثالاً يسهل عليَّ ما أريد شرحه، كان الرجل يضرب امرأته قبل أن يعاقر الشرب، هذا يعني يضربها وينهرها وهو بوعيه، عقله شاهدٌ على ما يفعله، بل هو الذي يشير إليه بأن يفعل ذلك الإثم المنافي للأخلاق والأعراف والدين، ماذا يحصل اليوم؟ أقصد، كيف تطور رجالنا؟ أقول لك، بدأوا يضربون نساءهم بعد السُّكر!، ليقولوا فيما بعد بمكرٍ ذليلٍ وخُبثٍ كبير بأنهم لم يكونوا في وعيهم ساعة حدوث الإثم!. تلاعب بالمشاعر والألفاظ، استهزاء بالقيم، وفي نفس الوقت تطور إنساني من نوع ما حسب شريعتهم!، ترى ما الذي اختلف هنا؟، لا شيء، الفعل ذاته مضافًا له شناعة الكذب والتصرف. لأنه في حالة سُكْره ينسى نفسه، لا يعلم من أمره شيئًا، لا يعرف مقدار الإهانة والعذاب والألم الذي يسببه وهو في حالة هيجان أعمى واضعًا يديه على خاصرتيه بعد استراحة من الضرب كمصارع الثيران ناظرًا إلى ضحيته يتفرس بها مفكرًا من أين أبدأ جولتي

الثانية في الصراع؟!. هل تحسب هذا تطور؟ هل تتوقع أن يصيبنا خيرًا ونحن نفكر بهذه الطريقة الشيطانية؟ ومن ثم لماذا يفكر المرء بإلغاء عقله عمدًا والأخير زينة الإنسان كما يقال ؟! أتوقع ببساطة شديدة مختصرًا كل ما أريد شرحه بكلمتين اثنتين: سيكون للعلم في العشرين أو الثلاثين سنة القادمة مساوئ فادحة، مرعبة، شيطانية تفسد عقول الأطفال قبل الكبار وتجعل الناس يهذون وهم نائمون، يتحدثون مع أنفسهم لا يعرفون بأي اتجاه يسيرون. هذا ما أردت نقله وشرحه. تنحنح ثم أضاف متشجعًا:

همتك معنا يا بطل، حضّر لنا بعضًا منها وادبجها جيدًا لتقديمها إلى المحامي بغية ترتيب أوراق لجوئكم على أنكم كنتم من المعارضة المثقفة، أصحاب الكلمة وهذا ما جعلكم تهربون. قاطعته أنهر متسائلة بحسم وحزم:

- هل صحيح ما تقوله؟، أقصد، ما سيكتبه آدم يكون له دور في قبول لجوئنا؟.

- طبعًا. بأقدس ما أقدّس أنا لا أمزح يا دميتي. زوجك سيكون سببًا مباشرًا مقنعًا لحصولكم على أوراقكم وبسرعة غير متوقعه، هذا ما أراه ماثلاً أمامي وما سيؤكده المحامي كما سترين. مال نحو أخيه الغافي يلكزه بقوله بأبهة ورقة كادت تكون عاطفة أبوية بعد أن رآه لا يشاطرهم الحديث:

- ما لك يا كمال لا تشاركنا الرأي؟ ثم استطرد منفعلاً على حين غرة: بعض الناس يفكرون رغمًا عنهم!، كيف يفكرون وبأي طريقة يتصرفون ويبدعون؟، لا نعلم، ربما الشيطان وحده يعرف، المهم، علينا أن لا ننخدع، أن لا نوهم أنفسنا بطلاء النوايا، اللؤلؤ لا نجده على السطح طافيًا، تدخل كمال بعد شوط طويل من الصمت والسكون بشكل مباغت غير متوقع مقاطعًا حديث أخيه:

- كيف يعني؟. استغرب كريم من سؤاله غير الواضح، قال:

- ماذا تريد أن تعرف؟

- اللؤلؤ الذي أشرت إليه!.

- ما به؟

- أين نجده إذا لم يكن على السطح طافيا؟. أراد كريم أن ينفجر ضاحكًا، وجد تصرفه سيجرح مشاعر أخيه، كظم ضحكته، خنقها، كبحها، أجاب:

- أن تنزل البحر، تبحث عنه حدَّ قاعه، هذا ما قصدته، إذا أردت شيئًا عليك أن تغوص حتى الأعماق، هناك ستجد كل ما تبحث عنه وبشكله الطبيعي الحقيقي دون ألوان.

- آه. فهمت، ناح مستشهدًا ببيت كان غالبًا ما يردده بمناسبة وبدون حفظها منذ أيام المدرسة فتعلق به " من طلب العلى سهر الليالي " .

برقة لها وقع حبات المطر على أوراق الشجر :

- بالضبط. هذا ما أردت قوله، أحسنت يا صديقي الوسيم.

ضغطت أنهر على يد آدم، شعر بانتعاش الأخير برغبة في حضنها وتقبيلها لكنه أحجم مكتفيًا بالابتسام. أكتفى كمال بالتحديق كمحروم من العقل وكأن الأخير لا ضرورة له، شقاء لابد من تجنبه، تفرسهم بصمت، بنظرة متفحصة مرتابة، أرجع رأسه إلى الوراء حتى صفق مسند المقعد محاولاً النوم وهو يتثاءب فبدا لهم وكأنه شخص غيران أو حاسد لا يطيق رؤية آدم ولو للحظة. طن ورن الشيطان في داخله وازًا يزفر : حياتك أم آدم، أيهما تختار ؟. تصرفه كان يجسد تشابه الرجال في الطبائع تشابه الخراف في أشكالها وهم من حيث لا يدرون أو يدركون.

obeikan.com

(٢٠)

كثيراً ما نرى مبانٍ جديدة قد شُيَدت، تناطح السحاب في ارتفاعها، لكن، خيالات العقل مازالت عتيقة مستبدة لا تحب من جوهرها غير ماضيها. الزمن حياتنا، أيامنا التي نحياها، إن لم نقدر على سبقه نكون معه على نفس السرعة نسير في أقل تقدير. الإنسان لا يتعلم من الكتب فقط والمتحدي غير السياسي

عند الفجر دخلوا شقة كريم الأرضية. كانت ركنًا من التقاء شارعين فرعيين، ما أن تعبر رصيف أحد الفرعين المتقاطعين حتى تواجهك حديقة غناء كبيرة كالغابة في مقدمتها كنسية تلك التي تحدث عنها كريم مرة عندما كان معهم في بودابست وعبر عن رغبته غير الصادقة بأنه ينوي ويتمنى تحطيم أجراسها لقربها من شقته وما تسببه من ضوضاء قاتلة أثناء قرعها لأجراسها. لا شيء في الشقة غير عادي ما عدا أبوابها الداخلية التي حرقت في بعض مناطقها عن قصد لتظهر وكأنها قديمة أثرية بلا طلاء، كانت فعلاً تلك الأبواب منظرها غريبًا توحي على الشفقة!، ممر ضيق يفصل المدخل عن غرفة الجلوس الموجودة على يمين الشقة وقبلها غرفة صغيرة كالكهف حوّلها كريم إلى ورشة للصياغة، أكلت منها الطاولة ثلاث أرباع حجم الغرفة، تبعثرت على سطحها بلا رحمة بشكل ملفت غير منظم عدّة الصياغة القديمة التي تعاني مرض الصدأ، لا نعرف من أين أتى بها ؟، يجلس ميزان هوائي على طرفها من اليمين كالذي يستخدمه الصيادلة قبل قرن من الزمان. ثم الحمام المغروس في ركن ضيق من غرفة الجلوس مطل على الشارع، بعد غرفة الجلوس يأتي المطبخ الواسع ثم فسحة صغيرة مرتفعة عن سطح المطبخ قرر كريم اسدالها بستائر لتكون غرفة نوم أنهر وآدم. من المطبخ يطل شباك خشبي أحمر على باحة البيت الوسطية التي تتجمع فيها أثناء النهار أنواع مختلفة من الطيور. كانت مهرجان بهجة عظيمة لأنهر، جعلت من شرفة الشباك مكان لقاء بين العشاق، محبة

متبادلة، لذة لا يمكن وصفها، جمعتها مع من تحب وتعشق من عالم الطيور البريء الحر.

• • • •

لم يشأ كريم أن يهتف لكاترين صديقته ويوقظها من نومها ليخبرها بوصولهم. الساعة كانت تدنو من الخامسة والنصف، برودة الليل كانت تلسع، الفجر رطب، والضباب منتشر كلوحة بيضاء خرافية لا تصدقها العين. لو كان واتصل بها مجازفًا لحلت عليه اللعنة، لأكلت قلبه نقًا، هو يعلم هذا جيدًا ويعرف ما ستقوله، ستبقى توبخه عامًا كاملاً، ستعيد عليه اتصاله لها في ساعة مبكرة من فجر لم يستيقظ بعد في كل مناسبة، ستنهره بقولها دون ملل، أو كلل كعفريت نشط لا يحلو له إلا النط:

ألم تفكر بابننا نديم؟ ماذا سيكون حاله لو سمع رنات الهاتف في وقت كهذا؟! هل تعلم ماذا ستكون عليه حالته النفسية طوال اليوم، بل الأيام التالية كذلك، سيقلق، سيشعر بعدم الأمان، ربما نحتاج إلى عرضه على دكتور نفساني، إن الصوت المفاجئ أثناء نوم الطفل أكثر قسوة من المرض وأشد إيلاما، هل فكرت في كل هذا قبل أن تفكر بالاتصال؟!. وهكذا كان يردد على نفسه فيما لو اتصل بصديقته، فقرر الصبر والانتظار حتى يطلع عليهم النهار.

وزع عليهم أماكنهم كما خطط لها قبل وصولهم. كانوا متعبين بشكل مفزع لا يطاق خاصةً كريم. بدا عليه التعب حد الإغماء، يتحدث متنقلاً من هنا إلى هناك وهو يترنح بمشيته كالسكران. انتبهت عليه أنهر، نصحته بالاستلقاء والنوم وأن لا يفكر كثيرًا بهم، قالت له متداركة الموقف:

- كل شيء سيكون على ما يرام، لا تقلق علينا، نحن كالقطط بسبعة أرواح، نم أنت واترك قضاء نهارنا على كيفنا، ثم مازحة باقتضاب: ما هذا؟ تعاملنا كأننا ضيوفًا كالغرباء!، نسيت تمامًا بأننا قادمون من بلاد الشمس، وطن الطاعون الذي لا يرحم، خبرنا الحياة، أقصد، الظلم، فلم نعد نتكدر للقلق أو التعب أو الإرهاق، نرى في ذلك متعة، لذة روحية لا يمكن الاستغناء عنها، خاصة في أوقات كهذه!، لذلك،

أناشدك الله وأطلب منك باسم الأخوة أن تتركنا وتذهب لتستلقي، لتنام كم ساعة قبل أن تخرج علينا الشمس فتوقظنا.
قاطعها مستلهمًا وهو يقربها منه، يحضنها ومن جبينها يقبلها:
ـ الفسحة ذات الستائر بجانب المطبخ لكما، أنتِ وآدم. غرفة الجلوس ستكون لنا أنا وكمال، ثم بصوتٍ خفيض منهكًا أردف: كل شيء جاهز، الفرش الأسفنجية، البطانيات، الوسائد والشراشف. في هذه الأثناء كان آدم وكمال قد قاما بمد الأسرة وفرشوها، جهزوا كل شيء بهدوء غلبه التعب والإرهاق. لم يتوان كمال، استلقى على أحد الأسرة الممدودة على الأرض وغط في شخير يسقط الطائر المحلق في سمائه، كان هذا سبب ضحكهم قبل نومهم، لحظات حتى ساد الصمت الحياة داخل الشقة، إلا من طلقات الصفير التي كان يطلقها كمال بانتظام إعلانًا منه على أنه غارقًا في سابعة نومه.

• • • •

عند العصر رنَّ جرس الباب بشكل متواصل يعلن عن حياته، مازال على قيد الحياة يرن. فتح كريم الباب بتثاقل وهو يتثائب ليفاجئ بصديقته كاترين وابنه نديم الذي نط بقفزة واحده على كتفه يقبله لأشتياقه وبعده عنه خلال الأيام الماضية التي خلت. تشبث به ابوه، قبله، حضن كاترين وهو يرحب بهما ويدعوهما للدخول.

استفاقت المجموعة على حركة ودبيب نديم وهمسات أمه، أنهر كانت أول المستقبلين. التقطت جابر من على كتف أبيه طائرة من الفرح، سألته عن اسمه بالعربية، أجابها بالتواء واضح في اللفظ خاصة عند تحويله حرف الجيم إلى كاف، اتجهت إلى كاترين، حضنتها وهي تقبلها، تجاوبت معها الأخيرة بحنية خالصة، وجدتها قطعة من حنية، شعلة من ضياء، وهجًا من مشاعر فياضة، أحبتها أنهر من الوهلة الأولى، عرَّفتها بنفسها، سألتها عن آدم وكمال، حضرا بملابس النوم، تعارفا بسرعة، كريم انشغل بترتيب غرفة الجلوس ثم تبعته أنهر وهي تحمل نديم الذي لم ينزل من حضنها أشبعته قبلات حارة ملتهبة وهي تناغيه، تضحك معه وتحدثه بالعربية التي لم يفهم منها الكثير.

عند العشاء كانت جلستهم عائلية حميمية بحته، استغربت أنهر من نهج كاترين وتواصلها معهم بروحية تفاجأت منها، كانت تتوقع العكس، كأن تكون متكبرة، أو مغرورة، أو حتى طائشة، وجدتها نافلة، كتلة من المشاعر الإنسانية الصادقة، حب على وجد، وخوف عليهم ليس له قرار. أحبتها من الوهلة الأولى. كمال ظل الوقت كله يحاول أن يساهم في الكلام باللغة الإنجليزية ولم يقدر، أتعبه التلكؤ، تضايق من الترجمة التي يطلبها من آدم أو أخته، فضّل الصمت ولاذ به.

نظرت كاترين إلى ساعتها، وجدتها تجاوزت الثامنة مساءً، انتفضت، طلبت من نديم أن يرتدي حذائه، بصلابة وحسم، قالت:

- تأخرنا. لابد من الذهاب الآن، نديم سيصحو غدًا مبكرًا وقبل ذلك لابد أن يغتسل ثم ينام. نهضت، وكان ذلك نذيرًا واضحًا، حاولت أنهر استبقاءها على طريقتها الشرقية، كاترين لا تعرف ذلك، قرار عودتها إلى بيتها قانون صارم لا يقبل النقاش ولا المقايضة أو المساومة. تدخل كريم ملاطفًا لمعرفته السابقة بطبع صديقته، قال ضاحكًا:

- كل شيء إلا هذا، وتابع غامزًا أخته: يجب أن نحترم الآراء!.

- طبعًا، لها ما تريد، كنت فقد أحب أن أبقى فترة أطول مع نديم، هذا العفريت الجميل، تعلقت به، لا أريد تركه، بل لا أحسن على تركه، لهذا طلبت منها أن تبقى لفترة أطول. قالت أنهر ذلك وتوجهت للحديث مع كاترين: لا تعتقدي بأني أجبركِ على شيء، بل من باب الحب فقط. يمكننا أن نلتقي غدًا، أليس كذلك؟

- بالتأكيد. ثم بعد وقفة قصيرة كأنها تتذكر شيء ما غاب عن بالها: ما رأيك يا كريم أن نتعشى غدًا كلنا في بيتي؟. عند العصر سأكون مع نديم في المسبح، هو يتعلم السباحة بسرعة خارقة، هذا يجعلني سعيدة جدًا، ثم بعدها أكون في انتظاركم. استغرب الهاربين الجدد من قول كاترين، وجدوه كالخرافة، خيال لا يصدق، الطفل مازال لم يتعد الخامسة وتعطيه دروسًا في السباحة!، كان الموضوع جديدًا عليهم، نظرت أنهر لزوجها نظرة استغراب ودهشة، كمال لم يفهم كثيرًا مما قيل، لكنه عرف بعد أن ترجم له آدم ما سمعه، صفق يديه دلالة الحيرة، همس في أذن نسيبه، سنعيش ونرى أشياء عجيبة مثل أساطير العرب القديمة. لم يتردد كريم، ترجم لهم ما قالته عن دعوة العشاء، آدم عبّر عن شكره وموافقته ثم تبعه كمال وأنهر التي

انكسرت دمعة على خديها متأملة، راجية تدعو ربها من صميم قلبها أن تكون أيامهم القادمة فيها حياة وانبعاث وتجدد من بعد موت وجفاف واعتكاف.

• • • •

ما أن خرجت كاترين وابنها وصفق الباب وراءهما حتى لحقها كريم ضاحكًا فبانت أسنانه كلها بيضاء شابة تلمع كاللؤلؤ وهو يدعوهم بوجه مسرور ينم عن غبطة كمن فرج عنه بعد حبس طال سنين، بقوله:

- من يرغب منكم بأن يأتي معي؟. نظرت أنهر لزوجها بوجه بشوش ساحر الفتنة طافح بالجمال مورد الخدين مستفسرة:

- ما رأيك أنت يا آدم؟

- علينا أن نعرف أولاً إلى أين؟. نطّ كمال واقفًا وسطهم معلنًا عن موافقته دون أن يعرف الهدف. كريم لم يكن يرغب كثيرًا بالحديث لحظتها، طفق مقتضبًا:

- إلى أي نادٍ ليلي أو "بار" ألتقي بأصدقائي نحتسي فيه شيئًا وأعرفكم على بعضهم.

آدم دون تردد أعلن عن رفضه للفكرة، تبعته أنهر معتذرة بأن مثل هذه الأجواء لم تخلق لهما. فضلا البقاء في البيت وقالا ربما نتنزه قليلاً في شوارع المدينة.

- بشرط أن لا تبتعدا كثيرًا. نبر كريم بتلك الكلمات دون أن يشعر بانزعاج لرفضهما. طلب من أخيه أن يجهز نفسه خلال دقائق ليخرجا.

• • • •

سهم آدم فجأة، شعر بحرقة في داخله، صوت من بعيد يناديه كأنه من قاع بئر عميق يصله، سألته زوجته عن سبب شروده وتغير لونه، قال بعد تردد:

- ما رأيك يا أنهر أن نتصل بالأهل؟، ثم سكت. تلعثم لسانه، اختنقت الكلمات في فمه، أبت أن تتدحرج، تابع بصعوبة كمن سيشهق بالبكاء: اشتقت إليهم كثيرًا، أشعر برغبة محمومة للحديث مع الوالدة، نستطيع كذلك أن نتصل بأهلك ونتكلم معهم. شكرته بنظرة، أخذت يده، فركتها بحنية، أشارت:

- كنت سأقول لك ذلك. هيا، لنذهب، ماذا تنتظر؟ ألم تقل بأنك تريد سماع صوت أم نصير؟ أشتقت لها كذلك، عمتي وأعرفها، ما أن ستسمع صوتنا حتى تبربر باكية، نادبة حظها، ومع ذلك لابد من الحديث معها.

في الطريق استغرب آدم الأجواء، وجدها باردة الحركة، مقلقة، غير متجانسة، خالية من البهاء والسناء الذي كان يتوقع رؤيته، هذا ما أحسه من الوهلة الأولى عندما أصبح في الشارع الرئيسي الذي تشقه سكة حديد غير ظاهرة على السطح، مغروسة في الإسفلت وهو بصحبة أنهر. على طرف الشارع الرئيسي شاهدت هاتف عمومي، استعجلته عندما رأت في عينية لمعان يسبق ترقرق الدموع المحبوسة، ضحكت والعبرة تخنقها:

- مالي أراك مترددًا؟ سأغير رأيي لو بقيت هكذا جامدًا، أنا مشتاقة لأسمع صوت أبي، ثم تذكرت أمها بدرية، أرتج داخلها بالذكريات الأليمة التي عاشتها واقعًا بين ظلمها وقهرها، أردفت بعد وقفة تأمل قصيرة: قد أستطيع أن أتحدث مع أمي كذلك.

تصالبت أيديهما وهما يسيران جنبًا إلى جنب بشوق محموم نحو " كابينة " الهاتف العمومي الصفراء المنتصبة بشموخ كتمثال للجندي المجهول على حافة الرصيف الذي يلمع.

كان ضوء الكابينة أبيض باهت يميل إلى الصفار والزراق، خافت كأنه حلم في لوحة سرمدية. رفعت أنهر سماعة الهاتف، وضعت ثلاث قطع نقدية معدنية من فئة خمسة مارك، ضغطت على أرقام تخص عائلة عمتها والدة آدم، فضّلت أن يكون الاتصال أولاً بأهل زوجها، سمعت من الطرف الآخر من الخط صوت ظفر زوجة مروان شقيق آدم يلعلع كعادتها كأنها تشهق:

- منْ هناك؟

- هل مازلت ملهوجة وتصرخين عندما تتحدثين؟

- ههه. ههه. ههه ثم تابعت عائطة دون معنى كشخص خرج عن طوره، فاقدًا رشده وصوابه: منْ أنهر؟

بهدوء رحيم يسكت الأطفال في عز نوبة بكاؤهم، يثير الجدل:

- كيفك يا ظفر؟ ما أخباركم؟

- الحمد لله، كلنا بخير، مشتاقين لكما كثيرًا، من أين تتحدثين؟ صوتك بعيد بالكاد يسمع، ثم أردفت مصطنعة التحفظ:

- مروان زوجي الحبيب يسلّم عليكما، يقول ويردد هذه الأيام: لقد نفدا بجلدهما. لم تشعر ظفر بأنها قالت كل ما تريده، واصلت مؤكدة كامرأة تافهة تغطي أصابعها خواتم مفصصة بأحجار رخيصة غير أصلية: مروان في قوله الأخير يقصدكما طبعًا، وأنا هنا لا أريد أن أفصح عن المزيد، ثم ختمت نفاقها: الدار ليست أمان، وقهقهت على عادتها دون سبب وجيه يدعوها لفعل ذلك.قهه. قهه. قهه، ثم قلبتها إلى كركرات تهتز لها بطنها، ها. ها. ها.

- عجيب أمرك يا ظفر، لن تتغيرين. أحدثك من مدينة هانوفر الألمانية حيث يقيم أخي كريم، واصلت والخوف يسيطر عليها ويلتهمها: أقلقتِني عليكم؛ لماذا يقول مروان ذلك؟

- هه، ثم شاهقة ناشجة كمن كتب عليه النحس وهي تضرب صدرها بيدها: طبول الحرب بدأت ترتفع أصواتها، نسمعها في كل لحظة، هناك من يقول بأن الحرب واقعة لا محال.

أرادت أنهر أن تغير سير الحديث كيلا يسمع آدم ما ورد من تخوف وتصريحات بشأن المنطقة، قالت برجاء:

- هل يمكن لي أن أتحدث مع عمتي؟. لحظة ثم رنَّ صوت والدة آدم بلهفة محفوفة بالحب والتوجس:

- نعم يا حبيبتي أنهر. أين أنتما الآن؟. ما أخبار آدم؟ أرجوكِ حدثيني عنكما، لا تتوقفي، أسمعيني صوتك الدافئ الحنون، هل آدم بقربك، أحب أن أسمع صوته، ثم سمعتها تبكي، تنتحب دون إرادة منها.

حاولت تهدئتها بقولها:

- عمتي، حبيبتي الغالية، لا تقلقي علينا، نحن بخير. وإذا لم تتوقفِ عن البكاء لن أعطيك آدم تتحدثين معه، ها. ما قولك؟

- حسنًا. توقفت عن البكاء، فرحتي بسماع صوتكما جعلني أذرف الدموع دون قصد مني، أنا سعيدة لأنني أطمئن عليكما، باغتتها: أين آدم؟.

ناولته أنهر سماعة الهاتف. حاول أن ينطق ولم يقدر، تعثرت الكلمات في حلقه، سمع صوت أمه وهي تنادينه:

- آدم. آدم. أسمع لهاثك وأنفاسك، ما لك لا ترد؟ أنا أمك يا حبيبي، قل لي كيف أنت؟ ماذا تعمل عندك؟ هل مرتاح؟ أمنيتك كانت تحقيق أحلامك؟ هل صبوت لما كنت ترغب؟ عندما بكيت ولطمت وجرحت خدودي ساعة عرفت بأمر رحيلكما كنت مخطئة، ها أنا أقول ذلك بعظمة لساني، نعم كنت مخطئة، خوفي على أخوتك مجيد ومروان وحتى نصير يزداد كل يوم، تورم خوفي عليهم، الجميع هنا يصرخون بالحرب وكأن الحرب خلاصهم الوحيد. قراركما بالرحيل كان موفقًا، صحيحًا، وربما حاولت أن أرسل أخوتك ليتبعوا أثرك في أول فرصة ممكنة تسنح لهم. خذ بالك على نفسك وعلى زوجتك أنهر.

انسكبت الدموع من عيني آدم كالمرزيب في جو ماطر، ذرفها بسخاء، شعر بأن قلبه ينقبض، روحه تغادره، تماسك، ثم رد:

- أمي الحبيبة. نحن بخير. أتمنى أن نجتمع يومًا من جديد. أرجو لكم التوفيق، الاستقرار والأمان. ولم يكمل كلامه، انقطع الخط ودموعه لم تنقطع. أخرجته أنهر من "الكابينة"، حضنته بقوة، لامست كفها كتفه، همست في أذنه كلمات تطمين رحيمة كأنها نازلة من وحي بقرار من رب السماء، هدأت عاصفة عواطفه، تنفس هواءً صافيًا، عبقًا، المساء متأخرًا، النجوم رغم قلتها رصعت قبة السماء كحبات الماس الكبيرة تلمع متوهجة كأن الشمس تضربها بأشعتها فبان منظرها يؤسر، ترتاح لها النفس، يطمئن القلب وتهدأ هواجسه، ثم مباغته سألته ضاحكة متهكمة وهي تغمزه بتلك الحركة المتموجة المتجانسة ذات الوقع الكبير والمؤثر على آدم، يموت فيها ما أن يراها متمثلة، متصورة ومرسومة على وجهها وهي تحرك عينها اليمنى بتوافق خلاب ساحر مع جفنها ورمشها كحركة وتر جيتار يعزف صول(•):

- أراك تزوغ لا تريد أن تتحدث مع أهلي؟

- كيف هذا؟ أريد طبعًا، هيا ندخل "الكابينة".

(•) صول : النغمة الخامسة في السلم الموسيقي

سحبها برفق من معصمها، أخرج من جيبه بعض القطع النقدية المعدنية من فئات مختلفة، مارك وماركين وخمسة، وضعها في فتحة الهاتف، فتح قصاصة الورق التي كانت في يده، أدار الأرقام وأنهر تراقبه وقلبها يخفق بقوة.

obeikan.com

(٢١)

يبقى الإنسان متسلطًا بطبيعته حتى لو كان يمارس تسلطه اللعين على حشرة. فنراه يتلذذ في تعذيبها.

بعد أن تحدثت أنهر أولاً مع أختيها نداء وسارة بشكل مقتضب تكلمت مع أمها التي ظلّت تنوح بصوت عالٍ وتردد كلام البعد واللوعة والفراق والذي منه، حاولت ابنتها تهدئتها بكل وسيلة ممكنة ولم تستطع إلا بطلوع الروح من إسكاتها ثم التحدث مع أبيها الذي أنطلق بالكلام على سجيته وهو يغني لها مقطع من أغنية أنوار عبد الوهاب التي يعشقها "أنا يا طير ضيعني نصيبي". ثم أعرج بسؤاله عن آدم الذي يحبه حبًا صادقًا لا مجال للشك في نقائه، أعطته إياه، رطن آدم معه ببضع كلمات عادية عن الصحة والأحوال وانقطع الخط بعد أن نفدت نقودهم. قفلا راجعين إلى الشقة بخطى متثاقلة بطيئة كخطى من يسير وراء جثمان يتجه نحو مثواه الأخير.

مدا الأسِرَّة في غرفة الجلوس لكريم وكمال وأعدا فراشهما على أتمِّ وجه، اختلا بأنفسهما في المجاز لفترة قصيرة ثم دخلا عشهما الذي أشار كريم بأن يكون لهما، ليس فيه سوى سرير إسفنجي واحد ميت ملقى على الأرض تغطية بطانية ووسادة ناعمة وعلى رأس السرير جلست خزانة خشبية بدرجين صغيرين لا يتعدى حجمها حجم الخنزير المولود للتو استغلها آدم لوضع أوراقه ونقوده وأقلامه فيها وشباك بإطار خشبي له لون البن البرازيلي يعلو قدم السرير مطل على الشارع تقف ورائه ستارة خفيفة مطرزة بالدانتيل جميلة ملفته للنظر لبساطتها ورقتها ونعومتها التي اعجبت بها أنهر كثيرًا حتى سألت أخيها عن مصدرها، قال، جاءته هدية من أحد أصدقائه الفرنسيين.

جلس آدم مقرفص على السرير، أسند ظهره على الحائط بعد أن أخرج ورقة وقلم من الدرج الأول للخزانة الخشبية الصغيرة وبدأ يكتب شيئًا. سألته زوجته:

- ماذا تكتب؟

- رسالة لأمي!

- ألم تتحدث معها قبل لحظات؟

- الكتابة غير الخطابة. ابتسمت أنهر، جلست بقربة واضعة رأسها على كتفه ثم سرحت في عوالم لا يمكن التكهن في أسرارها. بعد سطرين أو ثلاثة سألته بجلستها الحالمة:

- اقرأ لي، ماذا كتبت؟.

- أمي الحبيبة. هكذا هي الأيام، دائمًا تفرق بين الأحباب. استوقفته منتفضة، واجهته وعيناها الخضراوان تشع بريقًا لا يقاوم بعد أن غدت العينين كبيرتين واسعتين كعينيّ مهرة:

- لن ترسل هذه الرسالة، وتابعت بحماس وحسم: هل تريد أن تؤذي والدتك؟ هل ترغب بقهرها؟ ما هذا الذي كتبته؟ أنس، لن ترسل شيئًا. دعهم الآن في حالهم، ألم تسمعهم وهم يقولون بأن الحرب وشيكة الوقوع؟ انسكبت دموعه على خده بغزارة دون قصد، حضنته، همست: لا تعذبني، لا أستطيع أن أراك هكذا متألمًا، أدع لهم بالنجاة، هذا أنجع لهم ولنا.

فجأة سألته عن الوقت، شعرت بأن أخويها قد تأخرا. قال:

- العاشرة إلا خمس دقائق.

- بالي عندهما. ألم تتذكر ما حصل عندما كنا في بودابست حين خرج لنا الغجر المتهورون بالسكاكين؟. كمال أخي وأعرفه جيدًا، شقي، متهور وكأنه يشعر بأن أشخاصًا خياليين يلاحقونه عندما يتحدث مع أحدهم بتوتر، خوفي عليه يزداد في كل لحظة، قلقة جدًا بشأنه، أشعر بأنه سيضيع هنا، هاجس غريب يدفعني لقول ذلك، قد أكون مخطئة، لكن شعور في داخلي عميق يؤرقني ويجعلني أتعذب من أجله، وضع الورقة والقلم على السرير بجانبه، أمسك بيدها، شرع:

- أولاً الوقت لم يتأخر كثيرًا كما تعتقدين، ومن ثم كريم رجل ناصح من هذا البلد إن صح التعبير، حبكِ سبب قلقكِ، يذكرني هذا بخوف أم نصير وأم كمال!. تمددا على السرير، حاولا النوم، آدم طوى ذراعيه تحت رأسه متأملاً، متفكرًا بصمت كصمت الحجر:

"هل ستقع الحرب فعلاً؟، وماذا بعد ذلك؟. ما مصير العراق؟، بل ما مصير الكايزر والأهم الطاعون!، هل سيعالج ويختفي؟ أم سيضاعف وينشط لينتشر بسعة أكبر وقوة أضخم؟. يا الله، أي كارثة ستحل على بلاد الرافدين والمنطقة بكاملها؟!".
نام نومًا متقطعًا ملأته الكوابيس. فزَّت أنهر فجأة على صراخه المرعب وعوائه المتشنج وهو يعيط مهتاجًا بلا إرادة كقطة خائفة محاصرة تدافع عن نفسها من خطر يداهمها:
- لا. اتركوني، لم أفعل شيئًا، لم أوذِ أحدًا، ناشدتكم الله، ماذا تريدون مني؟ اتركوني.

- بسم الحي العظيم. آدم، أرجوك، أعي على نفسك، أهدأ، أقول لك أهدأ، تغير لون وجهها، امتقع بسرعة، منظر حبيبها الهائج الصارخ المتعذب آلمها، ثقب قلبها قبل جلدها، شدّ عقلها، آدم لا يعني لها رفيق دربها وزوجها فقط، بل كل شيء في الحياة. تراه في هذه اللحظات يتلوى شائطًا كسيخم اللحم على الفحم، تابعت توسلاتها التي خنقتها العبرات بعد أن حاولت أن لا يظهر عليها الارتباك، جاهدت أن تكون رابطة الجأش، لكن محاولاتها باءت بالفشل، جاء صوتها مرتجفًا كأنه لعجوز تحتضر:
لا أحد يداهمك أو يركض وراءك، مجرد كابوس، انظر، أنا حبيبتك أنهر، وهذا بيت أخي كريم، ليس هناك من يزعجك أو يلاحقك، انتبه، لقد قلت لك من قبل عندما كنا في الطائرة، ستلاحقك الكوابيس حتى تختفي من نفسها ولا تعود تراها، المسألة مسألة وقت ليس إلا، صدقني يا نور عيني، قبلته من خده، مسحت دموعه، وهرعت لجلب كأس ماء تسقيه.

وعى على نفسه غارقًا بالخجل، اعتراه خزي لم يشعر به من قبل كناسك اقترف ذنبًا، غطاه حتى قمة رأسه، شرب الماء، خفف الماء حرقة بلعومه، جلست قبالته متربعة كما يجلس التركي، سألته:
- كيف تشعر الآن؟

- أحسن، ثم أردف منكسرًا: أنا آسف. لم يكن قصدي أن أعذبك. هذا الأمر ليس في يدي. كانوا يريدون قتلي، أو شيء من هذا القبيل، حاولت أن أركض، أن أهرب، لم

تسعفني ساقي، تثاقلاً فجأة وكأنهما محملان بأثقال، قاطعته، لم تجعله يكمل كلامه، وضعت يدها على فمه برقة، مداعبة:

- لا عليك. تعيش وتأكل غيرها!. ابتسم، أخذ يدها، فركها كما يفرك المؤمن خرز مسبحته، طفق: ألم يصلا بعد؟. ارتعبت أنهر عندما تذكرت أخويها، نهضت كمن فقد رشده، قالت:

- لم أسمع صوتهما. بماذا تنصحني؟ ثم سألته عن الوقت.

- الثانية عشر إلا ربع، وواصل: ليس في وسعنا أن نعمل شيئًا سوى الانتظار. ضغط على زر المصباح الموجود في الممر، رجع نحو نافذة عشهما المطلة على الشارع، لم يكن هناك من ثمة حركة، الظلام كان قد استحل المكان، تراجع، قال: لنجلس في غرفة الضيوف وننتظر قليلاً، ربما يطلان علينا في أي لحظة.

سبقت حركاتهما صرير الباب، فتح، دخل كمال ثم تبعه أخوه يترنح.

استقبلاهما راكضين، حضنت أنهر كريم، ارتعبت عندما رأت قميصه مدعوكًا ممزقَ الأزرار، أدخلته غرفة الجلوس، ساعدها زوجها بهدوء، ناح كريم ضاحكًا ملتوي اللسان:

- ها. ماذا فعلتما بغيابنا؟ تركناكما كي تأخذا راحتيكما على كيفكما!، ثم غامزًا آدم بمكر: هل قمت بواجبك على أحسن حال؟، أزعل عليك إن كنت لم تفعل ذلك!. قهقة كما يقهقه الجنرال، ها. ها. ها.، استمر متلكئًا تتدحرج الكلمات من فمه بصعوبة وبقوى منهوكة: أراك يا بعل أختي شيخًا تقيًا لا يقرب زوجه وهي حلاله!، شهق ثم سكت. كان متخدرًا، لا يعي ما يقول كشخص يهذي نتيجة حمى أعمته، أو يهرف للوثه أصابته. لم يرد عليه آدم، اختار الصمت، قول مثل هذا لو تفوه به شخص آخر في ظروف أخرى لما سكت عليه. أنهر انهضمت، خفضت رأسها الصغير الجميل خجلاً وقهرًا، رأت في قول أخيها تصريحًا مفضوحًا أقرب إلى الشناعة، لا يجوز طرحه وكشفه على سبيل الدعابة هكذا أمامهما بشكل مقزز يقشعر له البدن. وجدت بأن حرية التعبير ليس هذا التي تطمح أن تراه أو تحلم بأن تحققه أو تعيشه. الحرية الفكرية لا يمكن لها أن تكون إحراجًا وجرحًا لشعور الآخرين. كذلك قالت تحدث نفسها متدفقة في همسها ومناجاتها كأنها تقرأ في كتاب مفتوح: كيف يمكن لكريم أن يتفوه بمثل هذه الكلمات البذيئة التي تخدش الحياء وهو يقيم في أوروبا منذ قرابة ربع قرن؟ هل هذا كل ما تعلمه وتطَّبع به؟ مسكين لو كانت النتيجة هذه!. انزلق من

أياديهما، تمدد بملابسه على سريره المعد والمرتب قبل أن يصل، ثم غطَّ في نومه شاخرًا.

اتجهت أنهر لكمال تسأله. كان الأخير مخطوف اللون ساكتا، متكدرًا ومهمومًا:

- ما الذي حصل لأخيك؟

بوجه مربد كشخص على جانب عظيم من قلة العقل شرع بكلام لا ذيل له ولا رأس:

- تلاسن مع أحد الأتراك بلغة لم أفهم منها شيئًا، أقصد، لا أعرف على ماذا؟ كنا نشرب البيرة في نادٍ ليلي منشرحين منتشين وفرحين، رقصنا ودبكنا حتى انقصم وسطنا وهدنا التعب، فجأة هب كريم راكضًا نحو أحدهم يطالبه بشيء ما، هكذا تراءى لي الموقف، لم أفهم مما كان يدور حولي، وجدت نفسي على غفلة كأطرش في زفة عرس شعبي، الرجل التركي كان غليظًا سمينًا ويزن ربما اثني عشر باود(•) يرطن بصوت جهوري فاضح، حاول التملص من كريم والهرب فلم يدعه أخوكِ يزوغ وحدث ما حدث حتى تدخل شخصان يحرسان النادي وحالا بينهما، توسلت بكريم أن نرجع، رفض في أول الأمر ثم مثل لرجائي بعدما كدت أبكي من قهري. قال الكلمات الأخيرة وبصره شاخصًا نحو آدم ليعرف إن كان شامتًا فيه، أو في أخيه!.

- لا عليك، قالت ذلك أنهر وتابعت: غير ملابسك، اغسل وجهك ونم. عند الصباح سنتحدث بالأمر. كريم أخطأ. نسي بأننا لا نعرف هنا شيئًا، غرباء تعساء ليس لنا غيره في غربتنا هذه. يتصرف دون أن يعير لوجودنا أهمية، ماذا لو تطور أمر شجاره؟، أين نذهب نحن؟ نسأل منْ؟ الخلاصة، غدًا سيكون لي حديث طويل معه. تصبح على خير.

تركت الغرفة بصحبة زوجها، أطفأت النور، ثم دخلا عشهما الصغير كقلبيهما يجرجران الهم والخيبة مما حدث.

• • • •

(•) باود : يساوي ٨ كيلوجرام

في الصباح الباكر صنع كريم القهوة لنفسه دون أن يوقظ أحدًا. هذا ليس بجديد عليه، عاش ربع قرن من غربته لوحده، ما الذي تغير؟ ها هو يفز كالصل نشطًا متيقظًا يعمل قهوته بنفسه، كانت طريقته في صنع القهوة بدائية لكنه يفضلها، يقوم بتسخين الماء، يوضع القهوة المطحونة جيدًا في كيس ورقي أسمر على شكل هرم يجلسه داخل قمع بلاستيكي مثبت على دورق زجاجي. يصب الماء الساخن على القهوة، ينتظرها دقائق مستفزة، تنزل منساحة بهدوء يثير الأعصاب على شكل قطرات في الدورق، تترسب بقايا القهوة داخل الكيس الورقي الأسمر، يصب لنفسه القهوة التي يعتبرها ألذ من الطعام صباحًا. هذه كانت عادته التي لم يغيرها طوال حياة غُربته.

سمعت أنهر الخرخشة والدربكة التي أحدثها كريم في المطبخ، أيقظت آدم بقبلة ناعمة من وجنته، همست:

- اصح. هذه طقطقة كريم. قم يا حبيبي لنفطر معًا.

تجمعوا حول طاولة قصيرة الأقدام دائرية تنصب وترفع بسرعة البرق كالتي يتناولون أكلهم عليها المصريون الفقراء. لم يتجرأ أحد بفتح باب الحديث لدقائق حتى كسرت أنهر حاجز السكوت وهي تبدو كزهرة الصباح فواحة بجمالها الآسر الأخاذ لا يرى المرء مثله ولا حتى في المنام، بقولها:

- اتصلنا مساء الأمس بعد مغادرتكما بالأهل. صمتت للحظة وهي تزر كمال بالتحدي وتوجه الكلام إليه: بالحق، أمك بدرية تسأل عنك. كانت تموت وتسمع صوتك. قلت لها بأنه في نزهة ليلية مع مدربه كريم!. عليك أن تتصل بها، مشتاقة جدًا، لا تجعلها تتعذب أكثر بسببك.

ارتعش صوته والتمعت عيناه الزرقاوان قبل أن يهم بالجواب، قال:

- لو كنت معكما لتحدثت إليها طبعًا. لكن، سأتصل بها اليوم. لا تقلقي. ثم اختنق بالعبرات ولم يكمل. أنقذته أخته مسترسلة:

- يقولون بأن الحرب وشيكة الوقوع. الجميع خائفون لا يعرفون كيف يتصرفون. حتى بان ذلك من كلام عمتي أم آدم التي كانت رافضة ومعارضة هروبنا أصبحت فجأة تريد أن ترسل أبنائها إلينا متى ما سنحت الظروف لهم. هذا دليل قاطع على أن الأمور تسري بسرعة رهيبة منحدرة نحو الهاوية لا يقدر نتائجها غير الله.

رفع رأسه كريم منطلقًا بالكلام دون تردد حاسمًا قراره:
- هيئوا أنفسكم، سنذهب أولاً إلى المحامي ليستلم قضية لجوءكم، ثم نعرج بعدها نشتري تلفازًا صغيرًا نتابع فيه الأحداث. عند المساء نزور كاترين ونتعشى معًا كما اتفقنا. توقف لبرهة منزعجًا ثم تابع بحزن كأنه تذكر أمرًا مهمًا لابد من طرحه أو التنويه عنه:
كنت دائمًا أرفض أن أشتري مثل هذه الأشياء وكما ترون، لا راديو أملك ولا تلفاز. لا أريد أن أعيش الماضي، هربت منه سعيًا للحاضر. شرقنا لا يحب في الحياة أكثر من الغوص والخوض في التاريخ والنوم في طيات ذكرياته، التراجع سيكون سريعًا وحليفًا لو وقعت الحرب. لكن، اليوم الأمر يختلف، من حقكم أن تتابعوا مجريات الأمور. سأحاول أن أتعود على الأوضاع الجديدة. قاطعته أنهر:
- تقصد، وجودنا فجأة في حياتك وظهورنا غير المحسوب بالنسبة لك!. ضحك ضحكته الوادعة الحنونة، قال:
- لا أخفيك، أنتم جزء من هذه الأوضاع التي أعنيها.
- لو وقعت الحرب ستكون كارثة حقيقية على المنطقة بأكملها. قال ذلك آدم منوهًا وهو يرنو ببصره نحوهم كأنه يقيسهم. ثم ساد الصمت جلستهم من جديد. تناوشت(•) أنهر طرف خيط الحديث من جديد تسأل أخيها بلهجة حازمة لم يتوقع أن تصدر منها وبهذه الجرأة:
- قبل أن نروح ونجيء نريد أن نعرف ما حدث في الأمس!. قالت ذلك وهي تسلط نظرتها وتوقعها على كريم كأنها تثقب مسامات جلده. كريم لم يتعود منذ زمن طويل أن يتحدث معه أحد بهذه الطريقة، أو أن يحاسب على فعل عمله، لم يتردد ولم يخف انزعاجه، نبر:
- لم يحدث شيء. كان لي دين على أحدهم وهو يزوغ عني منذ أشهر. رأيته فجأة في النادي الذي كنا فيه يبعثر نقوده هنا وهناك ولا يسأل فيّ، ذهبت إليه لأسترد حقي وحصل بيننا عراك. صلب نظراته على أنهر وهو يوجه لها السؤال: ماذا تريدين أن تعرفي أكثر من ذلك؟ ها!.

(•) تناوشت : التقطت

وأردف كأنه سمع الجواب منقلبًا على ذاته التي كانت لتوها وادعة مسالمة محبة:
- ليكن في علمكم، لا أحد هنا له شأن في حياتي. كاترين نفسها وهي أم ابني لا تستطيع أن تحد من تحركاتي أو تعنفني على تصرفاتي. لا أسمح بالتدخل، وجودكم هنا مؤقت، ما أن تنتظم أموركم في قضية اللجوء وقتها ستعيشون حياتكم مثلي ولا تسمحوا لأحد بأن يتدخل فيها. قد يكون لكلامي طابع من القسوة أو المباشرة، لكنني صادق فيما أقول دون مراوغة أو نفاق.

- حسنا، فهمنا ما قلته، طفق آدم متدخلاً، وتابع: لكن للموضوع شِقٌ آخر.
- وهو؟ أجابه كريم مقتضبًا.

- نحن، نحن جئنا إلى هنا من أجلك، أقصد، وجودك في ألمانيا وفي هذه المدينة هو كان الحافز للتخطيط والتنفيذ، ولولا ذلك لما كنا هنا. هذا يعني أنت أحد أقوى الأسباب التي دفعتنا للتوجه إلى هذا الهدف. جاءتنا عروض من دول أخرى رفضناها جميعها، أعني، قدمنا على فيز وحصلنا عليها وكان بإمكاننا السفر إلى تلك الدول، فضلنا ألمانيا التي نجهل شيطانها لأنك هنا، فيها موجود، ستكون لنا ظهرًا وسندا، عونًا، تنصحنا، تساعدنا، توجهنا، وربما نعمل معًا ونفتح مشروعًا ما، هذا ما حلمنا به وخططنا له، ثم أتجه نحو كمال يسأله شاهدًا:
- أليس كذلك يا كمال؟ ألم نتحدث عن كل هذا قبل أن نتخذ قرارنا؟

مثل طفل ناعس:
- نعم، هذا صحيح. أؤكد على كلام آدم. واصل آدم حديثه بعد أن سمع رد نسيبه: مما تقدم أسمح لنفسي أن أقول وبالنيابة عن أنهر، ما قلته فيه جزء من الحقيقة وليس كلها، أنت تعرف ذلك جيدًا، ما جئنا إلا من أجلك، وأنت تقول الآن، أنا حر ولست طرفًا في مشكلتكم، تقصد طبعًا، طرفًا في حياتنا!.

بعد تلك الجلسة الصباحية التي تخللتها الصراحة والمباشرة في الحديث إلى أقصى حد ممكن سرحت أنهر في تصوراتها مع نفسها:
"هل يمكن أن تكون حياة الغربة هي التي غيرت كريم إلى هذا الحد؟ أم أن الوهم الذي يعيشه هو الذي يدفعه لأن يتصرف ويحيا بهذا الشكل دون أن يدري؟. كيف يمكن له أن يشجعنا على المجيء إلى ألمانيا دون سواها ثم يقول ما قاله؟ أي تناقض

صارخ هذا الذي غارق فيه؟ لا يرى إلا السطح، القشر، اللون والطلاء. أراه بعيدًا جدًا عن اللب وربما لن يصله. هل سنكون مثله بعد أعوام من هذه الحياة؟ أم نستطيع أن نحافظ على ما في داخلنا من إيمان وأعراف وتقاليد ومبادئ نشعر بأنها كل ما نملك؟!. جئنا مشبعين بالأحلام نتوق لتحقيقها وصولاً إلى أهدافنا، أتمنى أن نكون على حق وما كنا نصبو إليه حقيقة لا وهم. الغريب أن بيته مستحلاً من جميع أصناف الأصدقاء، يأتون ويخرجون في أي وقت يشاءون، ثم يرجونا أن لا نقول لصديقته كاترين بأنه لم يكمل دراسته، بل يطلب منا الكذب على أنه كان يدرس الطبية كما أقنعها بذلك!، أي طبية هذه التي كان يدرسها في العراق؟ ومن ثم لماذا يحاول وصف نفسه أمامها بشيء لا وجود له أصلاً، ما الغاية من ذلك؟ هي تبيع الورد وسعيدة بعملها وحياتها، لماذا نحاول نحن أن نكذب على أنفسنا ونتسلق على أغصان وهمية لا وجود لها إلا في مخيلاتنا؟ ".

تحت ضغط ما قالوه وصرحوا به أمامه طفق كريم مطرقًا يفكر. حاول أن يكون شخصًا آخر على غير ما صرح به إرضاءً لهم. نزولاً على رغبتهم، وشعورًا منه بأنهم على حق ولابد أن يغير من طبعه قدر ما يستطيع حتى تتيسر ظروفهم، يحصلون على الإقامة وحق اللجوء في أقل تقدير. وقبل أن ترفع جلستهم ناح ملاطفًا يسرهم محملقًا بآدم وكمال:

- حضَّرا نفسيكما، عرفت البارحة عندما كنا في النادي بأن غدًا السبت بعد الظهر ستقام حفلة موسيقية على كورنيش قناة "شتش لِندن" الذي لا يبعد سوى بضعة أمتار من هنا. ستشاهدان العجب، تنسيان فيها ماضيكما وبلاد الطاعون الذي أتيتما منه. قال ذلك وابتسامه غريبة شاحت وطافت على شفتيه شوهت وجهه الوسيم.

نبر آدم دون تباطؤ بعد أن فهم المغزى الموجه لهما:

- هل تقصد نذهب دون أنهر؟. تابع دون توقف: أعتذر منك، يمكنكما الذهاب أنت وكمال. هذا لن يسبب لنا أي إزعاج، بل العكس، يجعلنا نشعر بأننا لا نضايقك مطلقًا ولا نقف عثرة في طريق حياتك المعتادة التي كنت تعيشها.

قاطعه كمال بعد أن شعر بالضعف والهوان، أراد أن يكون له موقف تجاه مايحصل:

- يكفي ما حصل ليلة أمس. ليس لي أعصاب تتحمل. لن أذهب إذا آدم وأنهر لا يأتيان معنا.

استاءت أنهر من طرح كريم. فاجأها بالتميز الذي يحمله، ذكّرها بالذكورية الشرقية المتسلطة التي هربت منها وتحلم برؤية النقيض، العدل والمساواة. لكن أخوها كان قاسيًا، لم يراع مشاعرها ولم يقدرها. تصريحه أكد لها بأنه رغم إقامته في أوروبا كل هذه السنين لم يتعلم منهم شيئًا، لم يتغير، ما زال ينظر إلى المرأة على أنها شخصية غير مكتملة الإنسانية بعد، مما جعلها تبتعد عنه أميالاً وحسم قرار ترك هانوفر بسرعة والعودة مع زوجها إلى مدينة ميونخ بدأ يقترب في مخيلتها كثيرًا.

obeikan.com

(٢٢)

الغريب في الغُربة، الموت لا يعد من الأمور التي تقهر الإنسان، يصير التعامل معه على أنه شيء مألوف أقرب إلى الطبيعي لا حزن فيه. البرود والعاطفة المتثلجة يمارسها المغترب بمرور الوقت دون أن يشعر بأنه سيأتي اليوم ويتحول إلى مادة صماء من تلك التي تتكون منها الصخور.

ما هي إلا محطات قليلة حتى نزلوا من عربة القطار التي تشق شارع "فوسيس" من حي لندن في هانوفر متوجهين إلى المحامي الذي يقيم في الدور الثاني من بناية عتيقة، باردة ومظلمة لا تبدو عليها سيماء الحياة. فرحة أنهر برزانة وهدوء عربة القطار التي أقلَّتهم كانت عظيمة، وجدتها مريحة، نظيفة وتسير بسرعة لا تبدو عليها حين ينظر لها المرء من الخارج بأن لها القدرة على هذه الحركة الانسيابية الجميلة الوادعة. لونها أخضر فاتح مريح للنظر وفي كل مرة يقف فيها السائق ينزل درج مكون من ثلاث سلمَّات آخرها تلامس الأرض. تعلن لحظتها حاكية عن اسم المحطة والمحطة القادمة بشكل مبرمج آلي، وجرس منبه يصرخ عن فتح الباب وغلقه.

مكتب المحامي أرضيته من خشب قديم يطقطق ويئن تحت ضغط الأقدام. توجهوا إليه مباشرةً بعد أن لم يجدوا منْ يسألهم أو يستقبلهم. نهض من كرسيه فظهر بكامل طوله الذي لا ينقص عن مترين إذا لم يكذبنا الله. أبيض البشره، بوجه ريان طافح بالعافية رغم شكله الذي يبدو مثل تينه مضغوطة، حنكه مدبب ورأسه كقمة البيضة المفلطحة، يرتدي بذلة رصاصية اللون وإذا فتح فمه لن يغلقه إلا بعد ربع ساعة وهو يهدر ويهذر بالكلام سريعًا لا يمكن لأي قوة في العالم تستطيع أن تفهم ما كان ينعق به للسرعة الرهيبة التي كان يتحدث بها، فاق فيها سرعة داوود والد أنهر في النطق عشر مرات.

شرح كريم له بصراحة متناهية كل ملابسات وضعهم ووصولهم إلى مدينة ميونخ ثم المجيء بهم إلى هانوفر دون علم السلطات هناك. لم يخفي عنه شيء. هذا ما سبب تخوف عندهم، آدم تدخل هامسًا موجه الحديث إلى نسيبه:

- هل يمكن قول كل ذلك وبهذه الصراحة؟ لدي تخوف من ذلك!.

كشخص مرتاح الضمير مطمئن يعرف ما يفعل صاء كريم:

- لا تخف. هناك قول مأثور يقول "الحقيقة لشخصين تقولها، طبيبك النفساني ومحاميك". أنا لم أفعل إلا هذا. كيف يساعدكم إن لم نقل له الحقيقة كاملة؟.

أسهب المحامي وأطنب، حاول أن يتابعه كريم ليترجم لهم ما كان الملعون يتفوه به ولم يلحق، ضاع منه ثلاث أرباع الموضوع. تدخل مقاطعًا منزعجًا بتذمر على الطريقة الأوربية التي يعرفها جيدًا دون خجل أو وجل وهو يهز يديه علامة نفاد صبره محتكمًا إلى العقل فلم يتأفف بشكل مفضوح:

- هل ستستمر تتحدث بهذه الطريقة؟، أقصد، بهذه السرعة التي تضاهي سرعة الصاروخ؟ ما فائدة ذلك إن كنت لا أستطيع أن أترجم لهم ما كنت بالكاد ألتقطه منك؟ على مهلك، منْ يركض وراءك؟ تمهل في حديثك وإلا كان شيئًا يشبه الهذيان مع جل احترامي لشخصك!.

ضحك ثم واصل كلامه على نفس النسق كأي ألماني صرف لا يهمه رأي الناس فيه وما يقولون. نصحهم بأن لا يخرجوا من البيت في هذه الأيام حتى يتم البت في أمر لجوئهم بسبب مجيئهم غير القانوني إلى هانوفر ودون أذن من سلطات مدينة ميونخ التي تعتبر المسؤولة عنهم لأنهم قدموا طلب لجوئهم في بادئ الأمر هناك. أكد على أن باستطاعتهم تقديم بعض الأعمال والإثباتات التي تؤكد ممارسة أعمالهم السياسية ضد حكومة الكايزر قبل هروبهم ومازالوا يمارسون هذا العمل. ركز طلبه على آدم بعد أن شرح له نسيبه بأنه موهوب يكتب القصة على أن يكتب نصًا مباشرًا يفضح فيه الممارسات غير الإنسانية التي تعرضوا لها مما يعجل في أمر قبول لجوئه وبالتالي لجوء زوجته. أشار بأنهم لا يتمتعون بالتأمين والحماية الصحية ويعتبر محل إقامتهم عند كريم غير رسمي يحاسب عليه القانون في حالة السؤال من قِبل الشرطة أو الجهات المسؤولة، كما لا يُحسب لهم أي راتب من دائرة المساعدات

حتى يتم تثبيتهم بشكل كامل معترف به. قبل أن ينهي جولته الخطابية الشنيعة وهو يشيح بوجهه عنهم كأنه يخجل منهم رغم كل ما فعله، قال كلمات مقتضبة، واضحة في هذه المرة كل الوضوح، عارية من الأسرار والرموز كمن يعترف أمام كاهن والجميع يستمعون إليه غير مصدقين عيونهم وآذانهم لهذا التغير المفاجئ:

انقدوني الآن ستمائة مارك تحت الحساب، وتابع دون تباطؤ: يعني من كل شخص مائتان.

خرجوا على أن يلتقوا بعد يومين ومعهم ما طلبه منهم لتسهيل عملية لجوئهم. كريم يضرب الأرض ويلطمها بحذائه حنقًا على هذا المحامي الطويل الذي كان يرطن بسرعة خارقة كأنه مجبر عليها بأمر قضائي وهو يردد، قصف الله رقبته، جعلنا نركض ورائه لاهثين ولا نلحق به. ضحكت أنهر بطفولة وبراءة من قول أخيها ومن بين أسنانها البيضاء جميلة النسق، شرعت:

- كيف تعرفت عليه؟ ألا يوجد في هانوفر غيره محامٍ إلا هذا؟.

نبر كمال متدخلاً بلهجة أقرب إلى السب قبل أن يجيبها كريم:

- ابن الذين. كيف استطاع أن يأتي في الدقيقة بألف كلمة؟ واصل منفجرًا بالكلام: ما استغربت منه هو صوته، كان يخرج لا أعرف من أين دون حاجته إلى تحريك شفتيه، ملعون، ساحر، لا شر ينتظر من أمة أنجبت هذا المحامي العتيد العجيب.

رد كريم بعد أن استمع لتلميحاتهم عائل الصبر:

- نصحوني بعض الأصدقاء به لأنه متخصص في قضايا اللجوء. كل أسبوع تقريبًا يخرج في برنامج جديد من برامج التلفزيون يدافع فيه عن حقوق اللاجئين. شخصية عامة معروفة، له دور كبير في التأثير على الرأي العام ألألماني. هذا ما جعلني آخذكم إليه. لكن هذا لا يمنع من أن أقول رأيي فيه بصراحة: ما رحمه الله مقصوف الرقبة، أتعبنا، أنهكنا وجعلنا نركض ورائه مقطوعين الأنفاس لمتابعة حديثة والوقوف على معناه دون فائدة كبيرة تذكر.

• • • •

صعدوا مترو الأنفاق متوجهين حيث المحال التجارية الكبيرة الموجودة في مقاطعة المدينة التجارية. هناك دخلوا متجر متخصص لبيع الأجهزة الكهربائية والإلكترونية يدعى "ميديا ماركت ". أذهل كمال لحجمه الكبير وكثرة بضاعته المعروضة من كل الأصناف، اقترب من أخيه يسأله مأخوذًا:

- باه. ما هذا؟ لم أرَ في حياتي كلها متجرًا بهذا الحجم ومليئًا بكل هذه البضاعة.، ثم عاط دامع العينين بهبل: أريد أن أشتري مسجلة كبيرة!. كانت عندي واحدة وتركتها عند أمي.

تدخلت أنهر دون تباطؤ بعد أن سمعت ما قاله أخوها:

- اعقل!. أي مسجلة هذه التي تريد شراءها؟ نحن مازلنا لا نعرف بعد يومين أين سنسكن وما سيؤول إليه مصيرنا؟. ألم تسمع ما قاله المحامي قبل قليل؟ ومع ذلك تفكر كطفل رأى لعبة يتوق لاقتنائها أو تجريبها مهما حدث!.

نكس رأسه خجلاً، شعر بصدق كلامها، طفق:

- أنا آسف. تسرعت في طلبي.

قاطعه كريم منقذا الموقف:

- لا عليك يا صديقي الجميل، أختك على حق، أعدك، بعد أن تستقر أموركم أهديك مسجلة تفوق تصورك، ثم أردف وابتسامة افترشت بسرعة وجهه الوسيم: ها. ما رأيك يا بطل بهذا العرض السخي الذي لا يقدمه إلا رجل كريم النفس يدعى كريم؟.

أحاطه بكلتا يديه، قبله من رأسه، ناح:

- اتفقنا.

ثم عصفت به الذكريات فجأة فحن لسماع صوت أمه، دندن موجهًا الحديث لأخته:

- متى نتصل بأمي؟ أريد أن أسمع صوتها!.

ابتسمت أنهر من طرحه وسؤاله المفاجئ الذي جاء في غير وقته، قالت بعذوبة وبلهجة لطيفة تعبر عن حرارة روحها الطيبة:

- أعدك يا حبيبي بأننا بعد أن نخرج من كاترين مساءً نتصل بالأهل، ها. ما رأيك؟.

- عظيم، قال ذلك ناطًا من الفرح.

لم تمض إلا دقائق حتى كانوا قد رجعوا بتاكسي وفي صندوقه تلفاز صغير الحجم ياباني المنشأ من نوع "سانيو"، دفع كريم حقه نقدًا مائتان وتسعة وتسعون مارگا. كان قد حل الظهر عندما دخلوا الشقة مما جعل كمال يشعر بالجوع. ثبَّ وسطهم صارخًا كأنه يطلب النجدة:

- انقذوني. سأموت من الجوع، ثم استطرد وهو يضغط على كرشه الذي بات يكبر شيئًا فشيئًا : أم أراكم تنتظرون عزومة السيدة كاترين حتى المساء كي نتغدى عشاءها؟!

• • • •

أثناء عودتهم من محل الأجهزة برقت في ذهن آدم فكرة نص جهنمي شعر بأنه سيفيدهم كثيرًا في قضية لجوئهم. جلس في عشهما الصغير منزويًا مقرفصًا كالتركي في جلسته على السرير اليتيم الممدود والمحاذي لقدم جدار العش. التقط ورقة وقلمًا من درج "الخنزير حديث الولادة" الخزانة الخشبية الصغيرة على رأس السرير وبدأ يكتب دون أن يحس به أحد مستغلاً التهاء زوجته بإعداد طعام الغداء:

البهلوان

صفقنا له كي ينهي عروضه البهلوانية. أخذه الانبهار، عتم عينيه عن رؤية الحقيقة، بدأ يرقص بصخب، بعنف وقوة. مللنا المشاهدة، ركنا رؤوسنا جانبًا. غضب منا، صوب ناظريه لهم، البدء بالمراقبة وأخذ الحيطة!، فكانوا هم وتلاشينا نحن. حاولنا مسايرته، لكن، ماذا عن أرواحنا ؟، قلنا لها صبرًا، الأمل يصبو ويترنح، والغد لابد أن يكون جميلاً وأفضل. عشنا معه عشرات السنين نلهو مع ذواتنا ونسامرها، صحونا يومًا والليل مازال ساهدًا على أصوات غريبة تملأ الآذان وتصمها، صور تخدش الحياء لم نألفها ورقص على رفات القبور!. حاولنا ألا نستسلم، أنتم تعرفون والحقيقة أكبر!. جمعنا العدة وطعام الأمس معنا وقررنا الرحيل، كي نرسم من جديد، بصمات على صفحة ماء. بدأنا برأس مثقل بالأفكار وآلام متصدع، جسم هزيل أرهقه الخضوع، الانصياع والخذلان. جربنا أن نكسر الطوق، نشم رائحة الجذور، ولم ننس أن ننظر حينًا بالمرآة القديمة التي مازلت بحوزتنا، وحينًا نتأمل قوة الطبيعة والسماء. لم نتردد، دخلنا معابدهم المقدسة، تحدثنا معهم الكلام المفيد المختصر، هزؤوا بنا، قالوا: جهلاء لا يفقهون من الحضارة أبجديتها.

حكمت علينا شريعتهم، غرباء نستحق البطش بالإهمال!. طوقنا الروح بزنزانة القلب، سرقنا الهواء، غيرنا مجرى الدم، هزلت النفس وتعطبت شرايين الجسد. أرواحهم لا يمكن الرقص معها، كوكبهم أجوف تقطنه الأشباح، أبنائهم تماثيل خشبية وزمنهم أصم أخرس. دارت دورة الحياة، تذكرنا حفلات عرس الأرض، ينابيع ضفائر الحب، جلسات سمر الشيوخ، حلوى الأطفال، دعوات الأمهات وتذكرنا البلهوان فتكسرت بين أضلعنا دمعة قهر، دمعة حزن، ارتجفت خواطرنا، ذابت أشواقنا بين طيات الثلوج، فقررنا الصمت والسبات كي نبصم من جديد على صفحة ماء رقراق.

فجأة وقبل أن يبدأوا بتناول طعام الغداء الذي أصبح جاهزًا خرج كريم مسرعًا بعد أن رمى قوله خطفًا دون أصداء:

- سأكون هنا حالاً. انتظروني، لا تتغدوا بدوني!.

بهتت أنهر من الطريقة التي تحدث بها أخوها ومن السرعة التي مرق فيها خارجًا يجري، صاحت ورائه ولم يسمعه:

- هل لك أن تقول إلى أين؟.

لا جواب غير صفق الباب.

الساعة قاربت الرابعة عصرًا ولم يرجع كريم. قلقوا عليه، جمجم كمال منزعجًا نافد الصبر:

- لا أستطيع الانتظار أكثر. سآكل لوحدي إن لم تشاركاني.

رمقته أخته بنظرة غاضبة وهي تقول:

- أي رجل أنت؟ لا نعرف من شأن أخيك شيئًا وأنت لا تفكر إلا بالأكل!.

فارغ الصبر والغيظ يخنقه محملقًا في وجهيهما:

- وماذا علىّ أن أفعل؟ انتظرناه ولم يحضر كما نوه. كما أن كاترين امرأة ألمانية ومواعيدها كما يبدو أو فهمت حادة وقاطعة كالسكين. قالت عند السادسة تكونون عندي. هذا يعني السادسة وليس السادسة وخمس دقائق، ومن ثم إذا لم نتغدى الآن ماذا سنأكل عندها بعد ساعتين؟، ثم رطن بجملة تحمل من البراءة تفوق ما يحمله من خبث آدمي: ترى، هل يجوز هذا؟ سامح الله أخانا، سيضيِّع علينا العزومة التي ننتظرها. قال جملته الأخيرة وهو يدق على كرشه المتنامي الذي يعتبر في مرحلة التكوير والبروز.

شرع آدم وهو يقترب منه ضامًا ذراعيه إلى صدره:
- اسمع يا كمال، نحن أيضًا نشعر بالجوع مثلك، لكن لابد أن نعرف ظرف كريم أولاً، سيزعل لو فعلنا هذا، سيعتبره إهانة قد لا يغفرها لنا، ومن ثم أنا قلقت عليه بالفعل، لابد من مشكلة حدثت له أخرته كل هذا الوقت وهو عليم خبير بشأن صديقته ومواعيدها الدقيقة.
أطرت أنهر على كلامه، قالت:
- آدم عنده حق. أظن بأن هناك مشكلة ما حدثت له. أطرقت قليلاً، ثم واصلت بحسرة: ما هذا الذي يفعله كريم بنا، كأننا لم نتحدث عند الصباح بهذه الأمور؟ يتركنا نضرب أخماسًا بأسداس دون أن نصل إلى أي نتيجة.
زعقت الباب. دخل كريم وفي يده شيءٌ ما، كيسٌ بلاستيكي أسود، أدخله إلى ورشته مباشرةً قبل أن يتقدم نحوهم، صاح ضاحكًا:
- خيانة، هل تغديتم من دوني؟
رغم فورتها، تحفظها على حركاته وتصرفاته، ارتباكها وقلقها وتخوفها عليه جاءت نبرتها كسجع الحمامة مثل فنان صادق الإلهام.
- اطمئن، ردت عليه أنهر وتابعت: مازلنا ننتظر تشريفك لنا.
حضنها، قبَّلها، طفق بلهجة متمرس عليها، عميقة ونافذة:
- أعتذر منكم يا شباب، كان لابد لي من الخروج والرجوع بالبضاعة. فرصة لا تعوض. اشتريت ذهبًا من أحدهم بسعر بخس لا تتوقعونه. هل عرفتم الآن السبب؟ لم يكن عندي الوقت الكافي لشرح ذلك، لو لم ألحقه لتصرف وباعه لشخص آخر. ها. هل أجنيت؟.
كمعذب بالغرام نقى الهوى روحه:
- حسنًا الآن، قال ذلك آدم وتوجه لإحضار الطعام. ساعدته أنهر، أخذ كمال مجلسه بانتظار لحظة البدء دون أن يشاركهم في التهيئة، هذه كانت من أشنع تصرفاته، يقول عنها، رجولتي لا تسمح بفعل ذلك!. أثناء ذلك، نوه آدم على أنه كتب شيئًا ذا بال يخص وضعهم الحالي ويحب أن يسمعهم إياه متى ما سنحت الفرصة. أطرا كريم على عمله، قال، رائع، أعدك، يوم السبت سأفرِّغ نفسي ونسمع منك كل ما كتبته على الرغم من أني متأكد بأنك لا تحتاج إلى رأي كونك محترف الكتابة

بالنسبة لي. كمال انزعج، شعر بإهانة لحقته، ثناء أخيه على نسيبه يعتبره تجاوزًا على شخصه. بدأت بوادر الحسد والغيرة تشتد وتتورم بداخله من غير أن يدري.

بعد أن أنهوا غدائهم وملأ كمال كرشه عاوده صفاء مزاجه كمن نقى الإلهام قلبه، لم يعد يشعر بالتكدر، رنَّ صوته ضاحكًا مماحكًا من جديد وهو يفصد الكلمات في فمه قبل أن يدحرجها:

- أرجوكم، لا تجعلوننا نتأخر عن موعدنا مع كاترين، أريد أن أجرب طعام الألمان كيف يكون؟!.

• • • •

فتحت لهم كاترين الباب من الرَّنة الأولى للجرس. رحبت بهم بكلمات مخلوطة بين الإنجليزية التي تجيدها بشكل جيد والعربية المكسرة وهي ترنو ضاحكة، منطلقة، لبقة على سجيتها دون تزويق. أدخلتهم غرفة الجلوس الصغيرة ذات الإنارة الخافتة والجدران المفروشة بورق أبيض مزهر ناعم الملمس، لطيف المنظر براق يدل على حسن ذوق صاحبة الشقة بعد أن اجتازوا ممرًا كالمصران لنحافته وطوله. ما أن دخل كريم الغرفة كأول الداخلين حتى نطَّ نديم ابنه في حضنه من قفزة واحدة. أنهر لم تعد السيطرة على نفسها، التقطت نديم من حضن أبيه وقبَّلته وهي تردد بحنية عذبة:

- آه يا جني اشتقت إليك كثيرًا، ثم سألته: هل تستطيع العوم والسباحة؟. وبدل من أن يجيبها تملص منها كالزئبق هاربًا نحو أمه التي كانت قد جلست تصب في أقداح زجاجية عصير البرتقال لهم. سأل آدم الطفل مجاملاً وهو يلتقط كتابًا لا على التعين من مكتبه متواضعة جدًا واقفة في ركن منزوي من الغرفة:

- ماذا يعني هذا بالألمانية؟. وهو يشير إليه ويقلّب الكتاب بيديه.

وهو يحاول أن يزوغ ويختبئ:

- "بوخ". ثم ولّى هاربًا إلى غرفة نومه.

هتف آدم ناسيًا نفسه ببراءة كبراءة الأطفال:

- رائع، تعلمت اليوم أول كلمة جديدة مهمة في حياتي.

كريم استغل الأجواء المفرحة، جلس بجانب صديقته يلاطفها ويسألها عن حاجتها أو أي مساعدة تطلبها. شكرته بنظرة وهي تهم بالحديث مع كمال ببطء لعين باللغة الإنجليزية التي تورط فيها، صاح نائحًا ساخرًا:

- انقذني يا آدم، وإلا لماذا أنت هنا؟.

سادت جلستهم الانسجام والوئام، تحدثوا عن أشياء كثيرة، من ضمنها الحرب التي توشك أن تقع. طلبت كاترين من أنهر أن تساعدها بلهجة وادعة رقيقة إن أحبت. الأخيرة رحبت بطلبها، وجدته بداية لصداقة وعلاقة إنسانية جميلة. طبيعة أنهر تحب هذا النوع من العلاقات كثيرًا، تجد نفسها فيها، لا تحرمها منها لو أردت أن ترى صفاء ذهنها. تناغمت معها واندمجت. سمعت قهقهاتهما من المطبخ المجاور لغرفة الجلوس بشكل واضح. كمال سحب نديم من على الأرض وأجلسه في حضنه وبدأ يلاطفه. هذا أكثر شيء جميل يتمتع به كمال بالإضافة إلى وسامته؛ حبه للمجاملة خاصة عندما ينسى نفسه!.

على الطاولة البيضاوية البيضاء الجالسة على الأرض أمام الآرائك غير المغطاة بغطاء فرشت الأطباق وملئت بأصابع رفيعة طويلة صفراء فوقها شيء أقرب إلى مرق الطماطم مع اللحم المفروم جيدًا وقليلاً من الجبن المبروش وأعمدة من الدخان تتصاعد منها لسخونتها. شرعت كاترين مستوضحة: هذه أكله إيطالية شهيرة اسمها "أسبكَتي". جربوها، ستعجبكم كثيرًا أنا متأكدة من ذلك.

احتار كمال كيف يأكل تلك الأصابع الرفيعة الطويلة التي يتطاير منها الدخان وهو لا يجد أمامه غير ملعقة وشوكة! .

(٢٣)

غالبًا ما يكون التحدي دافعه الكُره.
العقل جهاز رهيب يصعب على الإنسان إدراك أسراره.
ومن يرغب بمعرفة الناس على حقيقتهم يراهم وهم فاقدو الأعصاب.

انسحبت أنهر من الجلسة معتذرة بالتعب. أعطاها كريم مفتاح الشقة ناصحًا:
- هل تستطيعين الوصول بمفردك؟، ثم صحَّح قوله مردفًا: أقصد، هل تعرفين طريق العودة؟.
أجابه آدم متدخلاً:
- لا تقلق، سأكون معها، وهو ينظر إلى كمال أشار: إن رغب بصحبتنا سنتصل بالأهل كما وعدته أنهر.
نبر الأخير مشجعًا:
- نعم، بالتأكيد، سأذهب معكما، أنا مشتاق لسماع صوت أمي كثيرًا.

شكروا كاترين على دعوتها، الطفل نديم كان قد رقد في فراشة منذ أكثر من نصف ساعة، مواعيد نومه مواقيت مقدسة كساعة الصلاة. كريم فضّل البقاء بجانب صديقته.

نزلوا الشارع محاولين جهدهم أن لا يخطئوا طريق عودتهم.

أثناء سيرهم اعترضتهم فتاتان تركيتان محجبتان، حاولتا لفت انتباه كمال إليهما بقول إحداهن وهي تقترب منه وتقرب صدرها من صدره كساحرة شريرة لا تهاب ولا تخشى ولا مكان في قلبها غير الوحل:
- هل أنت تركي؟ ثم ملء حلقها رنت ضحكتها عاليه في الآفاق تصدح.
استغربت أنهر من جرأة الفتاة، خاصة أن هيئتها لا تشجع على هذه المعاكسة الصريحة!. كمال ارتبك، شعر بأن قلبه فجأة يدق في رجليه، تراجع خطوة موجلاً مضطربا:

- كلا، أنا عراقي. قال ذلك بلغة إنجليزية مختصرة جدًا.
أحاطته التي سألته غامزة بصوت نحاسي، بنشاط غير متوقع كعزباء ارتد إليها أملها، بإرادة متوثبة متحفزة وجاهزة لكل الاحتمالات:
- هل تريد صحبتنا؟.
لم يفهم عليها، صفن كشخص يتلقى الشتائم ويبلعها، أدار رأسه إلى أخته بغية انقاذه وهو يطوف ببصره لكل من حوله.
أنهر لم يعجبها الموقف، همست:
- لا تورط نفسك معهن، لقد حذرنا كريم منهن. لا تنسى ذلك، دعنا نكمل طريقنا، لا تجعلنا نتأخر عن الاتصال بالوالدة إن أحببت، الوقت قد تأخر، هيا.

دردم آدم مناهضًا وهو يهز يديه أسيفًا:
- والله عال، لم يبق علينا إلا الأتراك المحافظين في الهيئة والشكل فقط!.

عند منعطف أحد الشوارع التي تؤدي إلى شقة كريم وجدوا "كابينة" هاتف عمومي مزروعة على الرصيف وحيدة تعاني العزلة. صاح كمال قبل أن يصلوها مغتبطًا:
- هناك. وهو يشير بإصبعه، يوسع خطوته ويعجلها.

• • • •

عندما عاد كريم كانت أميال الساعة تقترب من العاشرة والنصف ليلاً. وجد كمال ملتهيًا بالتلفاز يحاول برمجته. آدم وأنهر منشغلان بحديث جانبي لا يسمع منه غير ذبذبات من الهمس والوشوشة وهما جالسان على حافة سرير كريم النائم على الأرض. سألهم كريم مترنمًا راطنا:
- ها. هل مشى الحال؟ ما أخبار الوالدة؟ هل مازالت تلعلع، تأمر وتعشق الزعامة والسيطرة؟. ضحك مناورًا وهو يتجه نحو أخيه: هل انتهيت من برمجته؟ هات محكم الكونترول؟. ناوله إياه صامتًا وتنحى جانبًا بانتظار الحصول على الإرسال وكأنه ينتظر المعجزة. كمال له أهداف بعيدة، هو لا يهمه ما سيحصل في المنطقة من دمار وما ستؤول عنه نتائج الحرب لو وقعت. هو يطلب الرغبة، ينشد المتعة واللذة، يريد رؤية الحرية المباحة مجسدة في صورٍ وأفلامٍ وأغانٍ محروم من

معاشرتها في وطن الطاعون من قبل، يتوق للوصول إلى ملذاته بسرعة مهما كلفته تلك من جهود مضنية، ينتظر ساعة الفرج، يرنو ببصره كالمحروم من العقل إلى أخيه والأخير ينقر الأرقام محاولاً الحصول على التقاط البرامج التلفزيونية. ظهرت أولى الصور المرسلة، صاح كمال بخبل كمن تجري في عروقه رعدة عصبية:

- ها هي القنوات تهل علينا كالمطر. رائع، تابع يا أخي، أجلب لنا المزيد، المزيد، نريد منها الكثير، كل ما تستطيع التقاطه، لا تجعلها تزوغ منك، أخزنها بسرعة، لا تتردد، الله لا يحب المترددين!. ثم وهو يتمطق مقتربًا من أخيه، سارًا:

- عليك أن لا تنسى أن تشير لي بالقناة التي تعرض الثقافة التي يحتاجها شاب مثلي، بلع ريقه الذي نشف فجأة، ثم تابع زائغ النظرات: سمعت بأن هناك أكثر من قناة تعرض هذه الثقافة، دلني على أفضلها!.

منشرح الأسارير، أجابه:

- لن أنساك يا ابن داوود. أعرف ما تصبو وتتوق إليه. سأجعل قناة رقم عشرة خاصة لممارساتك التي تطمح من خلالها تطوير ثقافتك التي تبتغيها!، قال له ذلك وهو يغمزه بمعنى. استطرد مقتضبًا: اسمها "آر تي إل"، احفظها، وكرَّر اسمها، "آر تي إل".

فرك كمال يديه مغتبطًا، منتصرًا ساعيًا إلى لذته بقوة جامحة لن يقصيه أحدٌ عنها إلا سبحانه لو شاء. بعد أن شغله عن عمله، عاد كريم يرجوه:

- اتركني أكمل برمجة التلفاز، هل لك الآن أن تنقطنا بسكوتك؟.

صمت كمال. ضحكت أنهر من تصرفات أخيها، حاولت أن تكسر طوق خجله، لاطفته بقولها:

- كل شيء في أوانه يا كمال، لِمَ العجلة؟ الله لا يحب المترددين ولا المتعجلين!.

قضوا سهرتهم في متابعة برامج تلفزيونية ألمانية متنوعة لم يفهموا منها غير كلمتين ترددتا كثيرًا: طظ، وبالتأكيد.

• • • •

عند الصباح، وأثناء تناول فطورهم طلب كريم من آدم أن يقرأ ما كتبه أول الأمس كما وعده، بقوله:

- هل تريد أن تنسينا ما اتفقنا عليه؟ هيا. هات ما كتبته.

نظر آدم إلى أنهر خجلاً، شجعته، قالت:

- ممن تخجل؟ هيا، اقرأ لنا ما كتبته، طلبت منك أن تقرأه لي ورفضت إلا بحضور الجميع، ما عذرك الآن؟.

- حسنًا، قال ذلك ونهض لجلب أوراقه من الخزانة الخشبية التي بدأت تحمل أسراره، فتح الورقة، رفعها أمام عينيه، بدأها بالعنوان "البهلوان" ثم ران صوته الجاد يتلو عليهم ما كتبه. تخللها رعشة في صوته من جراء حزنه واندماجه بالحدث وما كان يلقيه حتى جاء على نهايته قال: "دارت دورة الحياة، تذكرنا حفلات عرس الأرض، ينابيع ضفائر الحب، جلسات سمر الشيوخ، حلوى الأطفال، دعوات الأمهات وتذكرنا البلهوان فتكسرت بين أضلعنا دمعة قهر، دمعة حزن، ارتجفت خواطرنا، ذابت أشواقنا بين طيات الثلوج، فقررنا الصمت والسبات كي نبصم من جديد على صفحة ماء رقراق".

ما أن سكت آدم صاح كريم مندهشًا:

- أضمن لك اللجوء من أول جلسه أمام قاضي التحقيق، ثم واصل مندفعًا برزانة: ما هذا ؟ ذهب خالص مصفى!. أقسم لك يا آدم بأنك لو استمريت على هذا المنوال وبهذه الطريقة الجميلة النثرية في الكتابة لا تأخذ حق اللجوء من أول جلسة فحسب، بل ستظهر في التلفزيون بعد أشهر معدودة قليلة. أعدْ عدتك، سنلتقي بالمحامي لنعطيه هذا النص يوم الاثنين ليقدمه إلى المحكمة دليلاً على نشاطك السياسي عن طريق الأدب ضد حكومة البهلوان كما أطلقت عليه.

أنهر انبهرت بالنص كثيرًا، قالت:

- لو لم يكن نثرًا لقلت شعرًا.

نهض كمال من مكانه منفعلاً منزعجًا دون سابق إنذار. انسحب بهدوء وهو يقول:

- ليس لي شهية لتناول الفطور، ربما سآكل فيما بعد. استغربوا تصرفه، أنهر عرفت بحدسها وفهمها لطبيعة أخيها المدللة التي تعود عليها بأن إطراء كريم

لزوجها السبب. هو لا يريد لأحد غيره أن يكون محور الاهتمام والنقاش. أخته سارة لا تختلف عنه، تزيده غرور وعنجهية لا يطاقان. لحقته نحو غرفة الجلوس، حدثته بعذوبة وحنية خالصة، بكلمات نافذة مباشرة كالسهم الذي لا يخطئ:

- حبيبي كمال، أنت تعرف كم أحبك. كل شخص منا له موهبة ما، الله سبحانه تعالى وزع على خلقه ثروات مختلفة، منها المال، ومنها المواهب والجمال، ومنها الصحة، ومنها الذكاء، الحكمة والعطاء. وإلى أخره، واهب النعم هو صاحب الاختيار والقرار، لا أحد يستطيع أن يعترض على حكمته في توزيعه لتلك الهبات، فلا تكفر في أمر لا تقدر على رده، وهي ترفع يده إلى صدرها: هل تفهم ما أعني؟ استطردت بعد أن لهبته بنظرة جرئية: وسامتك مثلاً هبة من الله لا أحد يستطيع سلبها منك، وآدم موهوب بالكتابة فما الضير في ذلك؟ لا تجعله يشعر بالذنب وهو لا ذنب له.

خجل من كلماتها، وجدها صادقة جدًا، قال وهو يقبلها من رأسها كطفل قام بفعل مشين:

- أعتذر. هيا لنرجع حيث نكمل فطورنا.

قبل أن ينفضوا أيديهم من الطعام ذكّرهم كريم بالحفلة عصرًا قرب القناة وهو يشير لهم حاسمًا:

- سنحتفل اليوم على كيفنا. نشحن قدر ما نستطيع من طاقة إيجابية تساعدنا على تحمل مصاعب ومصائب ما سيحدث بأقل الخسائر النفسية، ثم فجأة طرح عليهم قراره: سيدفع كل شخص مائة مارك تكون بحوزة أنهر وهي التي تتصرف في شؤون البيت وميزانيته حتى يتم البت بأمر لجوئكم. وقبل أن يسمع رأيهم، تابع موجهًا الكلام لآدم بالتحديد: بعد أن نزور المحامي يوم الاثنين ستأتي معي لنعمل في البناء وتأخذ أجرك يوميًا.

انفجر كمال نابرًا:

- ولماذا لا أعمل معكما؟.

ابتسم كريم لمعرفته بأخيه وما يقصده من وراء سؤاله:

- لأن الذي أخبرني بالعمل طلب مني عاملاً واحدًا فقط، وبما أن آدم متزوج وصاحب مسؤولية اخترته، ولو اتيحت لي الفرصة لأجلب عاملاً آخر سوف لن أتوان عن استدعائك يا بطل.

لم ترتح أنهر لأجواء الحفلة. منصة مسرح سوداء من الخشب والحديد منصوبة أمام شجرة يوكاليبتوس. وارفة، شامخة ومتفرعة كإخطبوط أسطوري وعلى جهتها اليمنى كانت القناة غير العميقة، ثم فسحة واسعة من الحشائش القصيرة وأرض خضراء مستوية مواجهة للحديقة الغناء قرب شقة كريم التي يبدأ طريقها بالكنيسة ذات السقف القرميدي الأحمر الجميل وجدرانها الصخرية حائلة اللون بسبب العتق وتأثير الزمن.

صدحت الموسيقى الصاخبة من خلال مكبرات صوت مدمرة لكبر حجمها والكارثة التي تسببها لارتفاع زعيق الصوت الخارج منها. الفرقة الموسيقية كانت تتكون من خمسة أشخاص، شابان وثلاث بنات. يعزفون، يغنون، يرقصون، يأكلون، يشربون ويعملون كل شيء وهم على المسرح، لعنة الله عليهم، هكذا صاح كمال مأخوذا، متهكمًا مدهوشًا وهو يتمايل كلهب المشعل مع أنغام الموسيقى المقلقة للأعصاب:

- ما هذا الذي نراه؟ إنهم شياطين متمردة على الواقع، أو لنقل عفاريت تتنطط نافرة من قماقمها مغتاظة كأن شيئًا ما يقلق أو يهدد حياتها، انظروا إليهم، يتصببون العرق وملابسهم تبدو رثة كثياب الحمالين، يضحكون ويصرخون ويرقصون وكأن الحياة التي يحيونها كلها صفاء ونقاء لا هم فيها ولا عذاب!.

بعد ساعة وحفنة من الدقائق طق آدم من الصوت المدوِ الذي تطلقه أجهزة مكبرات الصوت اللعينة، كان قلبه يرتج مع كل دقه من دقاتها العنيفة، سأل زوجته إن كانت ترغب بالسير قليلاً في الحديقة تخلصًا من هذه الحرب الصوتية التي لا يجد لها من خلاص. وافقتها رأيه، قالت متحمسة:

- كدت أسألك وخجلت، لم أرد مضايقتك، أعصابي لم تعد تتحمل هذه الضوضاء المرعبة.

ماجت أصوات من جانبهم تردد كلمات لم يفهمونها، ثم شاهدوا شابًا رفيعًا نحيفًا يشبه مصران الشيطان يخلع ثيابه كلها وينط إلى القناة عاريًا، لحقته فتاة لا تقل

جرأة منه، ازداد اللغط حولهم، كمال لم تفته لحظات المتعة والمشاهدة الحية، غمغم بالعًا ريقه بصعوبة بالغة:

- لقد جن القوم!. كريم يضحك بملء فمه ولم يعلق.

استأذنت أنهر أخاها طالبه منه مفتاح الشقة للرجوع إليها بعد نزهة قصيرة ستقوم بها مع آدم.

عاد كريم وأخوه من الحفلة عند الحادية عشر والنصف. فتحت لهما الباب أنهر ناعسة تتثاءب. تركتهما ورجعت تنام في حضن زوجها الدافئ.

كريم همس في أذن أخيه:

- لابد من الخروج الآن. الذهب الذي حدثتكم عنه سأبيعه وأقفل راجعًا. لن أتأخر.

شعر كمال بمزيد من الحرية التي يتوق لممارستها لوحده بصحبة قناة "آر تي إل" التي لم ينسها ثانية واحدة، كانت في باله ترن كجرس المنبه، تدفعه الحمية، الرغبة ومتابعة برامجها التي يقول عنها ثقافية!. أطفأ نور الغرفة، أغلق الباب على نفسه وحبسها بإرادته، شغل التلفاز، ضغط على محكم الكونترول حيث رقم عشرة، خلع ملابسه وأبقى على الداخلية منها، اندسَّ في الفراش الممدود وراح يعبث مرتجفًا مضاجعًا نفسه بيده وهو يتلمظ، ينظر مأخوذًا ما تعرضه القناة من مشاهد صريحة لفيلم جنسي ثقافي كما يحب أن يطلق عليه كمال هذا اللقب. بعد جولتين سريعتين شعر بقواه تخور وأعصابه تهدأ رويدًا. أطفأ التلفاز بهمَّة مهدودة، أدار ظهره للجدار، ثم غط في نوم عميق كالمقتول حتى ساعة متأخرة من ظهر اليوم التالي.

دخل كريم الشقة متسحبًا كحرامي الليل لا يرغب بإيقاظ أحد، وكانت الساعة قد قاربت الواحدة بعد منتصف الليل.

• • • •

أربعة أيام فقط كانت تفصلهم عن الحرب التي أعلنت ساحقة غازية بلد عربي جار دون سابق إنذار. وسائل الإعلام لم تنقطع عن الحديث في الأيام التي سبقت إعلان الحرب. الكايزر لا يريد أن يصدق بأنه لو استمر بتمرده سيسحق، ثم يليه بلد الرافدين والمنطقة برمتها. شعور آدم في تلك الأوقات مسموم لا يرحم. خوفه على

أهله، شعبه المسكين ومن النتائج المرعبة التي ستترتب عليها مغامرة جديدة طائشة كهذه من قبل حكومة الكايزر ستكون لها عواقب وخيمة مدمرة يمكن لها أن تجعل الأقطار العربية قارات متناحرة لا تفوق شعوبها من الصدمة إلا بعد مرور مائة عام في أقل تقدير. أنهر كانت تحس وتعي ما يؤلم زوجها، تعرف بأن الكارثة لو حلت ستكون فظيعة رهيبة ترجعهم عشرات السنين إلى الوراء.

وكما وعدهم كريم منذ الصباح الباكر ليوم الاثنين والساعة أزفت الثامنة يطلب منهم أن يحضِّروا أنفسهم للذهاب إلى المحامي حسب اتفاقه معه. لكن المفاجأة التي لم يكونوا يتوقعونها كانت في انتظارهم ما أن وصلوا البناية التي تضم مكتبه... لائحة ورقية ملصوقة على باب المكتب، تقول: نحن في إجازة لمدة ثلاثة أسابيع من تاريخ اليوم.

انتفض كريم غاضبًا، دق الأرض بقدميه، لعلع:

- القملة ابن المأفون كان يخدعنا، هو لم يقل عندما كنا عنده قبل يومين بأنه سيكون في إجازة. أخذ منا ستمائة مارك نقدًا كي لا نذهب لغيره. ملعون ابن جنية.

حاولت أنهر تهدئته بكل وسيلة ولم تفلح، كان ثائرًا عصبيًا جدًا يرعد ويبرق ويطلق الكلمات هكذا دون حساب والزبد يخرج من فمه أكواما وهو يردد: هكذا هم الألمان لا تأتمنهم، يفعلون ما يريدون فقط، مصلحتهم فوق وقبل كل شيء، لا يفكرون إلا في أنفسهم، ترى ماذا نفعل الآن؟ ليست لديكم أي أوراق رسمية تتحركون بها داخل المدينة، ولا أوراق تثبت محل إقامتكم ولا حتى تأمين صحي لو حصل شيء لأحدكم لا سمح الله.

قاطعة آدم مجبرًا بعد أن رأى نسيبه يتألم مغتاظًا ومنفعلا:

- لا تهتم، قل لا يصيبنا إلا ما كتبه الله لنا. دعنا نرجع لنفكر بهدوء كيف سنعيش الأيام القادمة من غير راتب أو مصروف جيبي ودون أوراق ثبوتية تدل على شخصيتنا، أو محل إقامتنا ونحن في النهاية لا نريد أن نعرضك لأي مخاطر أو مساءلات قانونية أمام الدولة.

أمسكت يده أنهر وهي تمازحه ملاطفة بكلمتها المشهورة:

- خوش. ثم قادت أخاها برفقٍ كحبيب.

عادوا كما أتوا بخفي حنين(•).

• • • •

ما أن رجعوا وأوصلوا أنهر وكمال الشقة حتى طلب كريم من آدم تغيير ملابسه، يرتدي ما يناسب العمل المناط لهم في البناء.

في الطريق لمكان العمل تفاجأ بفتاة بلهاء تهرب مبتعدة في الشارع ممسكة بيدها علبة معدنية من شراب غازي تتمجع منها حينًا وتخبئها في عبها حينًا آخر وأحدهم يلاحقها. حاول كريم أن يسأل الرجل الذي يجري وراءها، يبدو من صدريته البيضاء بأنه عامل من عمال أحد المحال الكبيرة التي تبيع المواد الغذائية:

- ماذا فعلت تلك الفتاة؟ هل سرقتكم؟

- نعم، وهو يرنو نحوها كي لا تختفي عن مرمى بصره.

- أتركها وشأنها، سأدفع حق ما سرقت. هكذا قال كريم متبرعًا بعد أن انتبه لتصرفات الفتاة بأنها ليست في وعيها.

رفض العامل بشكل قاطع العرض:

- لا تتدخل فيما ليس لك فيه. هي سرقت ويجب أن تعاقب. سأتصل بالشرطة حالاً.

ثم ولّى وراءها منطلقًا، مرتعدًا، مرتعشًا كمجنون في يده سكين وهي تبتعد عنه تعدو مسرعة وفي يدها علبة الشراب من نوع "كوكا كولا" اندلق نصفها على ثيابها بسبب حركتها العنيفة وجريها.

دقائق وكانوا في المكان. بدأ العمل كما صرح به نسيبه. نسيا نفسيهما فجأة وكأن ما حدث قبل دقائق من موقف يخص المحامي شيءٌ لم يكن. تفاجأ آدم من طبيعة ونوع العمل الذي لم يقربه في يوم من الأيام طوال حياته. بيت كبير يتألف من ثلاث طوابق يحتاج إلى تغير سقفه. القرميد الأحمر هو المستعمل اتقاء الثلج والرطوبة

(•) خفي حنين : قصة قيل فيها مثل حدثت في منطقة الحيرة بالعراق قديمًا أبطالها حنين الإسكافي وأعرابي صاحب جمل محمل بالأغراض والهدايا والمؤن.

والمحافظة على حرارة البيت من الداخل وللتقليل من استهلاك الطاقة. العمل مع الألمان شيء لا يمكن الهزأ به، جاد كل الجد. الوقت يحسب بالثانية، لا مجال لتضييعه ولا يسمح به. مهمة آدم كانت واضحة لا تحتاج إلى شرح كثير، توصيل القرميد النازل من زميل إلى زميل آخر يقف تحته على سلم، ثم بعد الانتهاء من تنزيله يوضع محله الجديد. عمله كان تحت السقف، داخل البيت في الطابق الرابع إن صح التعبير. غبار لا يطاق وعدة بناء وأشياء لا حصر لها أغلبها لم يرَها آدم من قبل. جو السطح خانق، هواؤه فاسد والتراب يعلوه مما سبب له ضيق في التنفس، شعر منذ الوهلة الأولى بأن ما يقوم به سيقتله، هو طبيب بيطري وليس عامل بناء. جسده نحيل وعوده رفيع لا يقوى ولا يتحمل ما سيطلب منه، لكنه وضع صوب عينيه التحدي، قال يسر ذاته "لابد وأن أقاوم، كريم فضلني على أخيه من أجل مصلحتي لأنني متزوج، فلا يجوز التراجع تحت أي مسمى" .

هكذا بدأ صراعه الأول الجديد مع العيش والمسؤولية في بلاد لم يتوقع أن تكون حياته فيها قاسية أكثر من الألم ذاته.

(٢٤)

هلهولة للحزب القائد.... هلهولة (•)

ثلاثة أيام وانتهى العمل في البيت. قبض آدم لكل يوم مائة مارك أجرًا لقاء معركته مع الحياة الجديدة في الغربة. كان يرجع مساءً لا يقوى على الحركة ووسطه مقصوم. يأخذ حمامًا ساخنًا ثم يجلس مع أنهر مخطوف اللون بالكاد تخرج من فمه الكلمات. نهاية عمله تعني أن موارده المالية ستتضاءل وتنقص ويأتي اليوم الذي لا يملك ما يعطيه لكريم من مصروف يومي للبيت.

رحلة المحامي ابن العفريتة - كما كان كمال يطلق عليه- جعلت مسار حياتهم يتغير لم يتوقعوا أن يسقطوا في حفرة مظلمة عميقة كهذه. حذرهم كريم من التجول كي لا يتعرضوا للسؤال وربما الاعتقال والسجن من جديد. هذا لوحده كان كافيًا بتقييد حريتهم الحركية والتجول في المدينة كما كانوا يأملون. هبطت معنوياتهم بشكل مروع سريع نحو الدرج السابع تحت الأرض. باتوا يقضون أغلب أوقاتهم في البيت حيث الضجر والفراغ. زيارات كاترين لهم تحسب بالثانية، وكريم غير متفرغ لهم، بل لأعماله التي يجهلونها كل الجهل ولا يحب التحدث بشأنها. شقة كريم كانت بالنسبة لهم سجنًا مشرع الأبواب.

• • • •

كثيرًا ما نجد أقوال الناس لا تتطابق مع أفعالها، ومع ذلك نرى الجميع تقريبًا في توافق عجيب كأنهم متشابهون. آه يا شرقنا. منْ جنى على منْ؟، نحن أم أنت؟. وإذا

(•) هلهولة : زغرودة. كان أزلام الكايزر وحملة الطاعون يرددونها دون خجل بعار منقطع النظير إبان الحرب

كنا وأنت لسنا الجُناة، فمن يكون القاتل إذن ؟! النفوس الرومانسية الرقيقة الطيبة غالبًا ما ترسم الآخرين بريش الطاووس كما يقال، لا تلغي فيهم التكبر والتسلط والغرور، ولا تريد أن ترى إلا مظاهر الخير فيهم حتى لو أدركت بأنهم على ما تدعيه غير صادقين.

بدأت الحرب....

كل شيء كان مخجلاً نستحي حتى من ذكره في عمل روائي.
الخميس الثاني من أغسطس فجأة بات تاريخًا لا يُنسى كمسلة من المسلات التراثية رغم بشاعة المنظر وهول الحدث... هجوم شنَّه الجيش العراقي بحكم سلطة الكايزر على الكويت. استغرقت العملية العسكرية يومين. انتهت في الرابع من الشهر المذكور باستيلاء القوات العراقية على كامل الأراضي الكويتية. شُكلت حكومة صورية برئاسة العقيد ع. ح. خلال أربعة أيام فقط تحت مسمى جمهورية الكويت، ثم أعلنت حكومة الكايزر بعدها مباشرةً ضم الكويت للعراق وإلغاء جميع السفارات الدولية في الكويت، إلى جانب إعلان الكويت المحافظة التاسعة عشر للعراق وتغيير أسماء الشوارع والمنشآت ومنها تغيير اسم العاصمة الكويتية دون خوف من الله. مرتزقة الكايزر يهتفون: هلهولة للحزب القائد. هلهولة.

غرق الشرق من جديد في ظلام دامس لا يعلم من أمره إلا سبحانه كالظلام الذي أحاط الكون قبل النشوء. فاجعة لا يمكن تصورها. دمار هائل مروع، سلب ونهب وحرق واغتيالات لا أول لها ولا آخر. كلها حدثت تحت مسميات رعناء لا تمت للواقع بأي صلة غير الكذب والتزوير والتلفيق. ولم تعد حياة الهاربين من الطاعون لها طعم كما كانوا يطمحون أو يحلمون. ما يبيتون عليه يصبحون. قتل وتشريد ودمار وصوت الكايزر لا ينقطع عن الصهيل "ما دمت أنا موجود الوطن موجود"، ثم يكمل صهيله بنعيق شاذ مقزز "لولا وجودي في سماء الوطن لما ساوى الأخير بعرة خروف"، يقهقهه بعنجهية مأخوذًا ككافر لا يصدق ما سيحصل له نتيجة اعتدائه المشين وعدوانه النزق البربري الغشيم.

جلوسهم أمام التلفاز الذي لا يفقهون لغته باستثناء كريم كان متكهربًا. حاولوا الاتصال بالأهل ولم يفلحوا. الخطوط إما مشغولة أو مقطوعة. انقطعت بهم سُبل

التواصل، باتوا لا يعرفون بالضبط ما يحصل لأهلهم وما سيؤول إليه حالهم وظروفهم. هذا وحده كان كافيًا لتسميم حياتهم، زيادة أرقهم، قلقهم وعذابهم.

• • • •

انزلقت الأمور بسرعة رهيبة نحو الأسوأ. الكايزر لا يخجل ولا يستحي. سلطة أمريكا تغمز بمكر مغتبطة بما يحصل لما ستجنيه من أموال وسيطرة محكمة على المنطقة رغم تنديداتها الظاهرة التي ترددها وأفعالها غير أقولها. تظاهرات مناهضة شملت مدن كثيرة من العالم تطالب انهاء الحرب، العدول عنها والرجوع إلى نقطة البداية. آدم وأنهر رغم تحذيرات كريم لهما اشتركا في بعض تلك التجمعات التي تندد بالحرب وتفضح نتائجها المبيتة، المسبقة والمخطط لها من قبل في ساحة المدينة الرئيسية في هانوفر.

انقضت فترة استجمام وسياحة المحامي المأفون كما يطيب لكريم مناداته. رجع إلى عمله وأول يوم بعد عودته التقاه الهاربون من الطاعون بصحبة كريم. قدموا له النص الذي كتبه آدم بعنوان "البهلوان" كنوع من النشاط السياسي الأدبي ضد حكومة الكايزر. انفجر المحامي بالكلام دفعة واحدة كعادته، حاول كريم اللحاق به ومتابعته، قال من ضمن ما قاله:

- هذا عمل رائع من آدم. سيكون له دور مؤثر في عملية تعجيل قبول لجوئه وبالتالي يكون مردوده إيجابيًا على زوجته بالتأكيد، ثم استطرد ناعقًا طافقًا ملتهبًا: الحرب لها فائدة رغم مما ستسببه من كوارث على الجميع خاصة المجتمع الذي أتوا منه، الفائدة التي أقصدها تكمن بأنهم لن يرجعوا مجددًا تحت أي سبب ربما تتحجج به محكمة اللجوء، مختصر القول: لجوؤهم أصبح مضمونًا، لا خوف عليهم منه. بعد أن أرجع ظهره ولصقه بمقعده، ناح: أريد دفعة جديدة من المال، ولتكن هذه المرة ثلاثمائة مارك على الحساب.

ثمانية أسابيع مضت ولم يحدث جديد في قضية لجوئهم. مواردهم المالية في تناقص متزايد. حركتهم باتت أكثر تحديدًا وخطورة. تواجدهم في بيت كريم لفت انتباه الجيران الفضوليين، بدأوا يتبسبسون ويتوشوشون فيما بينهم بالنميمة حول وجود

أكثر من ساكن جديد في شقة كريم دون تنسيق مع صاحب البناية؛ هذا لا يجوز في شريعة الألمان!. دخول وخروج أصدقاء كريم كان سبب ازعاج مستمر لآدم وأنهر اللذين لم يتعودا هذا النمط من الحياة. ففي إحدى المرات تجرأ أحدهم طالبًا من أنهر حلق شعر رأسه. انتفض زوجها من طلب الشاب الغريب، قال وقتها حاسمًا النقاش:
- زوجتي ليست حلاّقة.

وحدث مرة في منتصف الليل طرقات على باب الشقة بشكل متواصل مما سبَّب لهم رعبًا حقيقيًا لا يوصف. بعد أن فتح كريم الباب واجهه شخص معتوه يحمل في يده قطعة جبن معفنة، سلمها إليه وهو يضحك بنزق: أحضرتها من فرنسا خصيصًا لك، شمها، رائحتها مشعة، انظر إلى الزراق الذي حولها، هذا عفن أصلي، ذق قطعه منها. سوف لن تنساها وتطالبني بالمزيد منها!.
حتى حانت ساعة الحسم في مساء كانوا جالسين حول مائدة الطعام قصيرة الأقدام بدأها آدم بقوله بعد أن عزم أمره مع أنهر وهو يوجه خطابه إلى نسيبه:
- سنرجع إلى ميونخ. إذا رغب كمال العودة معنا فلا نمانع.
توقف لبرهة لجس وقع كلماته، ثم واصل بجدية خالصة تفتت الحجر:
- كما لا يخفى بأن المحامي الشاطر لم يقدِّم شيئًا يفيدنا، كل ما فعله هو أخذ منا تسعمائة مارك لحد الآن. أعرف بأنك أجهدت نفسك معنا، وأعرف كذلك بأنك لم تقصِّر في شيء لا سمح الله، بل العكس، غيّرنا لك حياتك، اقتحمناها دون أن يكون لك سبب، أو تقترف أيما ذنب. ناهيك عن كوننا لا نتمتع بالحماية الصحية ولا نملك أوراقًا تجعلنا نتحرك بشكل طبيعي داخل المدينة لنحس بأننا نعيش، نمارس حياتنا بشكل عادي، ندرس اللغة مثلاً، أو أن نعمل. كل هذا غير متوفر في حالتنا. مسح أنهر بنظرة منكسرة وتابع من بين أسنانه بحسرة:
- اسمع، اضطررت قبل ثلاثة أيام من تجديد أدويتي التي لا أستغني عنها المتعلقة بمرض الربو وأزماته اللعينة التي تشبه الأزمات التي تعيشها المنطقة الشرقية الآن والتي تلم بنا من كل صوبٍ وحدب، ما شاء الله عليها، تحبنا ولا تعرف كيف تستغني عنا، لا تريد أن تتركنا وحالنا. ما علينا، نقدت الصيدلاني ثمانين مارگًا أخرجتها من جيبي كما يخرج الدم من اللثة دون رغبتي. كلك نظر يانسيبي الحبيب، فلو فرغت جيوبنا من المال وهذا ما سيحدث قريبًا جدًا سنلتجأ إليك، لأننا ببساطة لا

نعرف غيرك. ترى ماذا سيكون موقفك والأمر هكذا؟، فحلان وأنثى ظروفهم غير عادية بلا مورد، يصرفون ما جاءوا به وأحضروه معهم من حفنة من الدولارات سرعان ما ستنفذ وقتها تكون أنت المعيل، هل تقدر ؟. أنا أعلم جيدًا، لا تعوزك الرغبة، لكن، هل لديك الإمكانية لفعل ذلك؟. ماذا عن كاترين أم ابنك؟، لا تنساها، لها حق، وحق كبير عليك كذلك، سوف لن تقبل حتى لو رضيت أنت. وعليه قررنا أنا وأنهر بعد تفكير طويل بالعودة إلى مدينة ميونخ ومن هناك نبدأ بتقديم لجوء جديد ونحكي لهم بالضبط كل ما حصل معنا.

ارتعش كمال لسماع كلمات آدم القاصمة، تقلصت شفتاه وانحسر الدم في وجهه... نبر بعد تردد دام لحظات:

- أرجع معكما. لا حياة لي هنا في هانوفر. لم أحبها، كل شيء فيها ممقت، مزعج والناس لا أشعر بأنهم أسوياء، حتى بناتهم، أغلبهن تركيات غريبات عن المجتمع كما يظن لي، لا تعرف لهن رأسًا ولا قدمًا، أما عن الألمانيات فهن أكثر غرابة وشذوذًا، يحبن الشرب والتدخين واللعب والهوى أكثر من أي شيء آخر، هذا ما رأيته بأم عيني، عن قرب، في كل الأوقات التي اصطحبت كريم فيها... توقف، بلع ريقه، التمعت عيناه الزرقاوان الجميلتان، تابع:

- لا تزعل من كلامي، أنا لم أحب هذه الحياة، أشعر بأن مستقبلي سيكون في ميونخ أفضل، وأنا كما تعلم سأكون بحماية أنهر وآدم، يعني، لا تقلق عليّ. ومن ثم سنزورك كلما يشتد بنا الشوق. نعدك... لم ينزعج كريم مما سمعه. قال حاسمًا الرغبات بكلمة مقتضبة صريحة لا تقبل التأويل:

- أرجو لكم مستقبلاً زاهرًا في ميونخ، ثم معقبًا: ميونخ مدينة ليست أوربية فقط، بل عالمية. اقتصادها لا يستهان به، حركة العمل وفرصه أقوى وأفضل بكثير مما موجود هنا، هذا أمر معروف لا يحتاج إلى إثبات. أتمنى لكم الموفقية، لن أقف في طريق سعادتكم.

رُفعت الجلسة وانتهى النقاش بقرار العودة.

• • • •

العودة التي بدأت صورتها البشعة من أول وهله عندما كانوا جالسين في مقطورة القطار الذي أقلهم نحو هدفهم الجديد "ميونخ"، الصورة التي لم يتوقع الهاربون من الطاعون حدوثها في بلد تسطع في سمائه الحرية والمساواة والعدل والتطبيل لكل ذلك ليل نهار كأنهم يتقصدون الصراخ تبجحًا في وجوه العالم الثالث النائم في الضفة الأخرى على حافة الكون. من تلك الصورة تشكلت لهم خيوط نسيج حياتهم الجديدة التي من أجلها تركوا كل شيء خلفهم ظانين بأنهم سيحققون ذواتهم على غير الأرض التي ولدوا عليها عندما صعد أحد الألمان من أصحاب الوجوه الحمراء والعيون الزرقاء ذات القطار وفي نفس المقطورة التي كان المساكين أصدقاؤنا جالسين فيها، قانطين، يشعرون بالغُبن والإحباط والقلق على وطنهم وشعبهم يأكلهم والرجل الأحمر يبحث عن مكان للجلوس ولم يجد حتى رأى آدم وهو جالس بجانب أنهر يقابلهما كمال. تقدَّم من آدم دون أن ينطق، كان ضخم الجثة عملاقًا في منتصف الحلقة الخامسة أملس الوجه طافح بالعافية متفصد بالدم. لم يتباطأ أو يتردد، وقف فوق رؤوسهم كالصقر ثم جلس في حضن آدم كأنه لا يراه. أراد أن يقول، هذا مكاني ومقعد جلوسي، أنا ابن هذا الوطن، وأنت. ما أنت؟ ومنْ تكون؟، إلا كائن غريب أجنبي لا مكان لك هنا.

❁ ❁ ❁

obeikan.com

المؤلف في سطور

- روائي وقاص عراقي، من مواليد بغداد ١٩٦٥م.
- درس الهندسة الزراعية في جامعة بغداد
- هاجر مع زوجته إلى ألمانيا عام ١٩٩٠م.
- أسَّس مجلة باللغة العربية بعنوان (ميمرا الكلمة) في ميونيخ عام ١٩٩٩م، وترَّأس تحريرها.
- نشر مجموعة كبيرة من القصص القصيرة والحكايات والمقالات في مواقع ومجلات عربية عديدة منها: مجلة آفاق مندائية، مجلة العهد، مجلة أقلام الثقافية، مجلة أصوات الشمال، الناس، أدب، شبكة حنين، وطيور دجلة، وغيرها الكثير.
- له محاولات عديدة في الرسم.
- أقام أثناء دراسته في الجامعة ثلاثة معارض رسم تشكيلي.
- أسَّس في عام ٢٠١٤ م رابطة للأدباء والفنانين والمثقفين المندائيين وعمل في لجنتها التحضيرية عامين.
- أسَّس في عام ٢٠١٧ منتدى تحت اسم "منتدى الوالي الحُر للقصة القصيرة" يشجِّع فيه كل المواهب الشابة من خلال صفحته الإلكترونية الخاصة.

- الإصدارات :

- نتاج السنين : مجموعة قصصية. مطبعة فاكَنر، ميونخ ٢٠٠٥م
- الشك وأشياء أخرى : مسرحية. مطبعة فاكَنر، ميونخ ٢٠٠٧م
- الدين والنبي في التاريخ : دراسة. مطبعة فاكَنر، ميونخ ٢٠١٠م
- الموتى لا يتكلمون : مجموعة قصصية. شمس للنشر والإعلام، القاهرة ٢٠١٤م
- الهروب إلى الجحيم : مجموعة قصصية. شمس للنشر والإعلام، القاهرة ٢٠١٤م
- عجائب يا زمن : مجموعة قصصية. شمس للنشر والإعلام، القاهرة ٢٠١٥م

obeikan.com

- أنْهُر بنت الرافدين : رواية . شمس للنشر والإعلام، القاهرة ٢٠١٦م
- طاعون الشرق : رواية . شمس للنشر والإعلام، القاهرة ٢٠١٦م
- الـوهـم : رواية . شمس للنشر والإعلام، القاهرة ٢٠١٧م

• إصدارات تحت الطبع :

- العودة : رواية . شمس للنشر والإعلام، القاهرة
- من داخل الزنزانة : مجموعة قصصية . شمس للنشر والإعلام، القاهرة
- قصة حياة امرأة شرقية : قصة طويلة . شمس للنشر والإعلام، القاهرة
- تأملات في عالم الإنسان : مجموعة مقالات . شمس للنشر والإعلام، القاهرة

• البريد الإلكتروني : haitham65@hotmail.de

obeikan.com

obeikan.com

(+2) 02 27238004 - (+2) 01288890065

www.shams-group.net